الجامعة الإسلامية العالمية
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

أثر الأدب العربي في القصة الصومالية

رسالة ماجيستير في اللغة العربية

بقلم
عبد الله حسين حسن

International Islamic Univ.
المكتبة
LIBRARY
Islamabad
الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

المشرف
ا.د. رجاء عبد المنعم جبر
عميد كلية اللغة العربية

اسلام آباد
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

MS
٨٩٢٧٣
ح س ا
١- ادب عربي- قصص-
Accession No. T-520
11/08/2010
DATA ENTERED
25/02/14

توقيعات المناقشين

١ – أ.د. رجاء عبد المنعم جبر :.....

٢ – د. مير والي خان :.....

٣ – أ.د. عبد المطلب زيد :.....

إسلام آباد

التاريخ :..../.../.....هـ

كلمة شكر

أتقدم بأطيب آيات الشكر الى مشرف رسالتى وإلى جميع أساتذتنا الذين علمونا كيف ننهل من مناهل العلم ونهتدى بمناراته، والعلم كما قيل إن دنوت منه داناك وان بعدت منه بعد عنك .

وحقا أردنا أن نصبح من الذين يعتكفون فى منتديات المعرفة فوجدنا فى الجامعة الاسلامية العالمية باسلام آباد القلوب المفعمة بالخير المتشوقة لنشر العلم وترسيخ الثقافة النيرة التى تجدى وتنهض بالأمة الاسلامية فى آذهان الطلبة، وبدون مبالغة أو مجاملة أقر بأن أساتذتنا الأجلاء يمثلون مرتبة الأب الحنون العطوف على أبنائه ، ولا يبقى أمامنا إلاّ أن نقول لهم يكفيكم فخرا واعتزازا بأن نصير فى المستقبل المنظور جنودا يرفعون راية العلم، ونسأل الله العلى القدير أن يجعلنا واياهم من الذين يخدمون لصالح الاسلام والمسلمين .

****

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة تخرج من ماجستير فى اللغة العربية

أثر الادب العربى

فى

القصة الصومالية

أعدها و كتبها

عبد الله حسين حسن

المقدمة :

إن الآمر الجدير بالذكر هو أن الصوماليين يتميزون عن غيرهم من الشعوب العربية بتمسكهم الشديد بالتراث العربى، فالصوماليون بطبعهم عرب خلص ، ويليق بى أن أشير إلى أن عدم كتابة الصوماليين تراثهم المنطوق باللغة العربية راجع إلى عوامل أهمها تصدى المستعمرون لأى علاقة تربط الصوماليين بأشقائهم العرب ، وقد فرضت السلطات الأجنبية حظرا رسميا على لغة الضاد فى الصومال ، وسوف أوضح فى هذا البحث أسباب رسوخ التراث والثقافة العربية فى المجتمع الصومالى، فالواقع يبرهن لنا على متانةالأدب العربى فى الصومال ، ولم يخضع الشعب الصومالى لمحاولات محو هويته وتراثه العربى، ولعلنا ندرك أن اهتمام الصوماليين بالآدب العربى ناجم عن الموقع والتبادل التجارى والهجرة واشتياق الصوماليين إلى أمجادهم العربية التى ابتعدوا عنها نظرا لانسماجهم ببحر من أقوام لا صلة لهم بالعرب وعروبتهم .

فالبنسبة للموقع نلاحظ أن الصومال تقع فى منطقة عربية إذ لا تتجاوز المنطقة الحدودية بين مدينة (بريدا) الصومالية وجزيرة (سقطرة) اليمنية ثلاثين ميلا .

والتبادل التجارى كان له صدى كبيرا فى توثيق الأواصر الثقافية بين اليمن والصومال ،

فتجارة البخور كانت سائدة فى شرق الصومال ،وظلت السفن التجارية القادمة من اليمن ومصر والشام ترسو فى شواطئ بوصاصو وقندلة وبارجال وعلوله لنقل البخور من هذه المدن الصومالية التى اشتهرت قديما، وما فتيئت حتى الآن قاعدة أساسية لتجارة البينية، والحجى والبيدى[1] وهذا التبادل التجارى أدى إلى عدم تساهل العرب بما وجدوه من تراث أدبى وثقافة عربية ناهيك عن الآثار التى عثروا عليها والتى تبرهن على عروبة الصومال .

وقد ساعدت هجرة العرب القادمين من شمال ووسط، وجنوب شبه الجزيرة العربية "الحضارمة" فى تقوية روابط الصومال بأشقائها العرب، وغدت المصاهرة ركيزة أساسية لنمو الأخوة القائمة بينهم، ويبدو جليا أن الرحلات الجماعية المتبادلة بينهم دعمت مناهل الثقافة العربية فى الصومال، وفتحت أبواب الخلاوى التى يدرس فيها القرآن الكريم تلاها انتشار تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى فى حلقات تسمى " حلقات الذكر" وقد لعب علماء الدين الصوماليين الذين رجعوا من الحجاز ومصر دورا فعالا فى تثقيف الصوماليين وتزويدهم بعلوم الدين واللغة العربية، وأشهر هؤلاء العلماء الشيخ عبد الرحمن الزيلعى، والشيخ عبد السلام شيخ محمد، والشيخ على جورى والشيخ عبد الرحمن أفجوريه، وقدوضعوا كتباتحوى مزيدا من قصائد التصوف بلغة عربية رزينة تبرهن على أصالتهم العربية، وأهم تلك الكتب " قصائد النور " و " منهج الجيلانى " و " مديح الأولياء " و الجوهر النفيس فى خواص الشيخ أويس، وحنين الصوماليين أو شوقهم لأشقائهم العرب ألهب قلوب الصوماليين و حرك مشاعرهم فخصصوا لكل وافد عربى يقدم من بلاد العرب جناحا خاصا فى حلقات الذكر، وقد أدى الاحترام الذى يكنه

---

(١) أجود أنواع البخور وهى مسميات صومالية .

الصوماليون للعروبة اهتمام شيوخ العرب بالصومال، وقد بعث الشيخ سعد بن سعيد السالم العمانى بعد عودته من الصومال سفينة كاملة ملآنة بكتب الدين، والأدب العربى فى الصومال لم يكن مستوردا بل كان مشعلا بدأ ضياؤه من داخل الصومال ، والوثائق الأدبية التى احترقت فى متحف (برقش) بمقدشيو كشفت للمهتمين بأصالة الأدب العربى الصومالى تمسك الصوماليين الشديد بالتراث العربى ، ولكى لا أدخل فى متاهات تبعدنى عن زبدة الموضوع أحب الاشارة إلى أن الأديب عندنا يعطى الأولوية لفنين من فنون الأدب هما : الشعر والقصة ويعد ما تبقى من ذلك فنونا ثانوية ، ومن ثم فاننى أسلط الضوء على القصة وهى الموضوع الرئيس الذى يهمنى

وأتعرض لنبذة عن القصة العربية قديمها وحديثها، وأهم أطوارها وأشهر فرسانها لأؤكد أن القصة الصومالية لا تخرج عن هذه الأطر ، ويجذر بى أن أشير الى أن الفرق بين القصة والرواية لم يكن معرفا تعريفا علميا عند الصوماليين القدامى، واذ نظرنا بنظرة فاحصة بعض القصص الصومالية ذات الطابع العربى نجد أن سياقها وطولها يشبهان بما يعرف فى عصرنا الحاضر بالرواية وقد يتبين لقارئ القصة الصومالية أن قصة كقصة (طج طير) الطويلة تبدو وكأنها حلقات من رواية مترامية الأطراف ، ونفهم من هذا أن اصطلاح " قصة " غلب الرواية .

وفى هذا البحث أشرح بقدر ما تيسر محتويات القصة الصومالية بأنواعها المتباينة موضحا تأثرها بالقصة العربية القديمة والحديثة وأستهل برصد موضوعى عن الروافد الثقافية العربية التى تستند اليها القصة فى الصومال ، وأتحدث أيضا عن جذور القصة الصومالية وتركيبة مقوماتها الأدبية وأنواعها .

ومن الأمور الهامة التى أتطرق اليها ايضاح ميزات التأثيرات العربية فى الأدب الصومالى وأثرها فى القصة المعاصرة والقديمة .

وفى نهاية المطاف أختتم هذا الكتاب بمقارنات بين القصص الصومالية وقصص

شقيقاتها العرب الغابرة والحالية، ونماذج مشوقة من قصص السلف والخلف مستشهدا بقصص بعض القصاصيين العرب الناجحين فى مجال القصة القصيرة، وسأوضح كذلك - بقدر علمى المتواضع - فى الخاتمة مميزات القصة الصومالية المكتوبة بالعربية فى الصومال. والله أعلم .

الباب الأول

****

الفصل الأول

في

الثقافة العربية في البيئة الصومالية

انّ رسوخ الثقافة العربية في الصومال ناجم من الارتباطات العميقة بين الصوماليين وأشقائهم العرب ، فالصومال قبل كل شيء كانت معبرا ومنفذا رئيسيا للمهاجرين الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية لعوامل متباينة، واستقر بعضهم في الصومال ، ويبدو جليا أن الحارثيين والزيديين والحسنيين - أحفاد حسن بن علىّ القرشي - وغيرهم من خيرة علماء العرب عاشوا في موطنهم الثاني الصومال وأسسوا هناك منتديات ومدارس، وكتاتيب تدرس فيها الثقافة العربية، وكذلك كان لنزول الرحالة العربي الكبير ابن بطوطة وغيره من حملة العلم العرب على مدن مطلة لسواحل الصومال أثر كبير في احياء الثقافة العربية في الصومال، والدلائل التالية التي يعرضها صاحب كتاب " **الصومال قديما وحديثا** " حول متانة الثقافة العربية في الصومال دليل على صحة نمو الثقافة العربية في الصومال :

- ارتبطت الأمة الصومالية بالامة العربية منذ التاريخ ارتباطا انسانيا قائما على وحدة الأصول الجنسية وكلاهما في بيئتين متشابهتين من حيث الظروف الطبيعية وقد دعم من تقاربهما سهولة الاتصال البحري فكان بين الأمتين تكامل بشري وطبيعي وجغرافي، وفي تبادل المنافع المشتركة، وهي مجموعها علاقات انسانية سليمة ولكنها تعرضتا لموجات من النهوض والمجد والاتحاد ، والى موجات من الخمود والركود والانحلال حينما كانت تتدخل في صداقتها دولة أخرى تعمل للتفرقة بينهما ليطيب لها الحياة على الجانبين ... وظلت العلاقات بين " سبأ " والصومال في قوة حتى عام ٢٣٠ ق . م .

حينما ثارت بعض قبائل اليمن على زعامة سبأ ونمت قوة " حمير " واستطاعت عام ١١٥ ق . م . أن ترث ملك سبا، القبائل اليمنية وتؤسس دولة حمير، وتمثل فترة هذه الدولة العصر الذهبى للملاحة فى البحر الأحمر وعلى شواطىء الصومال .

وفى الواقع حمل العرب فى ركاب التجارة أسس الحضارات الشرقية القديمة وملامح من الثقافة والمدنية (بابل وأشور بالعراق وبلاد المصريين) وكان حامل هذه المدنيات أو الوسطاء بمعنى أدق من عرب الجنوب من اليمنيين والحضارمة والعمانيين فهم يمثلون عمد الرباط التجارى، والحضارى بين الصومال ودول العالم القديم وكانت آخر عملية لانصهار العرب فى بوتقة الصومال ماحدث فى عام ١٩٢٤م حينما وصل بحاره عرب إلى جزيرة سوقطرة بعد غرق سفينتهم بالقرب من علوله على الساحل الصومالى وقام بانقاذهم الصوماليون من سكان " مجير تينيا " وطابت لهم الحياة على ساحل مجيرتينيا وعملوا فى صيد الأسماك وأقاموا قرية سموها سوقطرة قرب علولة[1]

ومما يدل أيضا على رسوخ الثقافة العربية فى الصومال أسبقية الصومال فى الاسلام فالاسلام فى الصومال لم يكن مجرد دعوة محصورة فى دور العبادة وانما نقل العلماء العرب إلى الصومال العلوم العقلية وعلم اللغة والأحياء والكمياء والثقافات المتعددة ويتبين فى نفس الكتاب السابق الذكر هذا القول :

" كانت الصومال فى استقبال الدعوة أسبق من أى دولة أخرى أفريقية أو أسيوية، ويرجح أن الصومال بحكم صلاتها القديمة ببلاد العرب وبحكم وجود جاليات عربية على ساحل الصومال منذ عهد انهيار سد مأرب فى عام ١٢٠ ميلادية وماتلا ذلك ، والمرجح أن الصومال عرفت الاسلام فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلّم ، والفتح الكبير للاسلام فى الصومال لم يكن عسكريا وانما كان فتحا ثقافيا ودينيا وقد حملت جيوش الفتح أو دعاة الاسلام إلى هذه البلاد حضارة ذات مظاهر ثلاثة :

١ - طابع الحضارة العربية من حرية العقيدة وحرية الفكر وعدم الجمود .

(١) - من كتاب " الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم الجزء الأول ص : ٣٣٥ .

٢ ـ ثقافة عربية اسلامية جامعة شاملة لمختلف العلوم والمعارف .

٣ ـ الدين الاسلامي نفسه الذى يتلاءم مع كل زمان ومكان [(١)] .

والاتفاقات الثقافية التى ابرمتها الصومال مع البلدان العربية رفعت المستوى الثقافى للصوماليين فقد انتشرت المراكز التثقيفية والمكتبات والمدارس الأهلية العربية التى تركز أنشطتها فى تقوية اللغة العربية وتربية الشباب بتربية عربية اسلامية ، ومن الاتفاقيات الثقافية المثمرة اتفاقية أبرمتها الحكومة الصومالية مع مصر (٧ يناير ١٩٦١ م وتنص على التبادل الثقافى والعلمى والفنى بين البلدين وتبادل الزيارات للأغراض الثقافية والتعليمية وزيادة حجم المنح الدراسية للطلبة الصوماليين وتسهيل تبادل الكتب والدوريات التعلمية و الخبراء ... الخ[(٢)].

وايمان الصوماليين الراسخ بعروبتهم أدى برغم ما حدث لهم من اختلاط بأمم أخرى إلى عدم نسيانهم للثقافة العربية، وفى هذا الصدد استشهد ماذكرته دائرة المعارف عن انتشار الثقافة العربية فى بر الصومال :

" يجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار لذلك الغرض الذى يقول : ان وجود امارات ثقافة أرفع من الثقافة الصومالية الحالية ماثلة فى بعض الأقطار الداخلية ينسبها الأهالى إلى الأجوران أو الماندلة يجير لنا أن نرجع تلك الثقافة إلى قوم من الصوماليين كانواعلى صلة وثيقة بعرب الساحل الجنوبى وذلك أقرب من أن نردها إلى قوم من الأهالى تأثروا بثقافة دول سدامما الشمالية، والصو ماليون جميعا يتبعو ن المذهب الشافعى ولم يعمد امام مسقط ولا سلاطين زنجيبار أثناء حكمهم للساحل الصومالى الى نشر آرائهم الأباضية بأية حال بين الشعوب الصومالية، ولم يبق أى أثر من آثار المذهب الأباضى، ويمكن أن نجد بين العرب الذين هاجروا حديثا إلى بلاد الصومال عساكر أو عمالا فى مستعمرات

---

(١) ـ من كتاب الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم الجزء الأول صفحة : ٣٤٨ .
(٢) ـ نفس المرجع الجزء الثانى ، صفحة : ٤٦٦ .

الأوروبيين عددامن الزيدية وان كان هؤلاء بصفة عامة لا يجهرون بمذهبهم،ومدن الساحل الصومالى التى ظلت عدة قرون متصلة بمراكز الثقافة الاسلامية وانتظمت فى جماعات من أرباب الحرف يرتبط أهلها بالروابط التى تصل أهل الحضر بعضهم ببعض ، ولا يرتبطون بالوشائج التى تصل بين أهل القبيلة جميعا، وقد يسر بطبيعة الحال الأسباب التى تجعلهم أكثر اصطباغا بالاسلام من قبائل الداخل التى درجت على الاستقلال من سكان الساحل والشعور بالعداوة لهم وسوء الظن فيهم [1].

أما على الساحل فى مراكز الثقافة الاسلامية، وخاصة بعد ماطرأ من زيادة رواج التجارة فى النصف الثانى القرن ١٩ فاننا نجد أن آثار الفقهاء المسلمينقد أثمرت زادا محليا قليلا فى التأليف باللغة العربية وخاصة فى الموضوعات الصوفية، وأهم الكتب المطبوعة هى : المجموعة المباركة للشيخ عبد الله بن يوسف وهو مواطن صومالى من جماعة " شيخال" طبع كتابه فى القاهرة و " مجموعة القصائد " للشيخ قاسم بن محى الدين من أهل براوى، وهذا الكتاب ليس الا ديوانا لكثير من الشعراء الصوماليين على أن المجموعة المباركة قد قسمها الشيخ عبد الله إلى خمس مقالات فى التصوف ولكن همه الحق قد صرفه إلى المقالة الثالثة والمقالة الرابعة وقد سمى الثالثة : (السكين الذابحة على الكلاب النابحة، وسمى الرابعة (نصر المؤمن على المردة الملحدين) وهذه المقالة رد شديد على الطريقة الصالحية، ومن الفقهاء الصوماليين البارزين الشيخ عويس محمد البراوى ، وقد نظم الشيخ عويس خمس قصائد بالصومالية كتبها بالحروف العربية فكان هو الوحيد الذى جرى على هذه السنة، ويحدر بنا أن نذكر أيضا الشيخ عبد الرحمن الزيلعى الذىنظم عدة قصائد صوفية بالعربية أكثرها شهرة (سراج العقول والسوائر فى التوسل بالشيخ عبد القادر الجيلانى ، وثمت فقيه صومالى آخر الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله من جماعة شانشيه فى مقدشو . وقد اشتهر بالشيخ صوفى وهو مؤلف كتاب شجرة اليقين

(١) - دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٧ مادة (صومال) صفحة ٤٤٨ - ٤٤٩ .

أو النبذة اليقينية في معجزات خير البرية، وقد نشر فى المجموعة المباركة ولهـــا شهـرة مستفيضة بين مذاهب الصوفية عند الصوماليين ، وثمت مخطوط عثر عليه فى براوى وهو يشتمل ترجمة لهمزية البوصيرى فى أبيات باللغة السواحلية، وأغلب الظن أن الابحاث التى اعقبت ذلك سوف تؤدى إلى ظهور مخطوطات أخرى قديمة أو وثائـــق بالعربية والصومالية[1] .

وأحب أن أضيف إلىدلائل المعارف ما شاهدته بأم عينى من اهتمام بالغ يكنـــه الصوماليون للثقافة العربية، فالكتاتيب التى كنا ندرس فيها فى عهد الصبا كان يفـــد اليها أساتذة من علماء العرب القادمين من اليمن ومصر وغيرهما وكانوا يوزعون للمشائخ وخاصة لحفاظ القرآن كتبا دينية أهمها القرآن والحديث، وكانت حلقات الذكـــر تتأهب لكل عام مسابقات يجريها هؤلاء العلماء ، ويكافؤ الفائز الأول بمنحة منحة دراسية فى جامعة الأزهر ، أما نحن التلاميذ فكان لزاما علينا حفظ القرآن والأحاديث، وفـــور نجاحنا فى الحفظ كانت المدارس العربية تستقبلنا لتزويدنا بثقافة عربية بعيدة عـــن الثقافة الاستعمارية التى كان يفرضها المحتلون على المواطنين، وكانت كتب التراث العربى التى تحمل أجود منتخباب الشعر العربى كشعر شوقى وحافظ ابراهيم والبـــارودى و البوصيرى منارة اعتزاز للثقافة العربية ولو تتبعنا بامعان مكانة الصومال فى العالـــم العربى نلمح أن انتشار الاسلام فى القرن الأفريقى عزز الثقافة العربية فى الصومـــال، وأعطى الصوماليين متانة وموقف ثقة بكافة الدعاة العربالذين اتخذوا من الصومال منفذا هاما لابلاغ الرسالة الاسلامية الى سائر بلدان أفريقيا، ومعروف لدى العـــرب أن الصومال كانت ضمن بلاد الهجرة الأولى ، ومجيء الاسلام الى هذه المنطقة الـــذى هوفى الأساس مرجع اللغة العربية فى الصومال مهد السبيل لانتشار الاسلام والثقافـــة العربية معا، وتؤكد كتب كثيرة منها كتاب " **الاسلام فى الصومال** " للدكتور عبد الرحمن

---

(١) ـ دائرة المعارف الاسلامية:ج ٧ (الصومال) : ٤٤٨ـ ٤٤٩ .

النجار، و " **أثر الاسلام فى أفرقيا** " للمؤلف البريطانى سبنسر تريمنجهام مدى رسوخ الاسلام والثقافة العربية فى الصومال .

يقول تريمنجهام : " ونظرا لاتصال بلدان البحر الأحمر بجزيرة العرب - مهد الاسلام- فقد دخلت مدن هذا البحر وجزره وسواحلة فى الاسلام بعد ظهوره تقريبا مثل جزر " **دهلك**" التى خضعت للأمويين فى سنة ٧١٥ ، ومن هذه المدن والجزر والسواحل انتشر الاسلام فى الأرض المنخفضة السهلة المجاورة مثل " البجة " و " عفار " الدناكل"وذلك بفضل الطرق الجيدة التى ترتبط بلاد البجة بموانىء البحر الأحمر مثل طريق عيذاب الذى كان يسلكه الحجاج عابروا الصحراء، و من " زيلع " كانت الطرق التجارية تسير نحو الداخل عن طريق " هرر " فى الحبشة إلى أقليم المرتفعات ، وكان التوسع الاسلامى مرتبطا بالتجارة التى كانت فى أوج نشاطها، وبناء عليه قامت دويلات اسلامية فى هذا الاقليم منها : "آفات" و"أودل" و"مرارا" و"هوبات " و " جدايا " كما اعتنق الاسلام كثير من القبائل فى جنوب نهر " هواش " حيث نمت هرر كمدينة مسلمة، وكان الاسلام قوة كبيرة يقاوم توسع نفوذ الدولة الحبشية فى الجنوب ، والجنوب الشرقي، وكان من أبر ز الشخصيات الاسلامية " أحمد جرى " الذى سيطر على الحبشة، ولكنه قتل فى عام ١٥٤٢ م فضاع نفوذ اتباعه[1] .

ومن خلال فهمنا لهذا التحليل الذى يوضح فيه سبنسر تريمنجهام معالم الروابط العربية بالقرن الأفريقى نلاحظ بشكل ملموس أن قيام دولة اسلامية خلال الفتوحات وما بعد ها فى بقاع القرن لم تكن قائمة بصورة عشوائية يديرها أناس جديدى عهد بالاسلام، وانما الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة كانوا عربا نقلوا عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم الثقافى إلى القرن الأفريقى .

---

(١) - أثر الاسلام فى أفريقيا : للمؤلف البريطانى سبنسر تريمنجهام .

وحرى بى أن أذكر أيضا أن هؤلاء العرب الذين استوطنوا فى الصومال وهم مدعومين بقوة الاسلام لم تضمحل ثقافتهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم العربية، ولاعرو اذا تأثر لسانهم بألسنة أمم أخرى تحاصرها من كل الجهات ، والأمر الأهم والمهم هوأن القاعدة الأساسية للثقافة العربية فى الصومال ظل قائما لم يتزحزح عن منزلته فى مجتمعنا والدارس لمزاج الصوماليين وتراثهم الحضارى يصل إلى نتيجة مردها أن عرب شبة الجزيرة العربية أثبتوا وجود ثقافتهم ودورها الفعال فى هذه المنطقة، فعلم الأنساب والشعر الغنائى والخطبة والأمثال والقصة البطولية كقصة " البسوس " كلها ثقافات يتميز بها العرب وهذه الثقافة الأبية سائدة فى المجتمع الصومالى العربى ، وقد برهن بحث سابق غير مطبوع قمت به فى وقت فائت أن العناية بالأنساب وحفظ أسماء البطون والعشائر والأفخاذ مفخرة عند القبائل الصومالية ويكن البدو للنسابة احتراما وتقديرا المعلوماتة المتوفرة واحاطته بأيام وألقاب وأسماء الأجداد، وقد التقيت فى احدى جولاتى لبوادى " بنبار و"بنيدى " بمحافظة " بكول " الواقعة فى جنوب غرب الصومال عجوزا اسمه " طكل طبر " تجاوز عمره التسعين أدى فريضة الحج وعمره عشرون عاما يحفظ أسماء مائة وخمسين قبيلة عربية متنقلة عن طريقة سفن الصحراء وسفن البحر بين بربره وجده ومرورا بأرض الحجاز فى العربية السعودية وحتى غالبية مناطق القرن الأفريقى ، وكان ذلك النسابة يؤمن حسب خبرته ومرجعه الشفوى أن الصوماليين أبناء " صمال محمد عمرو " القرشى العقيلى الهاشمى، وينكر هذا النسابة القول القائل بأن صومالى تعنى (صومال) أى احلب الناقة، ويقول : إن ازالة الفيوم التى خيمت على الأصل العربى للصوماليين ليس أمر صعبا، فالصومالى بطبعه وبذوقه وعرفه عربى، وصمال هو الجد الجذر للصوماليين وهو صمال بن محمد بن عمرو بن عبد الصمد بن لضمير بن عقيل، وهذه ايماءه بسيطة تكشف لنا أن علم الأنساب فى الصومال صار عنصرا حيويا يضاعف متانة الثقافة العربية فى المجتمع الصومالى ويجدب انتباه الصوماليين وتطلعهم لفنون الثقافة العربية مما يدل على اعتزازهم بما

يعتز به نظيرهم العربي .

والشعر الغنائي الذي يعد ميزة يتميز بها الشعر العربي عن غيره يكثر في أوساط الشعراء الصوماليين، والنمط الذي يغلب الشعر الغنائي وهو بروز أغراض معينة كالحماسة والفخر والفروسية في منهاجه الفطري يظهر كذلك في الشعر الصومالي مما يثبت أن الصومال قطعة من لحم عربي،والتباهي بالشعر والشاعر المتحمس أمر مألوف عند جميع القبائل الصومالية وهذا يعني أن ندرة الشعر القصصي والشعر الحر يفقدان مكانتهما في الشعر الغنائي الصومالي الحماسي مما يبين لباحث الأدب الصومالي أن غالبية المجتمع الصوماليّ معتمد على الحياة البدوية القائمة على أساس الطابع البدوي السائد في شبه الجزيرة العربية قبل اكتشاف البترول .

فالاستهلال بتصوير الأطلال والفروسية ووصف الابل والاقدام ميزة تجعل الشعر الصومالي لا يخرج عن نطاق الشعر العربي الغنائي الجاهلي، والبيت التالي الذي أنشده أحد الشعراء الجاهليين دليل قاطع يبرهن على تشابه شعرالحماس الصومالي والعربي الجاهلي ، يقول :

لوكنت من مازن لم تستبح ابلي * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا.

وها هو ذا الشاعر الصومالي فارح عولاد المنتمي إلى قبيلة تحس بضعف في الكم نهبت ابلها من قبل قبيلة قوية ذات عدد وعدة، يقول :

Haddaan geedi geedkiisa ahay ليتني لوكنت منتميا إلى آل جيدي

La ima goo yeene. لما أهانتني الأراذل .

Garac uma bareereen geeliyaan تروم عشائر لتقطع جذري

Gaasabixinaayay. وتسعى الأذال لنهب ابلي .

نلاحظ من خلال تحليلنا لهذين البيتين أن المقارنة بينهما تعطينا ثمرة من شجر واحد ومن طعم واحد، فالأول يحس بعقدة نفسية تجعله يتألم من حالة قبيلته التي لا تطيق مواجهة غطرسة قبيلة غالبة تستخدم النهب والبطش وينمني أن قبيلته

اذا صارت مثل عشيرة مازن القوية لما تعرضت للظلم والأخير يحس بما أحس به صاحبه من ضعف ومرارة، والبيتان من وزن وقافية واحدة

ويأتى الأستاذ حمدى السيد سالم الخبير فى شؤون الصومال وصاحب كتاب " **الصومال قديما وحديثا** " بأدلة ملموسة تبين القيمة الأدبية للشعر الصومالى :

" تظهر العبقرية الصومالية فى الأدب ولا سيما فى الشعر الذى يروى شفاها باللغة الصومالية، ليس الشعر الصومالى فنا منعزلا عن الحياة الصومالية، ولكنه ينتمى عن قرب الى العادات وطرق المعيشة للسكان فهو شعر متصل حي، يحفظ المعجبون بالشعر ومستوياته المختلفة، وغالبا ما يكون النقد لاذعا وينبذون وينسون الشعر الذى لم يصل الى المستوى اللائق ... ويتناقل الشعر من جيل الى جيل مشافهة بين الناس أو الرواة المتخصصين وذلك للشعر ذى المستوى الرفيع، وغالبا مايبقى مئات من السنين فى صدور الناس دون تحريف .

ويمتاز رواة الشعر الصومالى والمنشدون له بقوة الذاكرة فالمنشد الصومالى يمكنه أن يحفظ عن ظهر قلب أى قصيدة يسمعها لأول مرة، والحقيقة أن عدد المنشدين كبير جدا وذاكرتهم قوية لدرجة أنهم قادرون على جعل المستمع مشدوها من مساء الى مساء دون أن يكرروا نفس القصيد أكثر من مرة واحدة.وفى هذا النقل الشفوى للأدب الصومالى تبقى القصائد مطابقة للأصل بشكل يثير الدهشة، وهذه الأمانه فى النقل لا ترجع فقط الى قوة المنشدين ولكن كذلك إلى أسلوب الشعر الصومالى والى القواعد الشكلية للتأليف التى تجعل الشعر دائما فى حالته الأصلية فاذا حدث أى تغير لا يتمشى مع القواعد الأدبية فسرعان ملايلا حظه المستمعون ويعلنونه فى سخرية، ويقدر الصوماليون شعرهم ويلمون به الماما كبيرا ويرجع بقاء الكثير من هذه القصائد غير المكتوبه إلى التقدير الكبير للشعر بين الصوماليين فى كل ميادين الحياة وللمنزلة الهامة التى يشغلها فى عقول وقلوب عامة الناس والقصائد التى يمكن تسميتها بالقصائد الكلاسيكية هي أحسن أنواع الشعر ، فالقصائد الصومالية ابعد مايكون عن البساطة حيث أنها معقدة ودقيقة وتتبع قواعد صعبة ،

ويؤلف الشعر بنوع من النغمات تستعمل عند ما تنشد القصيدة أو تغنّى، ولها نوع من الجرس الموسيقى ومقاييس الامتيازْ والاتقان شائعة بين الصوماليين رغم أنها تبدو مفهومة تقديريا أكثر من كونها واضحة كنظام موضوع للقياس الأدبى[1].

وينبغى أن نوضح أن الشعر الصومالى مر بمراحل تاريخية وقد ثبت لبعض الباحثين الغربيين الذين ترجموا مزيدا من الشعر الصومالى، وكان آخرهم " سير ويلسون " و " أندرو ويسكى " أن الشعر الصومالى غير المعاصر ينتهج منهج الشعر الجاهلى وهذا ما يؤكده " حمدى السيد " بدوره فى أثناء تقسيمه تاريخ الشعر الصومالى الى ثلاث فترات، فترة أولى تتسم بقلة الشعر لسبب عدم وجود لغة مكتوبة، وفترة ثانية سماها بمرحلة النضوج وهى فترة شعر النقائض بين علّي شرماركى وقمان بلحن ثم فترة ثالثة يطلق عليها مرحلة الشعر السياسى والحماسى نحو الحرية، ولكونى صوماليا قضى ردحا من الزمن فى تتبّع وفهم تراث أمته أقر بأن حمدى السيد سالم وفق فى أثناء شرحه وتقسيمه للشعر الصومالى على النحو التالى:

١ ـ الجباى : وهو قصيدة روائية طويلة وفلسفية ومن طراز الشعر القصصى الذى يروى سيرة الأبطال ونغمته عالية والشاعر ينشد الجباى فى أى موضوع غير أن الحرب من أهم أغراضه، وكذلك الدين والنصح والارشاد والتوفيق بين الجماعات المتشاحنة ليسود السلم والأمان. والأبيات التالية من الجباى للشاعر " سلام عربى" تحت عنوان " إلى صديق خائن " يعبر الشاعر عن مرارته وأسفه لفشل هذه الصداقة فيقول :

قبل أن تمطر السماء، وعندما تكون الرياح ساكنة .

تصبح حركة السفينة ذات الشراع العريض غير ممكنة.

والكتل الخشبية الكبيرة يصبح اشتعالها محلا .

دون أن يساعدها لهب القش الجاف .

---

(١) ـ ص ٥١٥ و٥١٦ الجزء الثانى من كتاب الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم .

= ولا يعيش وحده انسان دون حاجة فى يوم ما ...

= لمعاونة أخوانه ليخففوا عنه أحزانه ...

= فالانتصار تحملت عليه فى لعبة الحياة ...

= اذا لم أكن منعزلا وحدى دون عون الأخوان ...

= ان خير الجياد يشور اذا ماضرب بقسوة ...

= ضل عنانى ـ والحظ يفزعنى ...

= فهل لك أن تدعنى فى سلام ولا تجعلنى أصيح ... ؟

= أنظر الى .. .. انىكنسر السهول الواسعة ...

= فى مكان قاحل أجلس حزينا ...

= فى وقت الاجتماع ذلك الوقت المهيب ...

= عند ما يتلا فى الرجال واللسان حاد متأهب ...

= كنصل السيف لروح الرجال يزهق ...

= وحجة الرجل المغلوب تسمع والحكم يصدر ...

* * *

= بعض الناس يجانب الحق لا يعفون .... (١)

= وحقا يسمعون . فمثل هؤلاء يرسلهم القدر ...

= فهم للكراهية والحقد صنوان ... غلاظ القلوب ....

= فدنست اسمى جاهدا أمام الجميع ....

= ويوما اذا كان عندى لك حب

= فقسما بالله قد تعثر الآن و ولى

= تلك هي سنة الحياة وكم لها من مرارة .

---

(١) العبارة لا تخلو من الغموض والمراد أن بعض الناس لايترددون فى قول الحق مهما كلفتهم من مشقة .

= الشفقة نحو الرجال تولد الكراهية المستترة ... في هذه الحياة من صداقتنا ...

= سيحسم الله في الآخرة ابتعدت ... والآن مصيرك بطرف ردائك أعلقه ...

= لأني عن الولاء لك قد ابتعدت ... والآن مصيرك بطرف ردائك أعلقه ...

= والله وزحده أترك الحكم فيك ...

٢ ـ الجيفتو :

يتميز شعر الجيفتو بالناحية الجماعية في انشادة، وان كان لا يخالف كثيرا عن شعر الجباى في الطول والجرس الموسيقى غير أنه أقل شيوعا من الجباى، وفي الأبيات التالية من جيفتو بعنوان " اجابة السيد في اليج "[1] وهي قصيدة للسيد محمد عبد الله حسن قد نظمها كوسيلة لدحض اتهامات البريطانيين ثم أخذ يكيل لهم التهم ومنها:

= أنا أشكو وأنتم عن الاغارات عليكم تتحدثون ...

= أنتم السارقون لثرواتهم ولمساكنهم تنهبون ...

= أنتم المفسدون لأوطانهم، وبالروث تلوثون ...

= دفعتموهم الى الجوع فأصبحوا للعفن والضوارى يأكلون

= وهذا الهدف تجلبون ، واليوم تظنونهم ينهبون ...

= واذا التفاهات من بين ما في أكواخكم يسرقون ...

= فلاأشكو اليكم ولا الى أنتم تشكون ...

= فأنا أشكو وأنتم عن الاغارات عليكم تتحدثون ...

٣ ـ الجيرار :

الجيرار شعر قصير بالنسبة لشعر الجباى ، وغالبا ما يستعمل في تزويد أغانى الاغارات بين الجماعات، ويمتاز بسرعة التفعيلات سرعة تشبه وقع سنابك الخيل التى تعدو . والجيرار التالى يشبه أحد الخيول المفضلة .

---

(١) اسم منطقة (٢) ص : ٥٢٢ و ٥٢٣ الجزء الثانى من الصومال قديماوحديثا.

= واذا فى الفجر أسرجت جوادى

= وبعيدا بعيدا قد ركبت ...

= عبر السهول والانهار البعيدة ...

= فقبل الغروب سرعان مايعود ...

= فهو معي دائما فمن دونه لا يمكننى الحياة

= فهو يجوار مأوى كما لو كان قريبى .[1] .

٤ ـ البرامبر :

يتكون الشعر الكلاسيكى الصومالى من الجباى والجيفتو والجيرار ، أما الأنواع الأخرى من الشعر الصومالى فهي أخف مثل البرامبر الذى هو عبارة عن أغان نسائية تصاحبها أحيانا الطبول، والكورس والنصفيقات، ومن أمثلة هذا الشعر ما كتبته سحرادهاد بعنوان " رثاء حبيب متوفى " ويعتبر نموذجا صادقا للشعر .

= لقد كنت كالسياج المنيع = بين أرضنا وبين أحفاد على

= الآن وليت وأصبحت الآن كالسماء البخيلة بالمطر

= ولكنها تغطى الأرض بالضباب

= والقمر لأشعته لا يرسل

= وكالشمس المشرقة التى بأضوائها تبخل

= وكالقمر بين البصرة المفقودة فى أعماق البحر .

٥ ـ الهلو :

يعتبر الهلو أحد الأنواع الشعرية المحبوبة فى الصومال وخاصة بين الشباب فهو يشبه الأغانى العربية الشعبية، ويؤلفه شعراء شبان وموضوعه فى العادة تناول الغرام و والحب ، والهلو عمرها قصير وقد ألف أول هلو فى عام ١٩٤٥ بواسطة سائق يدعى

(١) ص ÷ ٥٢٣ ـ ٥٢٤ جزء الثانى كتاب " الصومال قديما وحيثا ".

عبدى ديكس ويطلق عليه أصدقاؤه اسم (عبده سينمو) ويستعمل الهلو فى العادة بعض الرمزيات والمحسنات البديعية لكن يعبر عن معان كثيرة فى قصيدة صغيرة وتلك أبيات من الهلو لشاعر مجهول أجاد الوصف والمعنى فى أن واحد :

= عند ما قد تخمد فالسرور

= وبسكون الأرض تستقر

= فلا تجعل الآن القديس

= يبعدك عن أغانيك

= فجمالك الفضى يبدو لى

= كمكان فيه الحشائش تميل

= بعد أن باركته الأمطار

= وعند ما ترسل الشمس أشعتها

= فالرجل المفتون يحلم يقظة .

= اقتحم قلبه كالجن ليسكنه

= لايمكنه أن ينام فهذه الليالى

= كنت بعيدا وسحب السماء تسير[1].

٦ ـ الهيس : (الغناء)

يمكن أن نسمى الشعر الحضرى باسم الهيس لأنه يتناول موضوعات محلية أو سياسية وهو فى العادة بسيط ومباشر فى أغراضه ولا يعمر طويلا، وسرعان ما يحل محله الجديد منه، وقد الفت المقطوعة التالية من الهيس بمناسبة احتفالات الاستقلال بقيام الجمهورية الصومالية من اتحاد الأقليمين الشمالى والجنوبى ...

= الحرية والكرامة ملك لك

---

(١) الصومال قديما وحديثا: ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

= والبدان اتحدا

= المجد لله

= قل انه نصر الله

= هيا غنوا ونغموا راقصين

→ = فكل منا بقوتة كاملا

= وهذا يكفينا ... انه نصر من الله.

وأوافق على رأى حمدى السيد سالم القائل بأن المرأة محبوبة عند الشعراء وكل الصوماليين، وتخصيص الشعراء الصوماليين قسما كبيرا من أغراض الشعر للمرأة دليل على اهتمامهم بشؤون المرأة وحقوقها ويعرض حمدى السيد شعر أحد الشعراء الصوماليين عن المرأة:

= من أجلك نسيت كل شيء حتى بنى جلدتى

= أذكرينى قبل أن أدخل سجنا أو قبرا ...

= أذكرينى أن حياتى معلقة بك ...

= انى مفرط فى الحب لك ...

= أبحث عنك فى كل مكان ...

= والأرض كلها موحله من المطر ...

= لا يسير أحد سواى ...

= لقد هلكت فى البحث عنك ... (١).

وبالاضافة الى تحليل الأستاذ الكبير حمدى السيد للشعر الصومالى وأصنافه أحب أن أشير الى غرض رئيسى وهو ما يعرف بـ " علاعل جباى " أى شعر العتاب، فقد يشكو الشاعر من فقر مدقع أو من من صحراء تجعله ظمانا لايستطيع التحرك ... أو يشكو من ملامة ومظلمة فرد أو قوم وما أشبه شمور " طرفه بن العبد " الذى يتأوه ويشكو من ملامة وعتاب عمه له بأبيات الشاعر الصومالى المخضرم " زاهد قمام " الآتية :

---

(١) - السابق .

Nin ku xiga nicii kuu galaa — = ما أتعس ظلم ذوى القربى

Nadalka kaa gooye

Nagaala aan tagee reer xirsaw — ذرونى ياآل حرصى

Nacay agt iin iiye — = فلا شأن لكم بأمرى .

mar Haddaanan naaskii tolnimo. — حتى وان طال بى المقام

Idinka nuugaynin — فى آراضى نغال البعيدة .

Ma Nassaradaad iga xigtaan — = وما دمت لا أجد عونكم،

Nacay agtiiniiye. — فان النصارى أفضل منكم .

وباختصار شديد يتضح من معنى ومضمون أبيات زاهد كراهيته لبعض أبناء عمومته " آل حرصى " الذين تساهلوا فى اكرامه، وأرادوافى نفس الوقت أن يلوموه بما لا لوم فيه.

ولا أكون مبالغا اذا قلت ان الشاعرين طرفه بن العبد وزاهد قمام ينطلقان من مظلمة واحدة، والفرق بينهما هو أن زاهد يشكو من جماعة أو عشيرة، أما طرفة فيستبعد لوم عمه المتأسف من ادمانه للخمر وتبذيره المال فى أمور تافهة فيقول طرفة :

" فذرنى وعرضى اننى لك شاكر ولو حل بيتى نائيا عند ضرغد

واذا سلطنا الضوء على أهم غرض شعرى فى قالب الشعر الصومالى نلاحظ بشكل ملموس أن الشعر الحماسى هو زبدة الشعر الصومالى وربما يصعب على باحث الشعر الصومالى الحماسى احصاء الأعداد الكثيرة من الصوماليين الذين هيجهم شعر الحماس فقتلوا وقتلوا واذا كان الشاعر الصومالى البدوى يتلخص شعرهالحماسى فى تحريض القبيلة وحثها على الثأر والانتقام، فان الشاعر الصومالى المعاصر حتى وان كان أميا تحول شعره الى مسار آخر يعاصر العصر ويترجم عن مطالب الشعب ، فهذا هو الشاعر الكبير المرحوم " خليف شيخ محمود " ينتفض ويثور ضد برى وحكمه القهرى

وينشد شعرا سياسيا لا يخلو عنه فى نفس الوقت عن المرارات البدوية، يقول :

- Mar unbaa malkada caabudwaaq

وعما قريب سيزل الهلاك

Miig ku soo dagiye

- Mar unbuu madluunkii la miray

فى وديان عابد واق *

Maabka soo-galiye.

وسيعيد التاريخ أمجاد المظلومين

فى هاتين البيتين يعرض الشاعر خليف شعوره أزاء مستقبل نظام سياد برى الا ستبدادى فيشير : أن يوما من الأيام ستنهار دولة الاستبداد وستنزل فى وقت ما طائرات الميج على قلاع عابد واق - مدينة موالية للمستبد - ثم يذكر أن المظلوم الذى أعدم وحوده سشت فى يوم من الأيام وجوده فى مركزه خريطة العالم، ويشبه هذا الأبيات التالية التى تبد وأنها متأثرة بشعر الشاعر التونسى الشاب أبو القاسم الشابى القائل :

ومن لا يحب صعود الجبال * يعيش أبد الدهر بين الحفر

وترجمة البيتين بالعربية هى :

Buuraha bilaa daha haddaad

Baarka fanan wayda.

من لا يطمح الى الوصول الى قمم المجد

Bassarkaaguna uu yahay inaad

Bahalku noolaato.

سيبقى ذليلا فى الحضيض

Bugto iyo waxaa Kuu danbayn

Baagad iyo ciille.

ومن تسول له نفسه العيش فى الخفر سيظل نادما

ويلاحظ أن البيتين ينطلقان من مضمون واحد، ويرميان الى هدف واحد يؤكد وعيهما الناضيج ، وعدم انتهاجهما بمسلك الحماس البدوى الذى لايحرص الا اثارة النعرات القبلية.

---

* عابد واق : مسقط رأس برى .

ومن الدلائل التى تبرهن على انتشار الثقافة العربية رسوخ شعر التصوف فى الصومال، وقد أكثر الشيوخ - رجال الدين - انشاد شعر التصوف واستخدموا الألفاظ والكلمات الموحية الفصيحة، والأمر المستحت هو أن الصوماليين الذين منعتهم سلطات الاستعمار التكلم بالعربية يجيدون العربية وينطقون بنوع من الشعر المتواضع، وقد تبحروا فى علم العروض ، وأوضح مثال للكثرة الكاثرة من الشعر العربى فى الصومال شعر التصوف أو ما سمي بـ " قصائد المتصوفين " فهذ الشيخ القادرى [1] الشيخ " أويس " أنشد مزيدا من قصائد التصوف، ويقول صاحب " الجوهر النفيس فى خواص الشيخ أويس " محمد الشيخ عبد الرحمن عمر عن قصيدة من قضائد الشيخ أويس : " يكرر الناشدون بالجلالتين والتوحيد ثلاث مرات أو أزيد، وفى بعض الأوقات يكررون كثيرا مع أناشيد يدخلونها بينها لذيذات بصوت حسن ، ثم ينشد القادرى - أى المنتسب الى الطريقة القادرية - الأبيات المنقولة من الشيخ أويس القادرى رضى الله عنه من بحر الطويل وغيره وهي هذه :

ألا يارسول الله قلبى مهيم ... ونفس بكت فى وجهك المتلمع

ألا يا رسول الله أنت شرابنا ... و أنت غذانا عند كل مشبع

ألا يا رسول الله أنت ملاذنا ... وأنت رجانا عند كل مشفع

أغثنا أغثنا حبيبي وكن لنا ... رؤفا رحيما عند خفض ومرفع [2]

وقد أنشد الشيخ أويس فى أثناء تواجده فى قلنقول [3]،أروع قصائده فى التوسل وأفرط فى شعر المديح الصوفى، ويتميز شعره بعمق المعنى ومتانة الألفاظ والأساليب البلاغية.الممتعة التى تحرك عشاق التصوف الساهرين طوال الليالى والحالمين السابحين فى عالم غير عالمنا وفى أجواء غير أجوائنا الخاضعة للمقاييس العلمية والدقة المتناهية فى كل عمل نمارسه، ولعل المتتبع

(١) - نسبة الى القادرية وهي طريقة من طرق الصوفية المستمدة من الشيخ عبد القادر الجيلانى .
(٢) - الجوهر النفيس فى خواص الشيخ أويس ص : ٥٨ .
(٣) - قَلَنْقُول : منطقة فى الصومال الغربى التابعة لأثيوبيا .

للأبيات التالية التى قالها الشيخ أويس القادرى يستنبط أو يستنتج من معانيها وكلماتها الموحية ذات النغم الرنان ما يدل على أن الشعر العربى فى الصومال له أصالة نابعة من تراث عربى عريق يبرهن على أن الصوماليين لا ينطقون الشعر بطريقة التكلف الشاذ وانما ينشدونه من فطرة يقول : (1)

يا ربّ صلى على محمد نبينا أشرف أشرق الأنام
رأيت المصطفى فى المنام بروضة أشرف المقام
تلك الرؤيا ليلة الخميس وموهبه من ربّ الأنام
ومحيا كبدر منير فلا شك أنه ختام
وكان جالسا فى المحافل والناس خلفه بازدحام
لما رأيت به يقينا فصحت صيحة باهتمام
وزاد شوقى و اشتياقى وذاك فيضه يا مرامى
ياقرة العين يا حبيبي أغث عبيدك باعتصام
أويس جاءك مستغيثا فمد له يدك كالكرام
وأغفر لأشياخنا جميعا بنى محمد على التمام
سيد عمر الثانى عفيفا سيد بكر عالم العلام
نجل الشطا نسبة لهم من أصول أجداد هم كرام
يا ناس صلوا على النبى لنبلغ الأمن بالختام
يارّب صلى على محمد ماغردت فحول الحمام
وآلة والصحب جميعا والتابعين بلا انصرام

ويورد صاحب كتاب " **الجوهر النفيس فى خواص الشيخ أويس** " تمهيدا لهذه القصيدة السالفة بصيغة تبرهن التزامه بالأمانة العلمية فيقول : وله أيضا - أى الشيخ

---

(1) - يعتقد بعض النقاد عندنا أن الأبيات المذكورة من الشعر الجيد ولكننا نلاحظ أن هذه الأبيات الضئيل من شعر التصوف الذى نجا من الضياع يعد عندنا شعرا متواضعا لا بأس به، وأحببت تسجيله فى هذا البحث .

أويس - هذه القصيدة المسماة بروح المسرة فى الصلاة على صاحب المسرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعلى اله وصحبه بالدوام، وهي مطبوعة فى مجموعة قصائد مع تخميسها للشيخ شمس الدين قاسم البراوى القادرى رحمهما الله تعالى آمين وهي محبوبة عند الذاكرين وغيرهم ينشدونها فى الصعدية، ويأخذونها بذكر السلام، وفى المجالس الخيرية قد ألفها الشيخ أويس القادرى (ر) فى الروضة المشرفة مع جماعة من أهل الخير نفعنا الله بها وبناظمها وبجميع الصلحاء آمين وهي من بحر البسيط المقطوع المجزو عروضا وضربا خمسة عشر بيتا [1] .

والخطبة العربية انتشرت فى أماكن كثيرة من الصومال، وتنقسم الى قسمين: خطبة قديمة تضاهى خطب ما قبل ظهور الاسلام وتتحدث عن محاسن البادية والماشية، وعن وصف الخيل والحروب اضافة إلى ذكرها لأهوال الدنيا وآهات الزمن، واستمدت هذه الخطب جذورها من الخطب التى كانت تلقى فى أسواق عكاظ، والعنزة بالجزيرة العربية، و دليلى على هذا أننى التقيت فى مدينة زيلع برجل عجوز اسمه ادريس جيدى ألالى ناهز عمره الثمانين ، حفظ خطبة " قس بن ساعدة الأيادى " وهو فى السنة التاسعة وأنبانى أن جده ورث كلمات هذه الخطبة من أجداده، ولم يتعلمها عن طريق الكتابة، وقد شاهدت كذلك فى هرجيسا و بوصاصو أعدادا كثيرة من حفظة خطب خطباء العصر الجاهلى.

ويلقى الخطيب الصومالى المتمتع بذلاقة اللسان ونصاعة البيان احتراما فى أوساط الصوماليين ذات الملكة الأدبية كما يتمتع الخطيب باعتزاز واكرام العامة له، فالخطيب قبل كل شيء يحمي ضمائر الناس بفصاحته التى تمكنه توضيح القضية التى تدور حولها الخطبة ، والخطبة الصومالية تتميز برزانة الكلمات

---

(١) - ص٩٣ من كتاب الجوهر النفيس فى خواص الشيخ أويس، وأردت عدم ذكر هذه الأبيات هنا لسبب طعن الموحدين بما فيها المزايدة والمبالغة .

ولا تجد الخطبة الموصوفة بركاكة الألفاظ رواجا فى المجال الأدبى ولا الشارع العام، لذا يبذل الخطيب المحنك جهده لكسب انتباه الناس وتحريك مشاعرهم وتهييج عواطفهم وموضوع الخطبة الصومالية لا يخرج عن نطاق موضوع الخطبة العربية، والخطبة الصومالية فى مرحلتها الأولى كانت تسير على منوال الخطبة العربية فى العصر الجاهلى إذ يتفادى الخطيب البارع الموضوع الهش والعبارات الضعيفة عندما يتحدث عن الغيرة والانتقام والنجدة والفروسية ... الخ .

والخطيب الصومالى البدوى يقف فوق كومة من التراب ليسمع جميع المستمعين أقواله بصوت جذاب، أما فى أوقات الحروب فانه يلقى كلماته من على ظهر الجمل أو الحصان وذلك حفاظا على الوقت، واذا نجحت الخطبة فى تأثير السامعين لما فيها من الحماسة والفصاحة فان أهم جزئياتها أو بعض مقولاتها الرائعة تحفظ عن ظهر قلب، وربما تبقى عهودا طويلة فى ذاكرة الحفاظ والرواة ومن مشاهير الخطباء الصوماليين فى العصر الجاهلى الصومالى " طجح تور " و " تى تهى تجى " وهما فى المجتمع الصومالى البدوى يمثلان منزلة كمنزلة " قس بن ساعدة الأيادى " و " عمرو بن معد يكرب " الزيدى .

ونعرض هنا خطبة " تى تهى تجى " التى تذكر عندنا بأنها تشبة خطبة " قس بن ساعدة التالية :

" أيّها الناس اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ماهو آت آت ، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر وجبال مرساة، وأرض مدحاه، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبرا، وان فى الأرض لعبرا، مابال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ ، يامعشر أياد، أين الآباء والأجداد، أين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول آجالا ؟ طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بتطاولة " .

وخطبة " تى تهى تجى "[1] جاءت شفوية بسياق أدبى فصيح بلغة حديثة العهد بالكتابة والتدوين وتمت كتابتها بأحرف لا تينية بعيدة كل البعد عن الكتابة العربية مما أدى إلى صعوبة ترجمتها من قبل المترجمين لفنون الأدب وعلى أى حال أحبذ سردها كما كتبت بالأحرف اللاتينية ثم أفسرها أو بالأحرى أترجمها إلى العربية لندرك أن قس بن ساعده وتى تهى تجى عاشا فى عصر واحد، وتتناول خطبتهما موضوعا واحدا وأحاسيسهما نحو مستقبل ومصير الدنيا واحوال الموتى فى العصور الغابرة واحدة :

Aayada Aguugaman	آيات محكمات واضحات :
Uura roob il doogaad	مطرها طل وعشب أخضر:
Oort iya ilwaadeed	زوج وزينة تبهر:
Uun wada ilays gabay	أناس بدون بصيرة :
Iftiin iyo allay dama	ليل مظلم وضوء ينير :
Anshax iyo abbaar Li	سلوك طيب وسفاهة عمياء:
Oon iyo Aloolkeed	طعم و طعام :
Xiddig sii xijaabtiyo	نجم هوى :
Sama saabku wayn yahay	وسماء عريضة :
Baddu baaxad Waynaa	بحار تموج نجهل سرها :
Uumiga idlaad a a ...	الأمم البائدة :
Maba soo aroore	لا تعود :
Halkuu unug ku leeyahay ?	فبربكم أين ذهبوا :

وقد أعطى الصوماليون فى الأونة الأخيرة أولوية كبيرة إلى الخطب الدينية ، وأفرطوا فى الاستهلال بالمقدمات التقليدية الشائعة فى الخطب العربية كخطب

(١) - " تى تهى تجى " كان خطيبا وحكيما وشاعرا اشتهر فى مجال الأدب الصومالى .

الجمعة والأعياد مثل :

" الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلّم ونتوب الى خالق الكون ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم .... الخ " .

وكان لزاما على التلاميذ فى المرحلة الابتدائية حفظ خطب أبى بكر الصديق وعمر الفاروق رضى الله عنهما، وقد لقيت الخطب الدينية اهتماما بالغا، وخطبة أبى بكر رضى الله عنه التالية كانت مثلا يتأسى ويحتذى بها الصوماليون :

" أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فاعينونى وان رأيتمونى على باطل فسددونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ... فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ".

الأمثال الصومالية :

جلها إن لم أقل كلها عربية بحتة مما يدل على عروبة الصومال العريقة بدليل أن الأمثال العربية لا تحتاج إلى ترجمة صومالية وذلك أن الأمثال الصومالية لا تنفصل عن الأمثال العربية شكلا ومضمونا، والأمثال الصومالية كسائر الأمثال العربية تنقسم الى أمثال عامية مبتذلة وهى شائعة فى أوساط أهل المدن الكبيرة وأمثال العربية الفصحى، ومعظمها أمثال الأقدمين ابتداء من العصر الجاهلى وحتى أواخر الدولة العباسية، ومادام المثل يعد درسا يتعلمه المرء من التجارب التى تمر به فاننا نلاحظ ، أن الأمثال فى الصومال سواء كانت فصيحة قديمة أو حديثة عامية أقوال قالها أو لو الحكمة من السلف والخلف، وعلى أن أشير إلى

أن الأمثال تطلق بحسب تعريف الصوماليين بـ " Murti Somali " أى زبدة الحكمة، فيسمون كل مثل حكمة، وقد عبر حمدى السيد سالم بدقة متناهية المراد من الحكم الصومالية بقوله :

" تدل الحكم الصومالية على درجة عظيمة من البصيرة والذكاء، وغالبا ما تستعمل فى الحديث، وتقطف من قصيدة أو قصة لتشرح نقطة ما بطريقة دقيقة، فليس هناك هروب من الحقيقة من هذا المثل : عندما يذهب الانسان للنوم ويستيقظ يجد نفسه أنه لم يتغير ؟ وفى شرح الحقيقة التى لا تتغير " الرجل الذى تعدى عليك لا يأخذك الى مكان ظليل"، وحكمة أخرى يمكن أن تقدر فى بلد آخر هي : " للأغبياء مائة عين، يرون أحبابهم بتسع وتسعين منها وبواحدة يرون أعدائهم ... وهناك عشرات من الأمثال الصومالية مازالت باقية، وتستخدم فى المناقشات فهم يختمون كل حياتهم بطريقة مركزة من حياتهم اليومية ... فمن حكمهم :

= أصبع واحدة لا تغسل الوجه.

= ويل للنائم من اليقظان، = الطعام الردئ يبقى فى الاناء.

= الكذاب يستعين بشهادة ميت أو غائب .

= من قبل أن تعرفنى ... لا تبعضنى ، = لا تضع ماء فى اناء مشقوق .

= ماحرمته السماء لا تحلله الأرض[1].

والأمثلة العربية التالية المكونة من العامية والفصحى لها نظائر فى اللغة الصومالية بل تبدو وكأنها طبق الأصل إذ لا خلاف بينهما فى المفردات والمعنى المقصود:

= من تكبر على الناس ذل : Kibir waa lagu kuffaa

معنى المثل بالعربية : يتعثر المتكبر وليعلم ذلك الجميع .

وهذا المثل الصومالى منقول من شعر الشاعر الصومالى اسماعيل ميرى ويضرب هذا المثل لسوء عاقبة التكبر .

---

(١) ص : ٥٣١ الجزء الثانى من كتاب الصومال قديما وحديثا.

= تجشأ لقمان من غير شبع : Wax uusan lahayn u heese

المعنى: يتغنى بأمر ليس فى حوزته.

ويضرب هذا المثل لمن يدعى ما ليس يملك .

= أول الحزم المشورة : Col hortiibbaa La hub samaystaa

المعنى: قبل كل شيء عليك اعداد العدة حين تغزو

ويقصد به اعداد العدة قبل خوض الأمور.

= يدك منك وان كانت شلاء: Fartaadoo bugta filiqfiliq kaagama harto

المعنى: نفس الألفاظ، ونفس المعنى الوارد فى المثال العربى يعنى

لا تقدر أن تتهرب ثغره من ثغرات نفسك . Geel baan lahaan jiray

= حمارتك العرجاء تغنيك عن سؤال اللعين Dameer baan leeyahay baa dhaan ta.

المعنى : ان حمارك أفضل من كل مضيعة، وهذا المثل العامى يضرب لمن يمد يده ويعتمد الآخرين .

أما القصة وهي بالنسبة لموضوعى مربط الفرس وزبدة البحث الذى بين يدى فكانت أقل شأنا من الشعر الصومالى والأمثال، ولم تنل نصيبها أو حظها من الكتابة، فالشعر والأمثال يسهل حفظهما عند المهتمين، ولكن القصة لطولها أحيانا ولكثرة استطراداتها غدت معرضة للاهمال فى أوساط الأدباء الصوماليين، وانتشر فى المجتمع الصومالى قصصا بدائية وقديمة قدم الزمان بعضها خيالى والبعض الآخر واقعى، وكانت غالبية القصص الخيالية قصص أطفال مثل قصة (طج طير) ولم تلح القصة الواقعية فى الأفق قبل عهد يلوال والسيد محمد عبد الله حسن وستأتى تفاصيل القصة وأطوارها فى باب كامل من هذا البحث .

CBR LIBRARY

الصومال بوابة العرب :

لعل الواقع يبرهن على مدى قوة العلاقة التاريخية والاقتصادية والسياسية

والاجتماعسة التى تربط الصومال بالعالم العربى فالبنية الأرضية للصومال تجعل قبل كل شيء هذا البلد الأفريقى مرتبطا ارتباطا وثيقا بالوطن العربى ولقد أثبت بعض العلماء الجغرافيين أن خليج عدن الذى يفصل بين الصومال واليمن كان قبل ثلاثة قرون مضيقا ضيقا لا تتجاوز ساعات السفر بين طرفيه ثلاث ساعات، ولكن نظرا للهزات والانشقاقات الأرضية التى تعرضت لها المنطقة وسعت المسافة بين اليابس فى كلا الجانبين ومع هذا فان العبارة التى تخرج اليوم من (رأس عسير) بالصومال والمتزجهة الى جزيرة سقطرة اليمنية تجتاز المساحة البحرية فى خلال ساعات محدودات ، واذا أردنا ايضاح الأمر أكثر من اللازم فإن الأخوة وهى أهم من الأميال والكيلومترات وطيدة بين الصوماليين وأشقائهم العرب، وتخضع الأسس التاريخية والمصطلحات الموضحة لمعالم تاريخ الصوماليين لنفس المعايير والضوابط التى تحدد وتعرف تاريخ الأمة العربية مثل: العرب البائدة، والعرب العاربة والعرب المستعربة، والصوماليون كسائر بنى العرب مقسمون الى رحل من البدو، وأهل حضر يقطنون فى المدن على ضفاف الأنهار.، وغالبية الصوماليين من البدو، وينتمون الى أصل عربى قرشى[1]، وظلت صلتهم بالحشابرة، والحضارمة، وقبائل الشافع واليافع واليريم والشمر فى اليمن والسعودية راسخة جدا، وكان العامل الأقتصادى يأخذ دوره الرئيسى فى ترسيخ الصلات اذ كانت البخور والأغنام تصدر من الصومال وبالمثل كانت الصومال تستورد الزيتون، والحرير من الشام ومصر.

وقد أدت الأهمية الاستراتيجية للقطر الصومالى الى جذب انتباه الامبراطوريات والدول القوية التى حكمت العالم، ولقد عرفت مساجد الصومال أول مرة اقامة المآذن فى عهد الخليفة العادل عمربن عبد العزيز طيب الله ثراه، واضحت هرر قلعة المسلمين فى منطقة القرن الأفريقى ، وتسمى بمدينة الألف مسجد، وصارت موطنا للعرب القادمين من شبه الجزيرة العربية، ومصر، وبلدان المغرب العربى وتتلمذ كثير من الطلاب

---

(١) - دليلى على قرشية الصوماليين متوفر فى بعض كتب التاريخ، مثال: الصومال قديما وحديثا ص : ٣٥٢ و ص : ٥١٤ ودايرة المعارف ص : ٣٨٣ - ٣٨٤ .

الصوماليين والأورميين والعفريين على أيدى عديد من مشائخ العرب الوفدين ، واستفادت القوميات المسلمة القاطنة فى القرن الأفريقى من الثروة العلمية التى عمت مدينة هرر وضواحيها ويجدر بى أن أشيرعلى أن مشاهيرالعلماء الصوماليين النجباء الذين تخرجوا من المعاهد العربية المستمدة من المساجد فى هرر هم الشيخ أحمد الجبرتى شقيق اسماعيل الجبرتى، وعاشا هناك فى وقت قديم، ومن خريجيها الشيخ على جوهر، والعلامة غمر جودّ والأستاذ الشيخ يوسف الكونين [1] الذى نظم تهجيئة الحروف العربية بطريقة تطابق التهجيئة باللهجة الصومالية، فحول أسلوب الأبجدية العربية التالية الى التهجئته :

الف = بلا شيء . ب = باء نقطة من أسفل ـ تاءباثنين من على .

ومن جهة أخرى انتشرت مدارس تحفيظ القرآن فى جيفجيفا، وتوجه كثير من خريجى معاهد العربية والاسلامية الى " قلافو " و " فيامبره " و " حادو " و " جينفسنى " و "أوبرى " و " بورامى ، والتف طلاب العلم حول حلقات مشائخهم المجتهدين لتحصيل فنون العلم، ولم ينحصر دور مساجد جيفجيفا فى مجال التفسير والحديث النبوى فقط وانما أحاطت كافة أصناف اللغة كالعروض والنحو والبلاغة والأدب، والأصوات ومعلوم لدى الصوماليين أن مدن الصومال الغربى بدأ من قلافو الى جيفجيفا وهرر أنجبت فى أوائل وأواخر قرننا العشرين رجالا تبحروا فى علوم الدين واللغويات وفنون أخرى من العلم أهمهم الشيخ " عمر الأزهرى [2] والشيخ محمود محمد عمر [3] والشيخ " على الصوفى "، والبروفسيور " سعيد سمتر "

---

(١) ـ يوسف الكونين : من سلالة بنى عقيل، كان عالما جليلا كتب الصومالية بالعربية.

(٢) ـ الشيخ عمر الأزهرى : مدفون فى ديرداوا بأثيوبيا وكان متبحرا فى اللغة العربية والدين.

(٣) ـ الشيخ محمود محمد عمر: مدفون فى قلنقول بالصومال الغربى، واشتهر بتفسير الحديث .

المقيم حاليا في ولاية كينتيكي الأمريكية وهو أستاذ مشهور محاضر فى جامعة أمريكية فى نفس الولاية المذكورة، ومن المشاهير أيضا الكاتب الكبير الروائى " نور الدين فارح حسن " الذى نال لقب الرجل الثالث فى الرواية الأفريقية المقروءة والمكتوبة بالانجليزية ويسبقه فى هذا المجال كاتبان نيجيريان فقط هما " وول سوينكا " و " أكيبي "، ومن نجوم العلم فى قلافو و طجح بور المرحومان الشيخ " أحمد الشيخ طيب " والشيخ " عبد الرحمن أفجريه " وقد قدما كل غال ونفيس فى سبيل انعا ش ورفع مستوى لغة القرآن الكريم، وقد اقتبست معاهد هرر من معين مدرسة الحجاز التى كانت بمثابة عمود فقرى لمكافحة أعداء العرب ونشر التعاليم السماوية فى أرجاء القارة الأفريقية، فها هو ذا السيد محمد عبد الله حست ينزل فى ميناء " بربره " ثم يتوجه الى " تليح " التى أس فيها قلعة الجهاد الدينى، وسمي أنصاره بالدراويش ، وكان من مناصرى السيد محمد بعض القضاة العارفين بعلوم الفقه أشهرهم الشيخ " قوريو " والشيخ " أحمد فقهى " - نسبة الى الفقه .

ويجدر بالاهتمام البالغ الادارة المصرية التى حكمت أجزاء من شمال الصومال فى القرن التاسع عشر، فهذه الادارة جاءت مصطحبة باللغويين والجغرافيين والمؤرخين، وركزت على الجانب العلمى ، وتثبت الآثار الملحوظة فى أقصى شمال منطقة " أودل " المجاورة لجمهورية جيبوتى أن تلك البقعة ورثت ثروة علمية ضخمة من الفراعنة القدامى أولا ثم من الحكومة المصرية التى بسطت نفوذها فى بربه، وعيلايو، وجلجالا.

ويوجد حتى الآن تشابه كبير بين الرقصات المصرية الشعبية والأودلية بالصومال، وأقام الاداريون المصريون متحفا أثريا نقشت على جدرانه الكتابة العربية التى حلت محل الهيروغليفية فى مصر، وبعد انسحاب المصريين لم ينج ذلك المتحف من الضياع وسرقة البريطانيين، ولم يبق منه حاليا سوى حائط بسيط .

ودولة أودل الصومالية التى اتخذت من زيلع عاصمة استعادت روابطها المتينة مع الأمة العربية، ونجد فى أثناء تصفحنا لحرف الصاد فى دائرة المعارف الاسلامية أن المنطقة المذكورة كانت ذات صلة وثيقة بالعالم العربى منذ أمد طويل :

" ظلت المنطقة المحاذية للساحل عدة قرون على اتصال تجارى وثيق ببلاد العرب وهذه التجارة التى كانت قد بدأت مع المستعمرات التجارية فى جنوب المملكة العربية زادت رواجا غلى رواج فى العهد الاسلامى، ونشأ من هذا الاستعمار العربى دويلتان هما: زيلع ومقدشو اللتان أقامهما وحكمهما بصفة عامة دول من الوطنيين أمراؤها من العرب الذين تأثروا بالثقافة العربية تأثرا كبيرا، وقد تيسرت لمملكة زيلع التى ظلت تزدهر منذ القرن الرابع عشر الميلادى أسباب الحياة والرخاء معتمدة على الاتجار مع داخل البلاد حيث عاونتها الدول الاسلامية الكبيرة فى جنوبى الحبشة بقيادة " جران " على أنمقدشو لم تزدهر الاقترة قصيرة فى القرن ١٤ الميلادى ثم لم تلبث أن بدأت فى الاضمحلال ذلك أن أهلها لم يستطيعوا أن يتغلبوا على مقاومة البدو الصوماليين الذين كانوا يسكنون فى داخل البلاد وتقلبت على مقدشو صروف الدهر على اختلافها، ومع ذلك فقد استمرت محتفظة باستقلالها أيام دولة المظفر حتى القرن ١٦ الميلادى، وفى القرن ١٧ احتلها امام عمان، وبعد سنوات قليلة ترك هذا الامام الساحل جميعا الذى يعرف ببنادر هو ومقدشو لسكانه، وانما أصر على أن يعترفوا بسلطانه عليهم ولما انقسمت دولة مسقط الى سلطنة عمان وسلطنة زنجبار وكان ذلك فى أوائل القرن ١٩ جعلت مقدشو من نصيب زنجبار، وعندئذ حاول السلاطين أن يكون لهم ملك حق هناك باقامة وال وحاميات من الجنود فى مقدشو ومركه وبراوه، وما أن مضت مدة قليلة فى حكم هذه البلدان (حوالى سنتين عاما) حتى باعتها زنجبار لايطاليا"[1].

ونفهم من حديث المقريزى عن الحبشة صلة الصومال التى كانت تعد قديما من مملكة الحبشة بالعرب :

---

(١) ـ ص ٢٨٣ دائرة المعارف ، مجلد ٧ .

" وقد تكلم المقريزى على أقليم بالحبشة يسمى زيلع [1]، كان يشمل سبع امارات هى : أوفات ، ودوارو ، وأربنى، وشرخا، وبالى، ودارة ثم امارة هدية القوية، وكان يحكم كل من هذه الامارات أمير منها ولكنها جميعا كانت تخضع لسلطان (حطى) أمهرة، ومن البين أن المقريزى كان يصف دولة زيلع كما كانت فى السنوات ١٤٢٥ ـ ١٤٣٢ م عندما سعى جمال الدين الثانى فى اخضاعها لحكمه، والحق أنه نجح فى ذلك أمدا وجيزا دون أن يتمكن مع ذلك من السيطرة عليها سياسيا، وقد نمت امارة " أوفات " وكان أول أمرائها فيما نعلم أو عمر وشمع ، فقدت فى عهد حق الدين الثانى ١٣٦٥ ـ ٧٤ ـ ١٣٧٥ م امبراطورية زيلع نفسها، وهذه الامبراطورية هي عين أودل السابقة. "

وفى سنة ١٥٢١م نقل أبو بكر بن محمد سلطان أودل مقر حكومته الى " هرر " وبذلك جعله وثيق الصلة بشوة ... وبدأت بعيد ذلك الغزوة الكبيرة التى قام بها أحمد بن محمد جران الزعيم الصومالى يؤازره الجند والمدفعية التى زوده بها باشا زيلع التركى فتغلغل فى الحبشة حتى بلغ حدودها الشمالية وأنزل الدمار بالبلاد مرارا حتى أنه حرق كاتدرائية أكسوم المشهورة، وتاريخ هذه الغزوة الذى كتبه فقهاء العرب حوالى سنة ١٥٤٣ م هو المصنف العربى الوحيد الذى ذكر عدة أماكن فى الحبشة، وقد هزم الملك كلاوديوس الذى حكم من سنة ١٥٤٠م الى سنة ١٥٩٥م، زد على ذلك (٢٨٥) أنه مامن شك فى أن غزوات المسلمين وخاصة غزوات جران [2] (جرى [3]) ساعدت على فتح أبواب الحبشة للمسلمين، وهذا سبب وجودهم فى تلك البلاد، وان كان فرض الاسلام بحد السيف على يد ملوك أودل لم يكن ليدوم طويلا .

وفى دائرة المعارف أيضان ورد فى أثناء توضيح معالم قبائل الصومال ما يدل على أن الصومال كانت بوابة بل موطنا عربيا عريقا :

---

(١) ـ زيلع مدينة صومالية مطلة على ساحل خليج عدن .
(٢) ـ ص : ٢٨٣ دائرة المعارف ، مجلد ٧ .
(٣) ـ معناها بالصومالية الأيسر .

وهم جميعا مسلمون علقون بالخرافات والأوهام والسحر والعرافة ويصطنعون بيوتهم من القش والحصير، ويتملكون الرقيق، واذا خرجوا للحرب فسلاحهم الرمح والترس والقوس والسهام المسممة الا أنهم آخذون الآن فى استعمال البنادق ويتجرون بحاصلات بلادهم كالصمغ المر واللبان .

ولكل قبيلة منهم أمير يحكمها، ومع ذلك فليس لأمراء القبائل سلطة عظيمة عليهم، أما معيشتهم، وأخلاقهم وعاداتهم فتختلف باختلاف القبائل، ولغتهم مزيج من العربية والغالية أى لغة غالا[1] على أن بعض المحققين من العلماء أثبتوا لعهد قريب أن لهم لغة قديمة كثيرة التعابير متسعة الألفاظ شعرية المبانى، ولهم تجارة متصلة مع عرب اليمن، ولهذا يزعم البعض أنهم مزيج من العرب والسودان الغاليين .

وقد أمست هذه البلاد فى المدد الأخيرة عرضة لمطامع الغزاة والفاتحين من أوربا وأفريقية، فان الحبشة جردت عليها فى مارس من السنة الماضية (٩٧) حملة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل فزحفت الى " بارى " على شواطئ وهلى فهلكت بالحرب والدوسنطاريا والحمى ولم ينج منها الا ٢٠٠٠ ولم يكن ذلك ليكف الحبش، فعادوا الكرة وذهبوا عصابات غير منتظمة، وعاثوا فى البلاد ثم ان الانجليز استولى على بلاد الهاند، والشركة الايطالية التجارية تحاول من جهة أخرى الاستيلاء على شئ من البلاد باسم ملك ايطاليا .

وفى العصر الحديث لا يخفى على أحد من أبناء الصومال دور مصر الرئيسى فى استقلال الصومال، فالأديب الكبير محمد حسن الزيات والذى كان مندوب مصر لدى الصومال والأمم المتحدة فى أوائل الخمسينات حث الأمم المتحدة على منح الصومال استقلالها دون تأجيل، والاعتراف بسيادتها، وكان أول من رحب الوفد الصومالى الذى قاده المجاهدان " عبد الله عيسى " و " علي نور " البعثة المصرية بمقر الأمم، وكانت

(١) ـ دائرة المعارف من ص : ٨٢ الى ٨٥ .
(٢) ـ ص : دائرة المعارف : مجلد : ٧ .

مصر والفلبين، وكولومبيا قد عينت لتتولى بعثات هذه الدول الثلاث مسؤلية استفتاء حول حق تقرير المصير فى الصومال سنة ١٩٤٨م، وكان الشهيدكمال الدين صلاح المصرى رحمه الله المحرض الرئيسى لثورة الصوماليين ضد الاستعمار الايطالى، وأختار كمال الدين البقاءفى الصومال ، وفتح فى مقدشيو مدرسة الرابطة بحى " بيحان " ـ آنذاك ـ وكشف جهوده فى سبيل تحريض الصوماليين بمطالبة حقهم فى الحرية، وقد قتلته يد غادرة مدعومة من قبل ايطاليا ، ويعدُ استشهاد كمال الدين صلاح فى تراب الصومال دليل واضح، ونموذج للرابطة المتينة بين العرب و اخوانهم الصوماليين .

وبعد قيام الثورة المصرية فى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ م وجه المصريون أنظارهم الى الصومال وأوفدت أو بمعنى أوضح بعثت وزارة المعارف المصرية الى بر الصومال سنة ١٩٥٥م مئات المدرسين وتم بحمد الله افتتاح المدارس العربية فى مقدشيو، وهرجيسا وبوصاصو، وجالكعيو، وبلدوين، وسائر المحافظات الصومالية ، وكان لجهود الأساتذة المصريين الرامية إلى نشر اللغة العربية فى ربوع الصومال فضل كبير اذ بدأوا من الصفر حتى وصلوا الى الأوج، وأدى اجتهادهم الى ترك الطلاب المدارس الايطالية واللحاق بالمدارس العربية.

واذا لم يفطن كثير من الباحثين للتأكد من منزلة ومكانة بوابه العرب فى القارة الأفريقية فان هناك دليل آخر يثبت أن صرخة المسلم المستنجد فى القرن الأفريقى كانت تجد فى الماضى أذنا صاغية وأذهانا واعية مزودة بالايمان تستجيب لها، وما فائدة العروبة ان لم يشمر العربى ساعده لانقاذ أخاه العربى المسلم .. يقودنى هذا القول الى سرد نص للمؤلف " شهاب الدين " العربى، جاء فى كتابه " فتوح الحبشة " ـ الجزء الأول :

" فى عام ١٨٧٥م بعث ملك مصر الخديو اسماعيل بجيش على رأسه رؤوف باشا، ونزل الجيش من مدينة زيلع، واستمر فى مسيرته حتى استولى على مدينة هرر،

وحكم المصريون المدينة حتى جاء منيليك ملك الحبشة بعد عشر سنوات من مجيء المصريين بجيش كبير اجتاح المدينة، وفى عام ١٨٨٧م عين صديقه وقريبه " رأس مكنون" حاكما على هرر فضاعت (قدس قرن أفريقيا) الى الأبد، وسقط منار اهتدى به المسلمون ومنهل شربوا منه العلوم الاسلامية فى قرون عدة .

وكما يذكر ويحقق كثير من علماء الصوفية فى الصومال كانت مرافئ بربره وبوصاصو، ومقدشيو موطئ قدم لمشائخ العرب، وقد نزل فى هذه المدن المذكورة رجال دين من اليمن ومصر، وتونس بعد انسحاب الجيش المصرى من زيلع سنة ١٨٨٤م ، وكان هدف مجيء هؤلاء العلماء الاسلاميين العرب ترسيخ الثقافة العربية فى الصومال وتصديرها من الصومال الى بلدان أفريقيا السمراء، ونظراً لندرة الصحائف والدفاتر فى ذلك الزمن فتح العلماء الكتاتيب، واستخدم التلاميذ الألواح الخشبية لحفظ القرآن والتدريب على الكتابة العربية، وقد حافظت الكتاتيب على اللغة العربية، ومن المستحسن ألا ننسى أن العلماء العرب نظموا مجموعات من الشباب الصوماليين، بعثوا بعضهم الى القرى والمدن النائية فى الصومال لابلاغ الناس برسالة لغة القرآن الكريم، أما البعض الآخر فأرسلوهم الى الأزهر الشريف والحجاز، ورجع جميع الصوماليين من هناك بعد أن تزودوا بالعلم النير، وطفقوا يؤدون واجبهم فى نشر اللغة العربية وثقافتها.

واذا أردنا الحديث المفصل عن العامل اللغوى الذى يبدو وكأنه يفقد الصوماليين عنصرا مهما من عناصر الوحدة التى تربط بين أبناء الأمة العربية نجد أن الصوماليين معذورون بذلك، فالحصار الاستعمارى على الصومال والأقوام غير الناطقة بالعربية التى تحيط الصومال من كل الجهات يعدان من أهم أسباب تضعضع اللسان العربى فى الصومال واذ نظرنا الأمر من منظور آخر نلحظ أن بعض القبائل العربية الناطقة بلغة غير عربية ليست فى الصومال وحدها، وانما توجد وسط بلدان عربية معظم سكانها ينطقون بلغة الضاد مثل السودان وعمان والجزائر، فقبائل النوبة والهدنداوا والدينكا

وبعض المحصيين فى السودان لهم لغات خاصة محلية، وفى امكانهم التحدث بالعربية الرفيعة ـ غير الدارجة ـ وفى عمان يوجد بنسبة متواضعة أبناء عمومتنا المهرة الذين رغم معرفتهم الجيدة اللغة العربية ما انفكوا يحتفظون بلغتهم المهرية التى هى فى الحقيقة خليط من اللغة السامية والحامية، كذلك نلاحظ أن جنوب الجزائر تسكنه نسبة كبيرة من البربر العرب ينطقون بلغة بعيدة عن اللهجة العربية الجزائرية فى الشمال .

ومن ثم يمكننى القول بأن الصوماليين كهؤلاء العرب ينطقون بلسان غير عربى، ومع هذا فان القادرين على النطق بالعربية الفصحى تزيد نسبتهم عن ٥٥ ٪، وقد كان عدم اهتمام الحكومات الصومالية باللغة العربية عائقا منع تعريب المكاتب والمكتبات والمدارس والجامعات الصومالية، وظلت الحكومات الصومالية بتحريض من الأوربيين تركز اهتمامها على اللغة الايطالية والانجليزية، وصارت وسائل الطباعة ولغة الجامعات والمكاتب الحكومية لاتينية بحتة، واتخذ أساتذة اللغة العربية وعدد كبير من المناصرين لهم عدة قرارات لاحياء اللغة العربية، وشرعوا ينشرون المدارس العربية فى أرجاء الصومال، وكان مجيء البعثة المصرية إلى الصومال سنة ١٩٥٥م عونا بل نصرا مبينا للغة العربية فى الصومال، إذ ارتفع مستوى اللغة العربية ولاح فى الأفق الشعر العربى إذ ظهر عدد من الشعراء الصوماليين الذين تفتحت مواهبهم الشعرية قبل وبعد مجيء البعثة المصرية أمثال محمد عبد الرحمن ، وعمر الأزهرى، وعمر عرته غالب، وحرى بالذكر أن أئمة المساجد خصصوا جناحا كاملا لكل مسجد يحافظ فية الكتب اللغوية، وقد أدى هذا الاهتمام إلى تنافس الطلاب بقراءة تلك الكتب ، وخَرجَتْ المساجد عشرات الأدباء والخطباء والنحاة، ولم يأل الأزهر الشريف جهدا لمؤازرة أساتذة المساجد الصوماليين الذين تزاحمت حولهم آلاف من طلاب العلم، وكان المرشدون الأزهريون يتجولون فى كافة المحافظات الصومالية لتوسيع نطاق اللغة العربية، واتضح لهؤلاء المرشدين بطلاقة لسان التلاميذ القادمين من البادية ولقد كان من عادة أهل المدن ارسال أبنائهم إلى علماء لغة العرب الصوماليين الموجودين فى البادية بغرض تدريبهم فى اللغة العربية الفصحى ، وربما يستحسب فى هذا الباب الاشارة إلى أن اللغة الصومالية نفسها

كانت خليطا من العربية والكوشيتيكية ، واذا أردنا التوسع في ماهية اللغة الصومالية و أصلها نلاحظ أنها كانت لغة داخل لغة بدليل أن الصوماليين فيالقرن الخامس عشر وبالذات في عهد أحمد جرى [1] كانوا ينطقون بلغة صومالية مكتوبة بالأحرف العربية ، وتمثل ٦٠ ٪ من ألفاظها العربية الفصحى ، وما تبقى من مفرداتها راجع إلى اللغة الأرومية ، ومن المستحسن أن أضع هنا أمثلة مختصرة للمصطلحات أو الكلمات الصومالية الكثيرة التي تنطق كالعربية ، ولم يطرأ عليها أى تغيير في التهجئة ولا في الصوت مما يدل على أن اللغة الصومالية كانت ذات صلة وثيقة باللغة العربية، وأن ألسن الأمم المجاورة للصومال غلبت فى النهاية اللسان العربى المبين للصوماليين ، وفيما يلى مزيد من الكلمات الصومالية العربية :

بالصومالية	بالعربية	بالصومالية	بالعربية
ساعة	ساعة	جهاد	جهاد
صابون	صابون	جاسوس	جاسوس
صندوق	صندوق	جَماعدا	جماعه
زكاة	زكاة	فُجاَنْ	فنجان
فراش	فراش	كوب	كوب
فِنتانِ	فنان	بخيل	بخيل
فَهمتّو	فهم	طريق	طريق
فرس	فرس	أَسْكرِى	عسكرى
فردوس	فردوس	عبرو	عبرة
جُملُهْ	جملة	علامدْ	علامة
عَفَادْ	عِنَادْ	عيش	عيش

(١) - هو الإمام أحمد ابراهيم الذى تصدى للحملات الصليبية وقاد حركة الجهاد ضد ملوك الحبشة .

ومن خلال تفحصنا للألفاظ السابقة ندرك أن نطق الصوماليين لا يختلف عن نطق غيرهم من العرب، والمدهش أن أخوالنا الأورميين الذين تأثرنا بلغتهم الأورمية تأثرا كبيرا ينطقون العين الفاء والحاء هاء بينما يسهل للصوماليين نطق هذين الحرفين ، بل يمكننى القول بأن كل الأحرف الصومالية أحرف عربية بحتة وهذا دليل آخر يبين أن اللغة الصومالية انسلخت من العربية، وصارت لسبب اندماجها وارتباطها بالأورمية لغة مكونة من عربية وأورمية، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن شكل البيئة الصومالية الرعوى أدى إلى تفسخ أو انفصال الصومالية عن لغة الأصل " العربية" وأهم عامل من عوامل هذا الانفصال " عدم الكتابة " ، وهذا ما يؤكده المتخصص فى شؤون الصومال حمدى السيد سالم فى كتابه[1]:

الأدب الشامل الرقيق يتطلب مجموعة كلمات مختلفة ومفردات لغوية كثيرة، ولذلك فليس غريبا أن تكون اللغة الصومالية احدى اللغات الغنية الواسعة التى تلائم احتياجات الحياة واللغة الصومالية لغة معقدة لا يتعلمها أى شخص مالم يتخذها كلغة أم، وفيها طبقتان واضحتان من المفردات اللغوية تستعمل احداهما فى الحديث الدارج بينما تقتصر الأخرى على الأشعار والأمثال وهذه المجموعة الأخيرة من المفردات اللغوية التى يمكن أن يطلق عليها الأدب الصومالى تستخدم كلمات كثيرة مهجورة لقدمها كما أن القصائد الشعرية صيغت من كلمات من أصل صومالى، وبعضها استعيرت من اللغة العربية لقرب الثقافتين من عقل الشاعر، ومع أن اللغة الصومالية المختصة بالعلوم والادارة لا تستعمل فى الحديث اليومى فان الشعر الصومالى الكلاسيكى يستخدم كلتا طبقتى اللغة ... واللغة الصومالية تنتمى إلى هذا النوع من الابتداع والاختراع لأنها تحتوى على امكانيات لاحد لها من انشاء الكلمات وصوغها... وقد قامت الاذاعة بدور هام فى تكوين الكلمات الجديدة، والمذيعون يفخرون بأنهم لا يستعملون كلمات مستعارة أجنبية عدا لغة القرآن الكريم، وتحوى اللغة على كثير من الكلمات العربية ولكنها تنتمى إلى المجموعة

---

(١) - الصومال قديما وحديثا .

الكوشية أساسا وإن كان بينهما اختلاف بسيط، ويتكلم بهذه اللغة الكوشية جماعات الجالا [١] ونصف الأحباش تقريبا، والدناكل، والأفار فى اريتريا وفى الصومال الفرنسى ... ويرى بعض العلماء أن لغة الجالا ولغة الصوماليين من ناحية تاريخ تسلسل النسب لغتان شقيقتان وليست اللغة الصومالية باللغة المكتوبة من الناحية الرسمية[٢] وربما يبدو غريبا كيف أن مثل هذا الأدب الروائى الكبير لوقت طويل من الصوماليين ظل من غير أن يحول لغتهم إلى لغة مكتوبة ولكن هناك أسباب طبيعية أدت إلى هذه الحالة:

أولا : معظم الشعب الصومالى كان شعبا بدويا، واللغة المكتوبة لا تنمو بين الشعوب الدائمة الهجرة كما تنمو فى المجتمعات المستقرة المستوطنة.

ثانيا : كانت الحاجة إلى الكتابة قليلة منذ الف سنة مضت لأن اللغة العربية كانت تستعمل فى كل حاجات الحياة... وحينما قام المؤرخ العربى ابن بطوطة بزيارة الصومال فى القرن ١٤ شاهد منتديات الأدب والمدارس العربية فى الصومال، ومازالت اللغة العربية تعلم حتى الآن فى البوادى والمدن على حد سواء فينتقل المعلمون فى مدارس القرى لتعليم القرآن الكريم والفقة والتشريع الاسلامى وتوجد كليات متنقلة متجولة تعرف باسم حر (Hher) لتزويد المتعلمين بدراسات أعلى فى اللغة العربية .

واذا كان هذا شأن اللغة العربية بالصومال فى الماضى، فما الذى أفقدها قوتها وأضعف مستواها ؟

لقد كان السؤال المطروح أمام الحكومات المدنية الصومالية التى سبقت عهد برى لماذا لا نحدد الأحرف التى يجب استخدامها لكتابة اللغة الصومالية، وهل هناك بديل أنسب وأحسن من لغة الضاد المفضلة عند الصوماليين الذين أنعم الله عليهم بحب العربية،وقبل اغتيال شرماركى آخر رئيس مدنى حكم البلد قبيل انقلاب برى كان

---

(١) ـ الجالا : هم الأورميون .

(٢) ـ طبع المرجع قبل كتابة الصومالية بالحروف اللاتينية.

قرار كتابة اللغة الصومالية بالأحرف العربية فى مقدمة جدول الأعمال الخاص بالرئيس عبد الرشيد علي شرماركى ولكن الرئيس أغتيل فى لاس عانود فى الخامس عشر من أكتوبر ١٩٦٩م قبل تنفيذ القرار المذكور، واستولى برى على زمام السلطة بانقلاب عسكرى فور انتهاء مراسيم دفن الرئيس شرماركى وذلك فى ٢١ أكتوبر ٦٩ وفى عام ١٩٧٢ م أعلنت اذاعة برى كتابة اللغة الصومالية بالأحرف اللاتينية، وهنا ربما يسألنى سائل ألم يكن انضمام الصومال لجامعة الدول العربية فى عهد سياد برى ؟

وردا على هذا يمكن القول : إن قرار انضمام الصومال لجامعة الدول العربية كان نابعا من إرادة الشعب الصومالى الذى سعى مرارا لتعريب المدارس الصومالية، وقد شجعت بعض الدول العربية المؤمنة بعروبة الصومال مثل مصر ودول الخليج العربى الانضمام الى الجامعة المذكورة، أما موقف برى من هذه القضية المصيرية فكان موقفا انتهازيا يرمى إلى الكسب المادى من أعضاء الجامعة، ولم يمنعه الانضمام للجامعة العربية من محاربة للثقافة العربية فى الصومال، وثمة نقطة أرغب فى توضيحها وهي أن الحكومة الايطالية أسهمت بدور كبير فى مشروع كتابة اللغة الصومالية باللاتينية إذ اهدت فى أول الأمر إلى وزارة التعليم الصومالية ما يعادل خمسة ملايين دولار لرفع مستويات المطابع وآلات الكتابة الوزارية والمكتبية ولكى تحقق الحكومة الايطالية التى توالى رئاستها فى السبعينات كل من الدومورو وفانفانى هدف تقليص واجتثاث جذور اللغة العربية فى الصومال طفقت تشجع نظام برى فى نشر الكتابة اللاتينية فى كل شبر بالصومال وبالذات فى القرى والأرياف والبوادى التى احتفظت منذ عهد بحيد اللغة العربية،وتم تطبيق قرار ينفاازالة أى أثر عربى فى بادية الصومال سنة ١٩٧٥م وفرض على البدو وعلى طلبة الكتاتيب - الدوكسى - العربية تعلم الحروف اللاتينية، وكنت من المدرسين الذين أجبروا على نشر الكتابة اللاتينية فى أوساط البدو ، وسميت عملية إزالة اللغة العربية التى نفذت سنة ١٩٧٥م حملة محو الأمية ولكنها فى الواقع كانت حملة واضحة لمحو اللغة العربية، وكان لها أثرها السيء البالغ ويمكن أن يخالفنى

شخص ما فى مدى خطورة فكرة احلال اللاتينية محل العربية، لذا أفضل أن أعرض هنا بعض النتائج التى نجمت عن حملة محو اللغة العربية فى الصومال ...

١ ـ هبوط نسبة المدارس العربية :

لقد ظلت المدارس العربية الشهيرة فى الصومال مثل مدرسة السيد محمد عبد الله حسن، ومعهد الشيخ صوفى ومدرسة جمال عبد الناصر التى أنجبت كثيرا من المتفوقين والنجباء فى مجال المواد العلمية والأدبية والتى تفوق طلابها على طلبة المدارس الايطالية والانجليزية ظلت تحفظ بمكانتها المرموقةفىالتعليم ولما طورالطليان وكذلك البريطانيون مدارسهم بالصومال وزودوها بأحدث المعامل والمكاتب والأجهزة نجحت ادارتهم التعليمتة فى كسب الشارع الصومالى، ولا يخفى على أحد منا أن الاداريين الطليان والانجليز المتخصين فى الجوانب التعليمية استخدموا وسائل الدعاية الحديثة لترويج أهمية الثقافة الأوربية وتفوقها على الثقافة العربية فكانوا ينشرون فى شمال وجنوب البلد نشرات فى منتهى الجمال توزع فى المراكز الثقافية والمدارس والنوادى وحتى فى مداخل السينما والمقاهى وتحوى تلك النشرات أسماء عدد المدارس الايطالية والانجليزية ومواد دراستهارمستواها وأنواع شهاداتها، وأدى هذا الترويج إلى قبول المدارس الأوربية بما فيها التنصيرية مزيدا من الطلاب، وفاقت نسبتهم عدد الطلاب المسجلين فى المدارس العربية، وقد يئست البعثة التعليمية العربية من تطبيق قرار اعتماد الحروف اللاتينية وأدى يأس البعثة التعليمية العربية فى النهاية إلى خفض عدد الأساتذة العرب الوافدين إلى الصومال، وأغلقت المدارس العربية فى جالكعيو، وبلدوين وكيسمايو فى أعوام ٧٨ و ١٩٧٩م .

٢ ـ فتح مجال المنح الدراسية الأوربية.

إن الأمر اللافت للنظر هو أن التقدم العلمى المذهل الذى أنجزته أوربا فى العلم والتكنولوجيا أكسب أوربا اعجاب شعوب العالم الثالث، وكان الشباب فى عالمنا منذ انفتاح الحضارة الأوربية على العالم النامى متشوقين إلى الا لتحاق بالجامعات

الأوربية الراقية ولم تتردد الجامعات الأوربية فى فتح أبوابها لطلاب البلدان النامية وقد توجه إلى الجامعات الايطالية والبريطانية وغيرهما أعداد هائلة من الطلبة الصوماليين ومع أن جمهورية مصر لم تتوقف عن قبولها للطلبة الصوماليين فان مصر لم تكن لديها حينئذ امكانيات مادية تيسر لها الترحيب بعدد أكثر من الذين منحتهم المنح الدراسية ولم يكن وقتذاك دولة عربية أخرى تستطيع منافسة الغرب فى الميدان التعليمى ، لذا كان لزاما على الشباب المتلهف على التعليم الأوربى مشاركة امتحانات المنح الدراسية الأوربية للتوجه فورا الى ايطاليا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا ... الخ . ومن ثم نلحظ أن نسبة طلاب المدارس العربية قد تضاءلت بشكل رهيب وازداد المسافرون إلى كافة الأقطار العربية بهذف التعليم النظامى أو الدورات التدريبية العلمية.

٣ ـ هجرة أصحاب الثقافة العربية :

لعلى أكون قريبا إلى الصواب إذا قلت إن هذا العامل يعد من أهم أسباب فتور اللغة العربية فى الصومال، ومعلوم لدى الصوماليين أن العربية فى عصورها الذهبية فى سواحل وبوادى الصومال كانت مضمخة بالجودة الأدبية رغم قلة المكتوب منه، والأمر الجلى هو أن توجيه الأنظار إلى أوربا جعل الأبناء الصوماليين يحسبون أنهم تخلفوا عن مسيرة التغيير الحضارى الذى طرأ على العالم، وهاجر كثير منهم إلى أوربا وأمريكا مثل على شحيرى، ويوسف مجن، وسعيد ممحد الشهير بـ " فاتحو " ومحمود حرصى الملقب بـ " لمومبا " واسماعيل ميجاج وغيرهم من فرسان الأدب العربى الصومالى وعلى أى حال نلمح أن العوامل الثلاث المذكورة وما يندرج تحتها من أسباب فرعية أخرى جعل مستوى التراث العربى وخاصة القصة تضعف ولا تلقى مجالا يهيء لها فرصة النشر أو الارتقاء، لدرجة أن القصاص الصومالى لم يجد أمامه من اللغة ما يمكنه من الكتابة بالعربية،ومع غيرة الشعب الصومالى وشغفة الشديد باللغة العربية فان الأمرصار

عكس ماكان يتوقعه الأباء الصوماليون المعتمدون قديما على الكتابة باللغة العربية، فالمنهج التعليمى المفروض على الطلاب وهو ذلك النهج القائم على أساس الحرف اللاتينى جعل الغالبية العظمى من الصوماليين يعطون الأولية للكتابة بالحرف اللاتينى وينظرون إلى الكتابة العربية نظرة تساهل وحتى الأفلام العربية التى كانت تعرض أحيانا أفلاما عربية ذات مغزى ثقافى لم تكن تجد قبولا لدى الجماهير ماعدا الأفلام الدينية التى كانوا يتحمسون لها بدافع العاطفة الدينية.

الفصل الثانى

****

القصة الصومالية

فى

العصر الحديث

أ ـ الجذور والأطوار :

قبل أن أدخل فى صلب الموضوع يجب أن أذكر جذور القصة الصومالية، ومتى ظهرت فعالياتها ؟ وكيف بدأت، وربما أكون معذورا إذا قصرت أولم أف الاحاطة المطلوبة لهذا الموضوع والواقع يبرهن على أن الأمة التى لم تدون تراثها بلغة معينة كانت كنوزها الثقافية معرضة للضياع، والصوماليون مع أنهم عرب خلص اندمجوا فى مجتمعات لاتنطق بلغتهم العربية الأصلية، ناهيك عن الحصار الاستعمارى الذى فرض عليهم والذى استهدف اجتثاث جذور لغة الضاد فى أرجاء الصومال و من ثم فانني أحاول بقدر المستطاع على استيعاب مالدى من معلومات عن هذا الفرض، ومن المستحسن أن أوضح فى هذا الصدد أن التمييز بين القصة الصومالية القصيرة ومسلسل الحكايات الطويلة التى تضاهى قصص ألف ليلة وليلة جد صعب إذ نلاحظ أن القصاصين فى الصومال ومعظمهم من كبار السن الأميين يروون حكايات مطولة يسمونها قصة وهذا يدل على أن الصوماليين قبل هذا العصر الحديث لم يعرفوا قواعد القصة وضوابطها العلمية كالقصة القصيرة والحكاية الشعبية والرواية ، ويمكن أن أكون موفقا إذا قلت إن الرواية والقصة فى مفهوم الصوماليين كانا فى هودج واحد وقد وردت لنا من قبل الأجداد سلسلة من الحكايات الطويلة أطلقها القصاصون التقليديون باسم " قصة ".

وإذا نظرنا بنظرة فاحصة جذور القصة العربية ندرك أن الأسلوب القصصى، ولنقل

إن شئنا الدقة " القصة " كانت معروفة فى العصرين الجاهلى والاسلامى، وأزداد الاهتمام بها فى العصر العباسى، ولكن سياقها وترتيبها لم يكونا ما آلت إليه القصة أو الرواية فى عهد نهضة القصة القصيرة وهو هذا العصر الذى نعيشه إذ كانت القصة من الناحية الاصطلاحية والمعنوية غير مدققه فى العهدين السالفى الذكر . ويؤكد هذ القول كتاب " تاريخ آداب اللغة العربية " لجرجى زيدان يقول :

" إن الرواية : هي ما يسميه الأفرنج بلسانهم " رومان " رواية وهي القصة عند العرب، والروايات فن أوربى له شأن عظيم فى آداب اللغات الأفرنجية يكاد يكون أهمها، وأما العربية فانه من أبسط فروع الأدب ويراد به تمثيل الأخلاق والعادات والآداب فى سياق قصة موضوعة ".(١) .

ومن هنا ندرك أن العرب كانوا يعرفون القصة منذ بدء الخليقة بدون أن يضعوا لها قواعد فنية كالقواعد الدقيقة التى وضعها الأوربيون للتمييز بين الحكاية الشعبية والقصة القصيرة والرواية وما شاكل ذلك، ويدعم " جرجى زيدان " قوله آنف الذكر برأى آخر . يقول : إن العرب لم ينقلوا الا لياذة ولا الانياد ولا غيرهما من الروايات عند اليونان والرومان لكنهم نقلوا شيئا من هذا القبيل عن الفرس والهنود على يد عبد الله بن المقفع وجبله بن سالم وغيرهما، وإذا أمعنا النظر بالقصة فى الصومال فإننا نلحظ أن القصة المكتوبة باللغة العربية لم يكن لها دور كبير فى الصومال، ولم تحرك قصص القصاصين العرب التى نزلت إلى الشارع الصومالى فى وقت متأخر الذوق القصصى عند الصوماليين إذ أن عدد القراء ظل ضئيلا منذ أمد غير بعيد، أضف إلى هذا ، أن كتابة القصة باللهجة الصومالية المكتوبة بالحروف اللاتينية كانت حديثة المنشأ وظهرت لأول مرة - أي الكتابة الصومالية اللاتينية - فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة وألف، وانحصر مجال القصة العربية وسط

---

(١) ص : ٦٠٢ من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان .

القلة من قراء العربية الذين كانوا يحرصون عليها بقصد المطالعة ولمعرفة المزيد من فنونها وأصنافها وفى هذا الموضوع يكون لزاما على أن أستهل حديثى عن القصة الصومالية بالاشارة الى أول قصة صوماليه مروية شغاها طج طير التى يصفهـا الصوماليون بأنها حكاية تحكى عن المغامرات وأساطير الأولين وغدت الحكاية الشعبية فى الصومال مصدرا أساسيا للقصة القصيرة، وخاصة فى البوادى، وأعنى الحكاية هنا تلك الأقاصيص التى يتبادلها العامة من الناس غير المثقفين فى أثناء السمر والسهر وفى أوقات التسلية، والحكاية عندنا تبحث عن الهدف، وترمى إلى تحقيق علاج ناجع لازمة أو عيب أو ثغرات المجتمع، وهذه حكاية " طج طير " يروبها لنا أسلافنا،وهى عبارة عن قصة أسطورية ورثها جيل بعد جيل تعطينا صورة حية عن المأساة والاضطهاد والظلم الذى واجه المرأة الصومالية فى العصور الغابرة، فقد هاجرت طج طير من قرية مجهولة وسط الغابات الكثيفة بالصومال وكانت امرأة عملاقة مفتولة العضلات مسترسلة الشعر كان فى جعبتها خنجرا حادا، وبينما هى فى طريقها الى أ ذغال" جيل قريسو" سمعت ز ئير أسد فلم تخف ولم تبال بصوته المزعج ولما تناهى بها السفر وأرهقها السير أرادت أن تأخذ راحتها فافترشت تحت ظل شجرة وارفة الظل تسمى " يِلْعِينْ " ونامت وما هي الا برهة حتى اقترب الأسدإلى جهتها فاستيقظت وتأهبت لمقاومة الأسد المفترس ، وحاول الأسد أن يمكرها فجاء من خلفها ، ولكنها عرفت دهاءه وغدره فهاجمته وفقأت عيناه ثم بقرت بطنه ، وواصلت رحلتها الطويلة وأثوابها ملطخة بدم الأسد ، وانقطع عنها الزاد ، فلجأت بعد أيام من السير المرهق إلى مخيم أسرة بدوية ، فأطعموها وأسقوها وكان (دَادْ دِيْلْ) فارسا من فرسان الأسرة المضيفة ينظر بنظرات حادة صوب طج طير متشككا عن شأنها ، وسألها عن سبب تعبها وعن الدم الذى يغطي ملابسها ، فأنبأته بأنها صارعت أسدا قتلته فما اطمأن لجوابها فتأوه بصوت خافت قائلاً : مستحيل... لا يمكن أن تتغلب امرأة على أسد .... ربما جنيت

على نفسك وقتلت زوجك وهو في حالة نوم ، فسألته : ألا أستطيع أن أقتل زوجي وهو ساهر؟ ، قال : كلا ، فاستشاطت غضبا وغادرت المخيم ، وبعد ساعات ركب الفارس حصانه متعقبا على أثر طج طير ، فلقيها وهي تصارع نمرا متوحشا أجبرته بالفرار مجروحا، ولما تيقن الفارس من صلابتها وشجاعتها طلب منها العودة الى مقر أسرته ، وعرض لها فكرة الزواج ، فأبت قبول مطلبه ، فنزل من الفرس ساخطا شاتما اياها ، ففاجأته بالهجوم الشرش ، وقتلته شر قتله ، واختارت طج طير العيش في الأدغال ولم يجرؤ أحد على مواجتها ، وسمع بعد ردح طويل من الزمن أن طج طير ماتت فأنشد البدو قصيدة طج طير طيماتي - أى ماتت طجطير ، وصارت طج طير مضربا للبطولات في بادية الصومال يخوف عليها الأطفال ، وهذه الحكاية تبين أن المرأة الصومالية اجتازت طريقا شاقا لاثبات قوتها ومكانتها في المجتمع الذى يراها بمنظار الاستصغار والهوان ، ونستخلص أيضا من مغامرة طج طير المذكورة وهي بالفعل تعد مقدمة للقصة التي لم تنفتح بأسلوبها المعاصر آنذاك ، ونستخلص منها كذلك أن المرأة في الماضي ثارت ضد القيود والمكابل التي كبلت عليها ، فلم تكن المرأة في العهود الغابرة تقدر أن تعارض بسهولة زواج الرجل الذى لاتميل إليه ، ولكي تتصدى المرأة لارهاب الرجل وبطشه لجأت الى أسلوب الأدب اللغزى ، وها هي ذى سوبن [1] عبده أودوا تشترط لقبول زواج الرجل الذى طلب يدها ، أن يجيب عن أسئلتها بردود صحيحة فاذا تأكدت من ذكائه قبلته والا رفضته .

فهي تطلب منه أن يجيبها على ثلاثة أمور ، هي :

١- فراش الرجال ٢- حصن [2] حظيرة الابل ٣- الزيت الذى يصب في الذرة .

---

(١)- اسم امرأة صومالية .

(٢)- حصن : تعني الجدار الذى يحيط حظيرة الابل .

فقال : ان فراش الرجل هو ذلك الحصير الجيد الاسكوشبني الجميل ، وحصن حظيرة الابل هو الجدار المرصوص المكون من أشجار السيق والبسيق [١] ، وأما الزيت الذى يوضع فيه الذرة فهو السمن الربيعي ذو الرائحة الطيبة ، فأجابته قائلة : ثكلتك أمك ماعرفت وماقربت وأنبأته أن الفراش العادى مجازى وأن الفراش الحقيقي هو السلام ، فالرجال في البوادى يستطيعون النوم في أى بقعة من الصحراء اذا توفر لهم الأمن وليسوا في حاجة الى فراش جميل أو غير جميل .

وبالنسبة للحصن أو الجدار المحيط بحظيرة الابل قالت : ان جدار الابل هم الرجال، فالابل بلا رجال معرض للنهب . و أما الأخير وهو الزيت فهو الجوع ، وتعني أن الانسان الجائع لا يبحث عن زيت للذرة ، وهكذا أنقذت سوبن نفسها عن الرجل المكدود الذى تأبى أن يكون شريك حياتها .

ومن القصص الشائعة في الصومال قصص الصوفية البدائية ، ويخيل للمرء أنها مقتبسات من أدب العهد العثماني المنسوب إلى المتصوفين ، ولما انتشرت طريقة القادرية في الصومال زاد عدد المتصوفين الزاهدين ، فهؤلاء الذين يعيشون في عوالم مجهولة يذهبون بعيدا ، فينعتون الأولياء بنعوت مبالغ فيها تدعو إلى الاستغراب، فبعد تناولهم الوجبات الدسمة يشعلون النار في المواقد ويضعون فيها البخور المعطرة وينشدون القصائد ، وترتفع أصواتهم طوال الليل ، ويروى كل منهم قصصاً في منتهى المبالغة يسمونها (الروحانيات) . والقصة التالية لمريد الولي المرحوم الشيخ علي جورى المدفون في مدينة جيفيجيا . يقول المريد [٢] :

في منتصف الليل استيقظت على صوت القمارى ـ طائر ـ فتوضأت وصليت ركعتين

---

(١)ـ السيق والبسيق أسماء أشجار في الصومال .

(٢)ـ المريد : أنيس الشيخ في حلقات الذكر .

سائلا المولى أن يوفقني ببشائر الشيخ على جورى ، ثم قرأت بصوت منخفض قصيدة الشيخ عبد الرحمن عمر التي يمدح فيها شيخه .

ثم عاودني في النوم وقبيل صلاة الفجر جاء إلى الشيخ عبد الرحمن الزيلعي ورأيته في المنام وهو يبتر عضوا من أعضاء رجل ترفع عن التغني بقصيدة مديح الشيخ عبد القادر جيلاني . وقبل أن يغادر الزيلعي مقامي أعطاني جرابا فيه بخور تفوح منه رائحة طيبة عمت بيتي وما حوله ، وبشرني بأن الأولياء قادمون إلى جهتها ، فتنبهت بصوت أذان الفجر . وفي الليلة القمراء التالية جاء إلي وأنا في المنام الشيخان عبد القادر جيلاني والشيخ أبادر ، وكانا على ظهر بساط ريح جميل وصاحبتهم ، فطار بنا البساط في أرض الحرم بمكة ، وأدينا الصلاة هناك ، ثم جال البساط حتى نزلنا في المدينة المنورة ، ومد لنا الرسول يده المضيئة وأغمي علينا الحنين إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم ، ثم عدنا الى جيفجيفا ، وسافرت بعد يوم الى فيامبيرى ، ثم ناداني مناد يقول : إن مهرجان الأولياء بدا في قلنقول فالحق ، وألحقت .[1]

ومن هذا السياق الصوفي لقصص المتصوفة نجد أن المجتمع الصومالي انشغل في مرحلة من المراحل بأقاقيص المتصوفين ، وهذا يثبت أن الناس في الصومال خضعوا لهيمنة الزهاد المنتمين للطرق الصوفية كطريقة الشيخ عبد القادر جيلاني البغدادى وطريقة الصالحية . والحقيقة التي نلحظها هي أن قصص المتصوفين رغم واقعها الخرافي أو الأسطورى كانت تعطي لأتباع هذه الطرق - السابقة - نخوة ونشاطا يخفف عنهم همومهم الدنيوية . فالخدم والمنشدون لقصائد التصوف حينما يستمعون إلى أقاصيص مشايخهم يتعاطون القات [2] فتستقبل أذهانهم بشغف شديد كل الأحلام والأساطير التي يرويها

---

(١)هذه الأقصوصة غير مكتوبة سمعتها عن المرحوم الشيخ خيرى محمد سنة ١٩٨٠م فكتبتها

(٢)- ورق أخضر يصبح متعاطيه شبه سكران .

لهم مشائخهم . ومن قصص الصوفية ما هو واقعي. والقصة الصوفية الأسطورية أجود من القصة الصوفية الواقعية ، وذلك أن الخيال والمعاني الظريفة والتصوير البارع لعالم غيبي مجهول كثير في القصة الصوفية ، بينما تحكي الواقعية عن مجرد زيارات لمقابر الأولياء ، وعن رحلات المريدين فقط ، ومنها ما يلي :

في ليلة السبت ٢ رمضان ١٣٨٠ هـ زرنا ضريح الشيخ محمد عثمان بن معو وأولاده ، وفي ليلة الأحد في الساعة السادسة ٣ رمضان زرنا ضريح السيد علي العيدروسي في بلاجه عرب في المحفل الاسلامي الذى بناه لقراءة مولد النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مولده مع جمع كثير ، وجاءنا عند ضريحه أولاده واخوانه [illegible] وقرأنا له ما تيسر من القرآن وأهديناه له ، ودعونا الله عنده لنا ولقرابته ولجميع المسلمين ، وجاءوا لنا بقربان قهوة وغيرها . وبعد أكل القربان دعونا لهم وختمنا بالفاتحة والدعاء ، وحضرنا عند زوجته وودعناهما تقبل منا آمين .(١)

و أشفلنا في ليلة الاثنين ٤ رمضان سنة ١٣٨٠ بالوداع للاخوان والقرابة وغيرهم. وكذا في يوم الاثنين اشتغلنا بالاستعداد للسفر إلى ورشيخ ، وجاءوا لنا بالسيارة في الساعة العاشرة وحملنا عليها الأشفال ، وسافرنا من مقدشيو في الساعة الحادية عشر إلى ورشيخ (٢) وصلينا المغرب والعشاء في الطريق في مكانين ، ووصلنا ورشيخ في الساعة الرابعة في ليلة الثلوث خامس رمضان ، فلما نزلنا من السيارة سرنا إلى ضريح الولي الشيخ أبي بكر محضار رحمه الله تعالى قبل دخولنا في منازلنا وحضرناه عنده وزيناه ، وحضر أكثر الجماعة في بيتنا عند الولي الشيخ محمد و أكلنا مأكولات الافطار عنده من تمر وبن وقهوة وشاى

---

(١)- الجوهر النفيس في خواص الشيخ أويس ص : ١٥٤ .
(٢)- اسم مدينة فى جنوب الصومال .

والخبز المشوى بالدهن المسمى عندنا معشره وغير ذلك ، وطبخنا لهم طعام السحور ..... الخ [1]

ولب القول هو أن المرحلة الأولى للقصة في الصومال اختصرت في هذين المجالين الذين سبق ذكرهما ، إما حديث عن مغامرة رجل يصفونه بالفروسية والبطولة أو امرأة عملاقة تتحدى الغدر والاهانة مثل طج طير التي اختارت البقاء في الغابة لتؤانس الأسود والنمور والفهود ، وتصطاد الظباء والوعول ، وإما حكاية خيالية صوفية لاتمت الواقع بأي صلة . ولم تنل القصة العربية المكتوبة نصيبها في الصومال ، ذلك أن الصوماليين انشغلوا في الماضي بالشعر وما شاكل ذلك من فنون الأدب الأخرى .

ومن المستحسن أن نذكر أيضا أن قصص المتصوفين الخيالية وغيرها من الأقاصيص التي يزعم البعض بأنها واقعية ترجمت إلى اللغة الانجليزية، وظلت محفوظة في بعض جامعات بريطانيا . ومنها القصتان التاليتان اللتان ترجمهما الأديب البريطاني " أندروويسكي " فيقى شينى[2] النحلة الكاتبة .

يقال إن فيقي شيني كان كاتبا منفيا ، ولا يعرف أحد حتى الآن من أين قدم وكان رجلا عالما في الدين الاسلامي . وحدث مرة بينما كان بداخل كهف يصلي بصوت مرتفع ويقرأ القرآن أن سمعت فتاة كانت ترعى الغنم والمعز صوتا بالقرب من الكهف ، وهي تظن أن نحلا يطن هناك رأت رجلا في الداخل يقرأ القرآن ، فأحنت رأسها . وبينما كانت تتطلع إلى الكاتب الذى يقرأ هناك ، رآها هو الآخر .

---

(١)ص : ١٨٣ ـ ١٨٤ من الكتاب السابق نفس المراجع .

(٢)ـ ص : ١٧٩ ـ١٨٠ من كتلب مختاراتمن التراث الأفريقي ، ترجمه على عبد الستار .

فقالت : السلام عليكم

وأجاب : وعليكم السلام

ماذا تفعل عندك؟

انني يا عزيزتي أجهر بالصلاة .

فقالت : أتاتني معي ؟ دعني أقدم لك مأوى في موطننا تقضي فيه الليل.

فأجاب : سآتي معك يا عزيزتي ، فتعالي إلي عندما تسوقين الغنم والمعز عصرا الى البيت .

حسناً .

وهكذا ذهبا إلى البيت معاً. وبعد أن قضى ليلته في موطنها عزم على الرحيل في الصباح فتقدمت إليه الفتاة وقالت :

أيها الكاتب أريد أن تبقى معنا وتعلمني القرآن .

وما الأجر الذى تدفعينه لي ؟

فقالت : تتزوجني ،

قال : أتستطيعين يا عزيزتي أن تدبرى أمر رجل له معدة كبيرة وقدمان كبيرتان؟

قالت : نعم .

قال : إذن أخبريني كيف تستطيعين ذلك ؟

قالت : أما بالنسبة للرجل ذى المعدة الكبيرة فان المرء يقدم له من الطعام ما يكفيه ، وإنني سأعطيك الكفاية . وأما بالنسبة للرجل ذى القدمين الكبيرتين فان المرء يطلب منه أن يضع قدمه على قطعة من الجلد ثم يقطع نعلي خفه بالحجم الملائم .

وقال الكاتب : لقد وجدت الاجابة الصحيحة حين امتحنت حكمتك ، ولذا سأفعل ما طلبته مني، ساتزوجك . ثم تزوجا وأصبح " فيقي شيني" جدا لقبيلة

" فقي شيني " [١].

(الشيخ عبد الرحمن بن هاشن [٢] والتمساح) .

اعتاد الشيخ أن يحمل معه عصا . وذات يوم وضعها في النهر وركب عليها فسارت به العصا . فلما بلغ منتصف النهر أمسك به تمساح.

فقال الشيخ : لماذا عضضتني أيها التمساح ؟

عضضتك لأن الله حين كان يخلق العالم خصص لي كل شيء يدخل إلى النهر ، فلذلك عضضتك .

فقال الشيخ : فلنذهب إلى الشاطئ الآخر من النهر فترى بركتي .

وعبر الشيخ النهر وذهب التمساح معه ، وحينئذ بصق الشيخ على التمساح فتحول إلى سمكة ، ثم قبض عليه الشيخ و أكله .[٣]

واذا تناولنا بنظرة فاحصة القصة الصومالية والأطوار التى مرت عليها ندرك أن القصة الصومالية رغم ندرة ما نشر أو بالأحرى قلة ما طبع منها لم تكن معزولة عن مثيلاتها من القصص العربية الشائعة فى أقطار العالم العربى .

ولكن قبل كل شيء يجب أن نعرف أن السؤال الذى يطرح نفسه هو ما علاقة قصة قاعدتها الأساسية الأسلوب السماعى أو ما يسمى بالقصة الشفوية بقصة مكتوبة بلغة راقية، ومن المستحسن أن أشير هنا إلى أن القصة الصومالية لم تكن كلها شفوية، فقد وجد الى جانبها قصص صومالية مكتوبة بلغة أجنبية فى السبعينات، واتضح للمهتمين بالأدب الصومالى أن القصة الصومالية الشفوية المكتوبة مرتا بأطوار قريبة من التى مرت بها القصة العربية.

(١) - ص : ١٧٩ - ١٨٠ من كتاب مختارات التراث الأفريقى : ترجمه علي عبد الستار.
(٢) - كما جاء فى ترجمة مختارات من التراث الأفريقي اشتهر هذا الشيخ بأنه كان من مريدى الشيخ أويس .
(٣) - نفس المرجع - السابق - .

والقصة التى نعطيها الأولوية هي القصة الصومالية العربية[1] لأنها تمثل زبدة القصص الصومالية، ولو كانت فرصة الكتابة بالعربية متاحة فى العهد الاستعمارى لوجدنا اليوم ثروة أدبية صومالية ضخمة مدونة باللغة العربية، وقد كان شغف الصوماليين بالتراث العربى قويا، وايمانهم بأهمية الأدب العربى كان عاملا رئيسيا شجع الأدباء الصوماليين بوضع مزيد من القصص الصومالية المكتوبة بالعربية والتى ثبت أنها سرقت من متحف برقش الوطنى بمقدشو من قبل السلطات الايطالية، ومن الأسباب التى رفعت شأن القصة الصومالية العربية نمو مستوى الثقافة العربية فى الصومال، وهذا كتاب الصومال قديما وحديثا يدعم صحة اعتناء الصوماليين العربية وآدابها :

" ووجه الزعماء نظرهم نحو القاهرة التى لبت النداء بفضل المساعى الحميدة التى قام بها الشهيد كمال الدين صلاح مندوب مصر فى المجلس الاستشارى بالصومال، ووصلت الى الصومال أول بعثة عربية من المعلمين والشيوخ العرب للتعليم فى المدارس الوطنية النموذجية،ورغم ما اعترض هذه البعثة والبعثات التى تلتها من صعوبات الوصاية فانها كانت مستمرة فى تزاد حتى أمكنها فى عام ١٩٦٤م أن تسد كافة مطالب الأقاليم الصومالية فى تزويدها بمدارس ومعلمين وأوات وغيرها بجانب المنح الدراسية للمرحلة الوسطى والجامعة والتى بلغ عددها فى نهاية عام ١٩٦٤ م نحو أربعمائة منحة فى مختلف مدارس ومعاهد الجمهورية العربية المتحدة (مصر) .

وينبغى أن أذكر أن الاهتمام بالقصة الحديثة والتقيد بقواعدها لم يبدأ فى الصومال بسهولة، اذ كانت قصص التصوف والأساطير والسير تسيطر الأوساط الأدبية قبل الستينات، وكان يصعب على الصومالى حينذاك قراءة القصة الحديثة وفهم مراميها، وبعد افتتاح المراكز الثقافة فى أهم المدن تيسر للمولعين بالأدب الحديث فهم الفن الأدبى الحديث، وكان الكاتبان " حرصى مجن " و " باب رخيص " من أهم الأدباء الذين حملوا راية التجديد فى الأدب الصومالى، وخاصة فى الجمال القصصى وقد زود المركز الثقافى المصرى بمقدشيو أدباء آخرين أسلوبا جديدا للكتابة الأدبية بسبب

(١) - القصة الصومالية العربية: ، اقصد تلك القصة التى لا تخرج عن نطاق القصة العربية وخاصة من حيث السياق والموضوع .

العكوف على قراءة الكتب الكثيرة القادمة من مصر، ويؤكد هذا حمدى السيد سالم فى كتابه السالف الذكر بقوله : " وقد أهدث وزارة التعليم العالى - يقصد المصرية إلى المركز الثقافى بالصومال معملا علميا حديثا يضم أحدث الآلات العلمية بالاضافة إلى المقاعد والمناضد والسبورات وغيرها من وسائل الايضاح، كما زودت المكتبة المدرسية والمكتبة العامة بنحو عشرين الف كتاب فى مختلف فروع التعليم والدين والثقافة العامة[1]".

ومن ثم نجد أن المركز الثقافى المصرى والتبادل الثقافى والفنى بين مصر والصومال كان معلما جديدا للأدب الصومالى إذ كان من نتائج هذا المعلم ظهور أول قصة عربية حديثة فى صدر جريدة " صوت الصومال " كتبها المرحوم الحاج محمد حسين المركاوى ، وكان موضوعها يدور حول فتاة بريئة صارت من بنات الهوى ... يضيع عمرها فى منتديات اللهو ، وفى نهاية المطاف تنتحر فى " مركة " بعد تأكدها من موافقة شقيقها الأكبر تزويجها من ثرى عقيم فشل فى الحياة الزوجية .

ولكى نكشف الستار عن حقيقة الصلة المذكورة يحلو شرح هذا الموضوع حينما نسلط الضوء أولا وبقدر ما تيسر أوضح معالم الأطوار التى مرت بها القصة العربية لنشهد أن لواء التجديد فى الأدب العربى الذى حمله أدباء مصر ولبنان أدى الى تحرير القصة القصيرة من الجمود واذا كانت مدارس التحديد كمدرسة صلاح عبد الصبور التى ركزت اهتمامها على الشعر أحدثت ثورة فى الأدب العربى ، فإن المتلهفين لتطوير القصة لم يغضوا الطرف عن أهمية القصة الحديثة التى تواكب الحياة، فقد تمكنت القصة العربية الحديثة من أن تقف على أرضية صلبة وتتقدم بجهود القصاصين الذين سئموا من القصص التقليدية القديمة، واستناروا بالنهضة الأدبية فى أوربا، تلك النهضة التى وصلت أثارها للقصاصين العرب عن طريق الترجمة وهاهوذا أنيس الخورى المقدسى يبين ماطرأ على القصة العربية من تغيير مجد .

---

(١) - ص : ٤٩٣ من كتاب الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم .

" وقد أتيح للأدب العربى الحديث منذ أوائل القرن الماضى أن يتعرف بالحضارة الأوربية وأن يظل بواسطتها على آفاق جديدة فى الحياة وكان ذلك عن طريقتين رئيسيتين الأولى : طريق الترجمة أى نقل منتجات الفكر الغربى الى اللغة العربية، والثانية: طريق الاطلاع المباشر على ما نشر فى لغات الغرب من شتى العلوم والآداب، أما الترجمة فقد تناولت أولا المواضيع العلمية والفنية من طبية ورياضية .. وأول من عنى بذلك أدباء مصر فى عهد محمد على الكبير ثم فى عهد حفيده اسماعيل وأشهرهم رفاعة الطهطاوى " [1].

ويؤكد أنيس الخورى من جديد أن القصة العربية نهضت بفعل الترجمة وتعطش القصاصيين العرب للانتاج الحر غير المكبل بقيود الجمود الفكرى والتحرير من زيف التقليد والنقل السلبى، يقول :

" أما خارج مصر فقد كانت بيروت أهم مركز لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية ... ولا نبعد عم الحقيقة إذا قلنا إن أكثر ما كان يقدم لجمهور القراء منذ أواخر القرن الماضى حتى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر هو من قبيل الترجمة والاقتباس، وقد أصاب من قال : " إن القرن التاسع عشر كان بالنسبة لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة، وأن هذا العصر لايزال يمتد إلى اليوم ولنمثل على ذلك بالقصة العربية، فقد جمع أمين دار الكتب فى بيروت معجماله أثبت فيه اللغات فلا نحسى غرابة أن يقول المستشرق الروسى " كراتشفويقسكى " فيها أنها إنما نشأت بتأثير الأدب الأوربى المباشر وما يصدق على القصة يصدق على سائر أنواع الكتابة ... وغير نكير أن أدبنا الحديث قد أخذ يتحرر من ربقة التقليد والنقل ويسير فى طريق الانتاج الحر على أن الترجمة مازالت ذات شأن هام فى حياتنا الأدبية[2] ، ومما يجذر بالذكر أيضا دقة الأسلوب القصصى الذى اهتدت إليه بعض القصص الناجحة كقصة نداء المجهول لمحمود

---

(١) - ص : ٣٦٩ من كتاب الاتجاهات الأدبية في العالم العربى الحديث لأنيس الخورى المقدسى.
(٢) - ص : ٧٠ من نفس المرجع و نقلها المؤلف من الهلال: محمد عبد الله عنان.

تيمور، وابراهيم الكاتب للمازنى، والعم توم المترجمة من الانجليزية إلى العربية، وكل هذه القصص بلا شك ساعدت فى توصيل القصة العربية الحديثة إلى طورها الحالى المتقدم.

واذا أردنا أن ننظر بنظرة فاحصة قصص هذا الطور الأخير الذى نحن بصدده، فاننى ربما أكون موفقا اذا قلت إن قصص وروايات الأدباء الكبار أمثال نجيب محفوظ ويوسف ادريس، وعبد الرحمن الشرقاوى ويحي حقى واحسان عبد القدوس أحرزت نجاحا باهرا لم يشهده تاريخ القصة العربية من قبل،وعلى سبيل المثال نرى أن قصص وروايات نجيب محفوظ مثل زقاق المدق، بداية ونهاية، وثرثرة فوق النيل تعطى المهتمين بالأدب العربى تصويرا جليا عنالمجتمعالمصرى وطبقاته، ومشاكله وتقاليده وكافة خصائصه، ولنقل إن شئنا تتناول قصص نجيب محفوظ أحيانا قضايا سياسية يعبرها أويسوقها بأسلوبه الرمزى الشيق الذى يقبل عليه القراء فى داخل العالم العربى وخارجه ولم يقتصر الأمر على نجيب محفوظ وانما هناك جبار القصة القصيرة يوسف ادريس الذى أبلى بلاء حسنا فى تنويع مستوى القصة العربية القصيرة التى تتحدث غالبا عن الريف وعن المشاكل الاجتماعية فى مصر عامة، وحقا عالجت قصصه آلام الأمة وانعشت آمالها ومطامحها إزاء ايجاد حلول مثمرة لبعض المشاكل الاجتماعية.

لقد ظلت اللغة العربية التي يعتبرها المسلمون لغة الأساس، ويقر الأوربيون أنها من أهم اللغات الحية فى المعمورة، وقد أتاحت الكثير من الأدباء العرب وغير العرب فرصة التأليف والحفاظ على المخطوطات التى يصعب تعرضها للضياع عكس اللغات التى ليس لها كتابة يعتمد عليها فى الحاضر أو الماضى، والقصة الصومالية مع أنها من حيث الموضوع والسياق سارت فى طريق القصة العربية فانها لم تنج قبل كتابتها من الاهمال والضياع مما يجعلنا عند مقارنة الأطوار لا نستطيع تحديد كل المراحل التاريخية للقصة الصومالية .

فالقصة الصومالية كغيرها من القصص العربية مرت بمراحل يصعب ذكرها بتسلسل لقلة التدوين والتدقيق لتاريخها وأصولها.

ومن المستحسن أن أشير هنا إلى أن العمود الرئيسى الذى اعتمدت عليه القصة الصومالية فى الأول هو الأسلوب السماعى، ولنقل ان شئنا التوضيح " القصة الشفوية "والقصة الشفوية حسب رؤية القصاص الصومالى المتمسك بالتراث القديم تمثل المنبع الأساسى للقصة والدليل على ذلك وجود قصص صومالية مستنبطة من الحكاية الشعبية الناجحة وتروى فى شكل قصة قصيرة بخلاف القصة الطويلة التى يسمونها غالبا " قصة تاريخية"[1]. وهذا يعنى أن الأسلوب السماعى عند القصاصين الصوماليين أكثر تأثيرا لمثاله لدى المستمعين من نكهة .

وما وصلنا من القصص الشفوية يعد كنزا كبيرا إذا قارناه بالنسبة الضئيلة من القصة المكتوبة التى ظهرت فى نشرات صغيرة معرضة للضياع والتلف .

والترجمة من الايطالية إلى الصومالية كانت شبه معدومة ولم نجد حتى الآن كتابا قصصيا واحدا مترجما من الصومالية إلى الايطالية .

وخير ما عثرنا عليه من التراجم الراقية للقصة الصومالية ترجمات أندرويسكى البريطانى .

ويعترف الأدباء الصوماليون بفضل " Andrazejewski " فى ترجمة القصة الصومالية بلغة تمكن الأديب العربى من اعادة ترجمتها إلى اللغة العربية، وقد ظهر أيضا فى مجال القصة الروائى الصومالى " نور الدين فارح حسن " الذى يكتب بالانجليزية.

وأعطى هذا الروائى اهتماما بالغا بالجانب العاطفى للمرأة، ومع بذله للجهد الحثيث

---

(١) - القصة التاريخية عند الصوماليين هي تلك القصة التى تتحدث عن سيرة بطل وعن مغامراته.

فى سبيل تطوير القصة الصومالية الحديثه فان قصصه لم تنشط كثيرا البيئة الأدبية فى الصومال لأن عدد قراء الانجليزية كانوا قلة من الطبقة المثقفة. ولما ترجم الأديب البريطانى " أندرويسكى" مختارات من القصص الصومالية الذائعة الصيت، ظهر كتاب " مختارات من التراث الأفريقى"(١).

وساعد هذا الكتاب وغيره من الكتب القصصية المترجمة باللغة العربية على اتساع القصة الصومالية وانتشارها فى دول الجوار وأدت أيضا الترجمة العربية - مع قلتها - إلى فهم المهتمين بالقصة لمضمون الفن القصصى للقصة الصومالية والدراسة التى قام بها الأديب البريطانى أندرويسكى قبل كتابة الصومالية باللاتينية بعنوان " مختارات من القصص الصومالية " تقدم لنا ماهية القصة الصومالية وأهم أنواعها .ويشير أندروويسكى الى غموض القصة الصومالية :

ان اللغة الصومالية فى فترة انتقالية، وهي بالرغم من عدم وجود كتابة رسمية لها حتى الآن فان هناك جهودا تبذل لكتابتها ويغلب على الظن كثيرا أن تصل اللغة الصومالية فى وقت بعيد جدا الى الوضع الكامل للغة المكتوبة، والقصص التى أختيرت هنا تعكس المنزلة الحاضرة للغة الصومالية، وقد أخذت بعض القصص بنفسى مباشرة من الرواة اللغويين الذين كانوا أميين فى لغتهم الخاصة بينما اختيرت قصص أخرى من مجموعة النصوص الصومالية (حكماد صومالى التى كتبها السيد " موسى حاجى اسماعيل " - جلال - وهو من الرواد فى ميدان الكتابة الصومالية، وهناك تسع من هذه القصص الأخيرة وهي " الحبة التى نجت من المدقة والملاط " و " الرجل الذى عاش فى قبيلة زوجته " و " الجزاء " و" عقبى الخيانة الشر " و " سوء الحظ " و " السلام المنقوض لا يمكن اصلاحه " و " الأرمل الأدرد"(٢) و " البخيل المحتال " و " والعراف الذى وضع تحت الاختبار" ولا توجد حتى الآن تقاليد لأسلوب الكتابة الصومالية والشكل الفنى للنصوص التى أوردها السيد جلال لا يختلف الا قليلا

---

(١) - ترجمة علي عبد الستار وله نظير آخر بنفس اسم هذا الكتاب لكاتب آخر.
(٢) - الأدرد : الذى سقطت أسنانه .

:

عن النصوص المأخوذة شفويا من الرواة اللغويين، ويتميز الأسلوب القصصي الصومالي بالاقتصاد الشديد في تفاصيل الوصف والتشخيص، وقلما يحتوى علي أية محسنات مثل الاستعارات والتشبيهات،وهو خال عادة من تعليقات القصاصين أو التعقيبات الجانبية ، وهو في وسيلتة الواقعية يشبه الخبر الصحفي فهو من هذه الناحية يناقض تماما الشعر الصومالي المتجانس البدايات الذى تأخذ فيه المؤثرات الأسلوبية والصور أهمية رئيسية كثيرا ما تأتى على حساب الوضوح والدقة ويعوض ونحول القصص الصومالى إلى حد كبير تحت الظروف الطبيعية له بمؤثرات فنية لا يمكن تسجيلها كتابة.

فالقصاص المجيد يغير من صفة صوته حين يشخص شخصيات مختلفة في الحوار بينما تساعد تعبيرات وجهه وحركاته السامعين على الوصول الى (توهم الحقيقة، وقد تبين فيالترجمات الواردة هنا بساطة القصص الصومالى، ولم نبذل أية محاولة لادخال أية مؤثرات فنية غير موجودة فى الأصل[1].

وندرك أن القصة الصومالية نمت بقدر متواضع في الخمسينات عن طريق الاطلاع على ما نشر فيالصحف الايطاليةوبالذات في جريدة(Corriera della Somalia)بريد الصومال فقد نشرت هذه الصحيفة تحقيقا صحفيا عن شاب ايطالى مستهتر غلبه المجون وشرب الخمر، وجاء هذا التحقيق الذى يستمد موضوعه من حادثة حقيقية تحت عنوان " Amora de Martine " حب الشاب مارتينى - يسافر مرتينى إلى الصومال ليتزوج بنت " أنزلوتى" الحاكم الايطالى لمدينة مقدشو، وقد تعرف الشاب على البنت المذكورة فى حارة بروما من قبل ، وفور وصوله إلى الصوماليفاجأ نبأ وفاة حبيبته التى ظلت تراسله فى أثناء اقامته بـ " فنيسيا " وتنقذ الشرطة الايطالية الشاب وهو يحاول الانتحار وتنقله طائرة

---

(١) - ص ١٦٠ مختارات من التراث الأفريقى .

خاصة إلى مسقط رأسه ايطاليا وهو فى حالة من الغيبوبة، وقد أثر هذا التحقيق فى القصاصين الصوماليين فكتبوا على منواله قصصا استمدوها من البيئة الصومالية ولم يستمر هذا النوع من القصص طويلا لعدم تشجيع الطليان لثقافة ولندرة المطابع وقتذاك، زد على هذا حرق الصوماليين للمتحف الذى كان مرجعا أساسيا للتراث والأدب الصومالى ويتوجب علينا أن نعرف أن جل القصص الصومالية كانت دائما تتأقلم مع البيئة واذا كان الأدب بجميع أشكاله وفنونه يتجاوب مع البيئة ويعبر عن ماهيتها فاننا نلحظ بوضوح استجابة القصة الصومالية لظروف البيئة ومواءمتها لنوع الحياة السائدة فى المجتمع، وما ورد فى كتاب المعتقدات الشعبية فى التراث العربى دليل على أثر البيئة فى المعتقد الشعبى وتتداخل القصة فى البيئات المتناظرة أو المتشابهة جغرافيا واجتماعيا:

تنقسم البيئة الى اجتماعية وجغرافية، ومن خلالهما يمكن أن ندرس العلاقة الوطيدة بين المعتقد الشعبى وبينها، فالبيئة الجغرافية بما فيها من جبل وسهل وشاطئ وصحراء وشجر وقحط تخلق فى هذا التنوع رؤية الانسان المتفاعل معها، فنجد أن المعتقدات التى تكثر فيها الوحوش البرية والغيلان والجن تكثر فى البيئة الجبلية ذات الأشجار الكثيفة بينما نجد فى بيئة الساحل كثرة المعتقدات المتعلقة بالبحر وما فيه من عجائب بحرية كالموج والمد والجزر وحورية البحر والحيتان وعجائب الصيد وما يرافقها من تهويلات يتحيلها الصيادون، وفى بيئة الصحراء نجد المعتقدات التى تحمل فى طياتها المعجزات وتتعلق بمسألة الجفاف والقحط والكرم والصيد البرى وغير ذلك مما تفرزه بيئة الرمال والسراب والحر والثعابين القاتلة، والبيئة الجغرافية تخلق نوع المعتقد ومضمونه غير أن ذلك لا يعنى عدم التداخل المعتقدى بين البيئات فهى تتأثر ببعضها وتتداخل وتشترك أحيانا في صنع معتقدات واحدة غير أن ما يتناسب وكل بيئة على حدة يطغي على ما عداه من معتقدات بيئة مختلفة . (١)

---

(١) كتاب المعتقدات في التراث العربي : لمحمد توفيق السهلي وحسن الباشي، ص ١٠

ب - فنون القصة الصومالية

اتضح للمهتمين بالقصة الصومالية علاقتها المتينة بالقصة العربية، ولعل الباحث لهذا الموضوع يدرك بتبصر أن قصص السيرة بالذات وقصص الحيوان تسلك مسارا واحدا من حيث الاستهلال بكلمات واحدة مثل قال وقيل والخوض فى مواضيع متشابهة، والانتهاء بنهايات متقاربة وربما يترسخ فى أذهان الدارسين أو الباحثين لموضوع القصة الصومالية حقيقة الوحدة الموضوعية الكبيرة التى تربط القصة الصومالية بالعربية ، وما يقوله أندرويسكى دليل يليق بالاستشهاد :

" ان حكاية الحديث فى القصص الصومالى تصدر دائما بكلمات مثل : قال أو قالوا ولكن هذه الكلمات كثيرا ما تهمل فى الترجمة الانجليزية، وهي تكرر رعدة مرات فى اللغة الصومالية بحيث إذا ترجمت فى كل مرة فانها تجعل الترجمة الانجليزية سمجة جدا، وبخاصة فى نظر من يقرءون قراءة صامته حتى لو تقبلوها تماما حين يقرءوها بصوت مرتفع ممثل بارع حقا ".(١)

وفيما يتعلق بتعدد القصة الصومالية وتنوعها تعد القصة التاريخية التى تتحدث عن سيرة بطل أو موقعة أو يوم من أيام البطولات من أهم أنواع القصة الصومالية، فهي تعطينا أدبا غنيا وتعكس تاريخ المجتمع الصومالى، وتبنى القصة الصومالية التاريخية على أساس الأحداث والمواقع الحربية وبطولات الحكام والأعيان الذين حكموا البلد أو أجزاء منه فى الماضى ومن خلال اطلاعنا على القصة التاريخية الصومالية نلاحظ استهلال القصاص الصومالى بكلمات مثل: (وحووريى) أى يروى و (وحويرى) أى قال الراوى وهذا ما يحدث فى قصص السيرة العربية مثل قصة عنترة، ومن حيث السياق والشكل والألفاظ

---

(١) - مختارات من التراث الأفريقي .

والأحداث نجد متأنة الارتباط الوثيق بين القصة التاريخية الصومالية والعربية ويظهر هذا الارتباط فى قصص السيرة مثل سيرة عنترة بن شداد ويتيسر لنا التوضيح فى أثناء المقارنة بين القصتين السابقتى الذكر : يقول جراد على جراد: قال الراوى : إن البطل المقدام ويلوال خرج من جيغجيغا ومعه نفر من قومه لمواجهة عصابة من قطاع الطرق ولم يتأكد " ويلوال" من كم وكيف العصابة، ولم يرسل منذرا ولا فرقة استطلاع، وكان من عادته مباغتة الأعداء والهجوم عليهم قبل تمكنهم من أى نجاح فى اللصوصية، وكانت الطامة الكبرى عندما عرفت العصابة بقدوم ويلوال فأعدت العدة لمقاتلته ولما أطلت مجموعة ويلوال على مقربة من تلال طجح وين فوجيئت بوابل من السهام والرماح، وقاوم ويلوال بشراسة هجمات العصابة وأبلى بلاء حسنا، وكانت المفاجأة حينما انسحبت العصابة من مواقعها الحصينة، وتقهقرت إلى جبال طنججا، ولم ينأ ويلوال عن مهاجمهم الجديدة، وفور بزوغ فجر اليوم التالى هاجمهم من الجهة الخلفية ونكل بهم وأوقع بهم موقعة شديدة وقد ترفع ويلوال عن الانتقام من القبيلة التى كانت تدعم العصابات المسلحة، فلم تكن من شيم ويلوال وجنده سبى النساء وبقربطون الحوامل والتمثيل بالجثث ولكنه ورجاله كانوا يحاربون حرب الرجال وجها لوجه فى شرق وبسالة وقد عاد ويلوال منتصرا إلى جيغجيغا، ووزع خيول العصابة على جنده، وسميت بطولة ويلوال فى طجح وين بموقعة الفارس المغوار ، وإذا أمعنا النظر فى سياق وصيغة ماذكرناه من بطولة ويلوال وما سيأتى فى الفقرة التالية من سيرة عنترة بن شداد نلمح أن مكانة عنترة فى مجتمع شبه الجزيرة العربية كانت كمنزلة ويلوال عند الصوماليين ونفهم من هذه القصة العلاقة الجمة بين سيرة البطلين عنتر وويلوال فالاعتزاز بالبطولة، وترفع العربى عن الخوف وكراهيته لمن يستبيح سبى النساء والعدوان تبرز بوضوح فيما يلى:

قال الراوى : وكان عنتر وأصحابه قد لبسوا الزرد وتدرعوا بالحديد المنضد، فوقفوا للرجال بالسيوف والدرق، وقالوا لأهل الفضل لافيكم من يصيح ويزعق، واتركوهم يدخلوا فى أبواب القصر، وانظروا ماذا ينزل عليهم من العذاب والحصر، وكان الغلمان والخدم

قد شد ولهم على الخيول، وقادوا لهم الجنائب ولم يركبوا بل قالوا هذه أتركوهم حتى نقتل هؤلاء الأذال وتخرج خلف من يسلم منهم إلى ظهر البلد ويتسع علينا المجال، وكان هذا التدبير من عنتر الا أنه ما فرغ من المقال وحتى كسرت الفرس الأبواب، ودخلت تتسابق الى نهب الأموال وسبى الكواعب الأتراب وازدحمت الرجال وارتفع لهم الصياح الذى يذهل عقل الانسان،وكانأبو الدوحيصيح مثل الشيطان وينادى يا حليمة ابشرى بالسبى والاذلال ... هذا وعنترة يمهلهم ويكف أصحابه عنهم حتى صاروا جماعة فى القصر أكثر من ثلاثمائة فارس، وفى ذلك الوقت زعق فى ولده ميسرة وأخيه مازن وأبوه شداد وباقى الرجال الأجواد، وقد هزوا فى أيديهم الصوارم الثقال، زعقوا فى الأعاجم كما تزعق الجمال، وضربوا فى أطرافهم ضربا شديدا أشد من وقعات الصواعق اذا وقعت على صم الجبال، فأول من قتل كان أبو الدوح دبر هذا التدبير واحتال هذا الاحتيال الا أن ميسرة التقاه فحمل عليه وفاجأه، وكان أبو الدوح وقد صاح فى ذلك الوقت: أنا قتيل هوى حليمة و سقيم جفنيها السقيمة.

قال الراوى: فلما سمع ميسرة كلامه عرف أنه رئيس القوم فضربه بالسيف حيث أنه طير رأسه عن كتفيه أما عنتر بن شداد فانه حمل على طوائف الأعجام فنثر منها الرؤوس ومحق أبطال الديلم [1] والميزة الأخرى التى تتميز بها قصة السيرة الصومالية تَقْيِيمْ العادة السائدة فى المجتمع فتقديم الولائم الدسمة للضيوف، وتعديد أصناف المآذب يعد أن عند الصوماليين مفخرة، والبطل الذى تنقصة شيمة الكرم يصفونه بكلمات مثل : " ناقص الدين " وناقص المروءة، وما شاكل ذلك ولا يكون له أى احترام وهذا يدل مدى تأثر الصوماليين بأمتهم العربية وفى هذا المقام يليق بنا أن نقارن بين البطلين العربيين عنتر بن شدا وعتوش الصومالى .

---

(١) - سيرة عنترةبن شداد المجلد الثالث .

ورد في الصفحة ٣٢٩ من كتاب سيرة عنترة بن شداد:

" وكان عنترة في كل صباح يذبح ألف جمل يأكلونها، وسوق النوق والجمال والمعز والضأن والخيل الجياد، وبعد ذلك أمر غلمانه أن ينصبوا لعبلة السرادق الكبير الذي أتى به من عند كسرى، وهذا السرادق كان مطرزا بالذهب الأحمر مكللا بالدر والجواهر مفصلا بالياقوت الأحمر، وكان هذا السرادق لشداد بن عاد الذي بنى ارم ذات العماد ولما يزل هذا السرادق ينتقل من ملك إلى ملك الى أن وصل إلى الملك كوبرت، وكان كوبرت يحمل إلى كسرى الجزية في كل سنة.

قال الراوي: وسارهذا السرادق عند كسرى حتى نزل عنترة إلى أرض العراق في طلب المهر والصداق، وجرى له ماجرى في أخذ النوق العصافيرية، وجرى له أيضا ماجرى مع الخسروان الذي قتله عنترة وكسر عسكره وكان عدتها عشرين ألف فارس وقد خاف الملك المنذر من هذا الشأن ... الخ.

هذه الفقرة التي وردت في سيرة عنترة المعروفة على نطاق واسع في الصومال تدل على الارتباط الوثيق الذي أشرته إليه آنفا بين القصة التاريخية الصوماليةوالعربية فالفارس عتوش عاش في منطقة قاحلة جرداء كما عاش عنترة في بيداء شبه الجزيرة العربية، ووسط البيئة الصحراوية التي تخلق غالبا الأبطال،وصارع عتوش الفرسان وحكم بدهائه وحنكته أراضي هود وعيد وعدّون. وهزم الأقوياء وأمر رعيته بحفر قناة طويلة بين وادي نغال وجل حمر يقول الراوي محمود جري :

" في ليلة دجناء غادر عتوش ريف جلحمر متوجها إلى قرية صهره شروع طودي الشهيرة بـ " رابلي "، ولما سمع أهالي رابله بقدوم عتوش طبلوا الدفوف وزمروا المزامير وأعدوا الخيل لترحيبه، وبعد يوم من وصول عتوش لرابلي جاء الناعي يحمل خبر قتل صهر عتوش بأيدي قبيلة قَنْسَحْ فأمر عتوش قوم صهره أن يجهزوا له فرسين وفارسا يتوانس به عند الخروج إلى اليبداء، وفي ظهيرة نفس اليوم الذي وصل به نبأ اغتيال

صهره خرجا عتوش والفارس جوليد، واقتفيا عتوش وجوليد أثر القاتل، وبعد جهد جهيد وجدا القاتل نائما تحت شجرة وارفة الظل وقد رقد على بند قيته، فأراد الفارس جوليد أن يطلق عليه الرصاص لكن عتوش رفض ذلك قائلا : ليست من شيمنا قتل النائم دعه أمهلنى أو قظه وانظر ماذا يفعل، وحينما ايقظه اصطدم القاتل بالشجرة منزعجا وحاول المجرم أن يصوب بندقيته صوب عتوش لكنه فشل إذ سبق عتوش إلى الاستيلاء على بند قية القاتل، ولما وقع المجرم فى الأسر قال عتوش له: ماذا تتوقع منى ؟ قال القاتل : الرحمة والرأفة، واقتيد المجرم إلى قرية ربابلى وحكم عتوش عليه بالاعدام، وذكر الراوى محمود جرى أن عشيرة صهر عتوش أرادت أن تغير على قبيلة المجرم لكن عتوش رفض ذلك مقنعا أصهاره بأن الحكم الصائب هو قتل القاتل، وقد زوج عتوش بابنة عمه مَيْرَنْ جامع شقيق صهره الوحيد ورسمه وبعث عتوش رسولا الى منطقته " جل حمر " طالبا الخيول والابل وقد أرسلت قبيلة عتوش ملبية طلبه ، عن طريق نفر من الشباب ألفا من النوق والفا من الغنم إلى ربابله، وتم زفاف صهر عتوش " ورسمه " وسط حفل بهيج شاركت فيه المغنيات، وأنشد فيه الشعراء، ويروى الراوى أيضا أن عتوش كان رجلا مجدا يحب العمل ويبغض الكسالى، ولما عاد عتوش إلى جل حمر تفقد القناه التى أمر بحفرها، وكافأ من استحق أن يكافأ به بمائة من الابل، وعاقب المقصرين، ويروى أن أحد مستشارى عتوش سأل أحد حفار القناة عن حاله، فقال : إن الله وعتوش يتنافسان علينا ونميل الآن إلى كفة عتوش (يقصد أن أمر الله وأوامر عتوش كلاهما ينتظران التنفيذ وأعطينا الأولوية لأوامر عتوش).

ونستنتج من سيرة عتوش ارتباطها بقصة سيرة عنتر فتوافر مظاهر البطولات، والسخاء والأنفة كلها عناصر واضحة تسيطر أجواء القصة التاريخية الصومالية العربية مما يجعلها قريبة من قواعد وأصول القصة العربية.

ولعل أكثر ما يتكرر أو يسمعه الصومالى من القصة التاريخية مختصرات من بطولات عتوش وويلوال، ولامير، وحجاله، وغالبا كانت النبذ التاريخية ذات الطابع القصصى المتعلقة

بـ "ويلوال" تروى فى حلقات القات بالمدن ومجالس السمر فى البادية، وتأتى النبذ أحيانا فى صورة قصة عادية تركز اهتمامها على شهرة البطل وأوصافه الجسدية، وتارة أخرى ترد فى صيغة جمل يقصد بها الحكمة أو التسلية أو المزاح أو اثارة حوار اجتماعى يدور بين الرجل والمرأة، وما يلى توضيح يدعم صحة هذا القول :

" هذا نموذج آخر للقصة الصومالية المسماة شيكو[1] واسم القصة ويل وال أى الشاب الفاتك ... ويزعمون أن هذا الشاب كان شجاعا قوى البنية يحمل سلاحه دائما ولا يضعه الا حين يحلب البقرة وكان لهذا الشاب أخت لم تتزوج ففكر بعض أعدائه فى الذهاب الى أخته ليقول لها ... انى أريد أن أتزوجك ولكن أخاك لا يرضى فقالت : اقتلوه، قال : وكيف نقتله وهو رجل شديد البأس، وفكرت الأخت ثم قالت : ان أخى يترك سلاحه عندما يحلب البقرة وفى هذا الوقت أنادى باسم من أسماء العجول لتهجموا عليه وتقتلوه. وفى الليل وضع الشاب سلاحه ليحلب البقرة، فنادت الأخت وفهم الشاب لأنه لم يسمع هذا النداء من أخته قبل تلك الليلة وأسرع الى سلاحه وقبل أن يهجم عليه أعداؤه هجم عليهم وقتلهم جميعا وقتل معهم أخته ....

ويأخذ الصوماليون من هذا القصة احدى حكمهم المشهورة " لا تأمن المرأة ولو كانت أختك "[2].

القصة الرمزية:

القصة الرمزية لها باع طويل فى التأثير على الانسان المتأمل للأدب وأبعاده وخاصه الذى يتذوق الرموز ويدرك ما تحويه من معان دقيقة وأساليب جميلة لشرح الأمور التى

---

(١) شيكو : تعنى قصة وغالبا يسمون هذا الاصطلاح بالقصة التاريخية.
(٢) - ص ٥٣ الجزء الثانى من كتاب الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم.

يستحب عرضها وتحليلها بأسلوب غير مبتذل أو بطريقة تساعد على إفهام الحكام مظالمهم بدون أن يحسوا بانتقاد لاذع أو تنديد مباشر يؤدى إلى اغضابهم كما يحدث فى القصة الرمزية السياسية التى تُفهم الجائر جوره بدون تجريح، ولقد ارتفع مستوى القصة الرمزية العربية حينما تناولت مواضيع متنوعة تعالج قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية، ولا أظن أن أحداً ينكر أن قصة عربية رمزية كقصة " احلام شهر زاد " للدكتور طه حسين تزود الأبناء بثروة أدبية تهتدى بها الأقلام المتشوقة لتقديم وجهه نظرها الأدبية الراقية الى المجتمع ، والقصة الرمزية ظلت تسيطر على أجواء البيئة الصومالية البدوية والحضرية وصارت وسيلة يعبر فيها كل شئ يليق ذكره بأسلوب مهذب ويراد به فى نفس الوقت مغزى أوسع من الكلمات والمصطلحات الواردة فى سطور القصة الرمزية، وقصة تقسيم اللحم التالية مثال لهذا القول :

منذ أمد بعيد خرجت الوحوش للصيد معا وعلى رأسها الأسد فقابلوا جملا فقتلوه وقسموا اللحم تبعا للقسمة المعتادة ... فاستدعى الأسد الوحوش ومط نفسه متثائبا مكشرا عن أنيابه مظهرا قوته، وزأر زئيرا مخيفا فارتعدت الوحوش ثم أمر الضبع ليقوم بتقسيم اللحم .... فقال الضبع ... نصف اللحم للأسد العظيم والنصف الآخر لبقية الوحوش وسرعان ما التفت إليه الأسد وسدد لكمة للضبع أصابت احدى عينيه فقلعتها من محجرها فترنح الضبع صارخا من الألم، ثم اختار الأسد الثعلب قائلا ... تعالى يا أم الثعالب دعينا نرى إذا كنت تفوقين الضبع فى تقسيم اللحوم .. فقالت الثعلب دون تردد يا صاحب السمو أنت تأخذ الكرشى والعظم والعظام والذيل والرأس والرقبة واللحوم جميعا فابتسم الأسد راضيا مسرورا قائلا : أين تعلمت هذه القسمة الممتازة العادلة ؟ فاجابت : تعلمتها من عين الضبع التى فقئت.

القصة التعليمية :

اذا كانت القصة التعليمية العربية كقصة تهذيب الأطفال المدرسية وقصة يوسف ـ عليه السلام ـ التى دخلت بشكل واسع فى كثير من المدارس العربية غرست فوائد الصدق فى

أذهان الطلاب ، فان قصة " جنبول " المفضلة عند الصوماليين رفعت مستوى القصة التعليمية الصومالية - ومع أن النظام الصومالي في عهد برى البائد كان لا يسمح بنشر مقولات وحكم جنبول لكن الواقع برهن إن قصص جنبول ومروياته تزود الأجيال الناشئة بدروس يتعلمون منها الصدق .

عاش جنبول في عهد السيد محمد عبد الله حسن [1] وداع صيته عندما عرفه الناس بالصدق، فلم يقل هذا الرجل قط كذبا .

وأرادت مجموعة من جنود محمد عبد الله أن يوقعوا جنبول في ورطة فاشعلوا النار ، وأحضروا ثورا، وأخذوا يشحذون سكاكينهم. وقالوا لجنبول : اذهب يا جنبول الى الجماعة الجالسة جنب قلعه السيد محمد، وأخبرهم بأننا نُقَرِبُ لهم هذا الثور، ونقدم إليهم مأدبة شهية، وكان هدفهم أن تأتى الجماعة الى مجلسهم بدون طعام جاهز ليقال : إن جنبول قد كذب، وعرف جنبول الحيلة فذهب إلى الجماعة وقال لهم . لقد كلفت بأن أبلغكم أمرا ولكنني قبل أن أجزم بصحة هذا الأمر أنبيئكم بأنني رأيت ثورا ولم أر غذاء جاهزا ولا علم لى أن ذلك الثور سيطلق سراحه أم سيكون لحمه وليمة لكم، وشاهدت كذلك نارا مشتعلة ولا أدرى هل ستطفأ أم لا .

فبعثت الجماعة رسولا إلى الجنود، وتيقن الرسول بأن قصدهم كان توريط جنبول في الكذب .. وهكذا فشلت المحاولة وحدث ذات مرة أن السيد محمد أرسل كتيبة من الجيش لاحراق مدينة في شرق الصومال، وكان جنبول مع هذه الكتيبة فلما وصلت الى المدينة المستهدفة رأى أحد سكان المدينة جنبولا وفى يده عود من الكبريت وزجاجة ملآنة بالغاز ، فسأل الرجل جنبول : ماذا تفعل بالغاز والكبريت ؟

فقال جنبول سنشعل النيران في مدينتكم، فظن الرجل أن جنبول يمزح معه .. وتم احراق

---

(١) - السيد محمد عبد الله حسن واحد من أهم المجاهدين الصوماليين الذين حاربوا الانجليز .

المدينة، فندم الرجل وقال : لوكنت أصدق ما قاله جنبول لنجا منزلى من النار.

وفى "تليخ "[1] حدث أن رجلا هاربا من بعض الجنود لجأ الى منزل جنبول وأختفى تحت سرير جنبول، وبينما الجنود يهرولون لاقتفاء أثر الرجل رأوا جنبول وسألوه: هل رأيت رجلا فارا فقال جنبول : نعم انه قابع تحت سريرى، فظنوا أنه يمازحهم وانصرفوا بدون تفتيش بيت جنبول، وهكذا نجا الرجل بصدق جنبول .

وفى حفل بهيج أعده السيد محمد لجنوده الدراويش حضر جنبول وغيره من المستشارين الدراويش، فمد السيد محمد أصبعه مشيرا الى شجرة مورقة خضراء، وقال لجيشه الدراويش هذه شجرة جافة لاورقة فيها ... وسكت برهة ثم قال لهم: أيها الدراويش أخبرونى هل هذه الشجرة "خضراء" أم جافة ؟

ولكى لا يخالف الجنود قول السيد السالف عن شأن الشجرة .

قالوا: انها جافة، ثم وجه السيد محمد السؤال لجنبول . وقال له : أجب يا جنبول، فقال جنبول إننا إذا كنا نحشى الله والله أحق أن تحشاه أقول إن الشجرة مورقة، أما إذا كنا نخاف منك فالشجر جاف كما قال جندك، فمدح السيد محمد جنبول وأخبر جنده أن صدق جنبول أشرف من مجاملتهم ونفاقهم وكافأ السيد محمد جنبول بمائة ناقة بسبب جرأته وشجاعته والتزامه بالصدق .

وهنا نلحظ أن قصص جنبول من أنبل القصص التعليمية فى الصومال، وهذه القصص كانت تروى عالبا فى الكتاتيب وحلقات السهر، وقد لعبت دورا كبيرا فى انماء أذهان التلاميذ وتربيتهم على الصدق والأمانة . ومن القصص التعليمية قصص الأطفال الصغار إذ نشاهد هنا أن قصص الأطفال لا تخرج عن نطاق القصة التعليمية فى الصومال، ومع علمنا بأن المناهج الحديثة خصصت لقصص الأطفال أبوابا خاصة ومناهج منفصلة عن القصص التعليمية

(١) - تليخ: عاصمة الدراويش ، ومقر اقامة السيد محمد عبد الله.

التعليمية لكنها فى الصومال نعدها ضمن القصة التعليمية لأن الغرض من قصة الطفل انماءالمستوى العقلى للأطفال وتزويدهم بحكايات شيقة تتماشى مع الذوق الأخلاقى السليم وتحفظهم من الزلات والتأثر بالرذائل، ولقد اقترحت الجهات التربوية فى الصومال فى عهد ما قبل الحكومة العسكرية اعطاء الأولوية للأطفال ووضع منهج يضمن لهم القصص الجذابة التى تقدم الصغار الأمثلة المستنبطة من أحداث المجتمع اضافة الى الوصايا والتوجيهات سواء كانت مرتبطة بالماضى أو الحاضر .

وفى أوائلالسبعينات أكد الأدباء الصوماليون أمثال " موسى جلال " و " ياسين كينديد " فى اجتماعات وزارة التربية والتعليم أن التربويين حينما يتكاتفون لاعداد المنهج القصصى المطلوب بقد مون للطفل خدمة جليلة يرثها كل الأجيال الصاعدة، لكن وزراء برى المشغولين فى متاهات بعيدة عن الجانب التربوى أهملوا آراء ومقترحات الأدباء الصوماليين، ولم يظهر فى الساحة المنهجية بوزارة التعليم سوى قدر ضيئل من قصص الأطفال الوارد غلى ألسن الأمهات والجدات وكان المدرس الذى يقدم هذه المادة الحيوية أى قصص الأطفال يختار من بين الأطفال أنفسهم من يقوم بدور الالقاء بصوت متميز وجذاب ينشط أذهان التلاميد، وكان جليا أن دور الجدة فى البادية والريف والمدينة كان مؤثرا فى نفسية الطفل، اذ كانت الجدة المربية تقدم القصة المفضلة لأطفالها وتسليهم فى أوقات الفراغ، وكانت قصصها تخفف هموم الطفل وتساهم فى راحة باله وتخلق أيضا ايجاد نوع من العلاقة الودية بين الطفل وذويه وكذلك بين أطفال الجيران، ولو كانت مقترحات كل من " جلال " و " ياسين كينديد " وجدت أذنا صاغية لوجهت وزارة التربية والتعليم اهتمامها نحو دراسة مستفيضه مبنية على أسس علمية وتربوية وفنية، فالحرص على الجانب المقروء للطفل من قصص وأناشيد وفكاهات ونوادر تخلق توازنا فريدا بين الجانبين السمعى الشائع وبين المكتوب المقروء، ولا ننسى أن هذا التوازن إذ نجح بشكل عملى يمنح الصغار قدرا كبيرا من الفوائد الفكرية والنفسية والسلوكية التي تنموا بها قريحة الطفل وذكائه، وهل منا

من ينكر أن الأطفال هم عالم ملىء بالحيوية والطهر والصفاء، وكان حريا أن نفكر فى أطفالنا بصورة أكثر جدية من مجرد اجتماعات تنتهى بشعارات وتوصيات تقابل بالاستصغار، والأمم الأوربية التى اهتمت بقصص الأطفال كاليونان والطليان والألمان بدأوا يضعون منذ تكونت الأسر والجماعات قصص تضمن لهم تربية أبنائهم وكما واصلت جداتنا مسيرة قصة الطفل ركرت الأمهات الأوروبيات على هذا الجانب الذى يتلقفه وجدان الصغار وتشتاق اليه نفوسهم واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب فى نقل تراث البشرية من جيل الى جيل، وظلت قصة الطفل فى أوربا مادة الثقافة الأدبية الأصلية سواء رويت أو حكيت للصغار وسيلة لاعطاء الخبرة والتربية للأطفال الناشئين، وغدت نمطا ممتازا من أنماط الامتاع ولفهم المعنى وذلك لمدى تأثير قصص الأطفال فى نفوس الصغار بل والشباب . وينبغى أن أشير إلى أن أدب الطفل فى الصومال يمر بطور لاينافس أدب الطفل فى باقى بلدان عالمنا العربى، والثغرة فى هذا الجانب تكمن من ناحيتى الكم والكيف إذ نلحظ كثيرا أن المنهج التربوى فى مدارسنا الابتدائية تركز على النصوص الشعرية والمتون النحوية، والتركيز على جانب دون النظر بشكل جدى للجانب الآخر يشوش أذهان الطلاب . والكتب القصصية للطفل نادرة ان لم أقل معدومة فى الصومال، وما وصلنا قليل جدا وهي كتيبات صغيرة كتبت أو طبعت بالأحرف اللاتينية أما من حيث الكيف فنراها لا تمثل الدور المطلوب لبناء ذاكرة الطفل وادراكه لأهمية الأدب القصصى، ومادامت القصة العربية قادرة على تزويد الطفل الصومالى بالمعرفة التربوية واللغوية كان الأجدر تعريب لسانه فعروبة الجنسية وعروبة الانتماء يضعفان إذا لم تجدا اللسان العربى الناطق بالعربية ، ولا أظن أن اثنين يتجادلان بأن الأدب العربى وخاصة قصص الأطفال إذا تم فرضها على المنهج التعليمى والتربوى الخاص بمدارس الصومال بعد الاستقلال أدى ذلك إلى معرفتنا بقيم التراث العربى الزاخر بمختلف معارفه القديمة والحديثة التى نهل منها كثير من أشقائنا العرب، ويبدو جليا أن الأساطير الشعبية والحكايات الفكاهية والسير لم تستثمر بالشكل المطلوب لصالح الأطفال ، فرغم توافر بعض

قصص الأطفال فى مكتبات العالم العربى ما فتىء الطفل الصومالى متعطشا لها ولم يجد حتى الآن ما يروىظمأه، ومع أن بعض الأساطير القصصية للأطفال فى الوطن العربى لا تناسب الطفل الصومالى بسبب ارتفاع مستواها اللغوى فانها لو كانت دخلت مدارس الصومال حتى قبل سنوات معدودات لنالت استجابة من قبل الطلاب الصوماليين الذين تهفو نفوسهم للغة العربية ومادامت اللغة هى المنارة التى يهتدى بها طلاب العلم فإن المرغوب هو أن نقدم لأطفالنا قصصا مكتوبة بشكل عصرى مرتبط بقضايا التراث العربى ومواكب وقائع وأحداث تعجل بفهم الصغار لأحوال بيئتهم، ويستحب أن تراعى المناهج الأدبية بالذات مراعاة أعمار الأطفال، فربما لا تسلى طفلا فى السنة السادسة القصة الفكاهية التى تجذب انتباه طفل فى العاشرة وقد لاحظنا أن القصة التعليمية الموجودة حاليا تناسب المراهقين من الشباب الذين تفتحت أذهانهم وعرفوا بعض الشيء عن تراثهم المعبر لما يحدث فى بيئتهم، فعلى سبيل المثال اذا أراد المدرس فى الصف الأول أو الصف الثانى من الابتدائية أو الحضانة أن يقص على الصغار " أن عبد الرحمن جامع كان فلاحا صغيرا يحرث الأرض بالثور، ولم يكن يرحم الثور فاختفى الثور ذات مرة ليستريح من العذاب، وأخذ عبد الرحمن يبحث عنه من كل صوب فعثر عليه ميتا فرأى عبد الرحمن أثر أسد، وعلم أن الأسد افترس الثور وهو فى نوم عميق وأقتفى عبد الرحمن أثر الأسد فاذا الأسد جالس أمام عرينه، وهاجم عبدالرحمن الأسد بعصاه الغليظة لكن الأسد غضب وفاجأ عبد الرحمن بصفعة خطيرة فأوقعه على الأرض لكن عبد الرحمن تمكن الفرار والدم ينزف منه " . فهذه القصة تناسب مع مستوى طالب فى الصف الخامس أو الرابع ابتدائى ليعرف هذا التلميذ أن القسوة تولد القسوة وأن الذى لايرحم يتعرض لبطش من هو أقوى منه، فلو كان عبد الرحمن يلين جانبه ويشفق على الثور لما فر الثور وأمن هو كذلك من صفعة الأسد، ولكن هذه القصة التعليمية إذا افترضنا تقديمها لأطفال ما بين الرابعة والسابعة ربما تغرس فى أذهانهم نوعا من الكآبة والرعب، فصفعة الأسد، والعصا الغليظة التى ضرب بها عبد الرحمن الأسد تبدوان فى نظر الطفل

مصدر عنف، وقصص العنف تخلق فى خاطر الطفل شعورا بالخوف والقلق .

ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن البلدان العربية الضعيفة الاقتصاد مثل الصومال لاتستطيع الحصول على الوسائل الاعلامية التعليمية للأطفال كالفيديو الخاص بتعليم الطفل والذى نجح بشكل ملموس فى الدول الغنية، وحتى الكتب والصحف التى كان لزاما عليها أن تقدم للأطفال القصة المثالية الهادفة المربية لم تتوفر لدينا، والقدر البسيط الذى وجدناه مفيدا للتلاميذ الصغار كان مكونا من قصص قصيرة ضئيلة وكتب فقيرة لا تفى بحاجة الطلاب للقصة المناسبة وخير ما ظهر فى الساحة الأدبية فى الصومال صنفان من القصص الصنف الأول قصص الجدات والثانى قصص الصغار الدينية، فالأولى تركز فيها معظم الجدات اهتمامهن على وجوب طاعة الولد للوالدين، وينجلى للطفل فى نهاية القصة بأن المغزى هو أن تزيل من ذاكرة الطفل ما روجه العوام فى الصومال من معتقدات مسيئة بل مضرة عن دور الأم فى الحياة العملية، ويتبين لنا حين نقرأ القصة التالية أن قصص الجدات تقوى مكانه الأم فى خاطر الطفل وفى المجتمع ككل .

" أنجبت (عبادة على) بنتا فى ريف (كلمان) القريب من مدينة قلافو وسمت بنتها بـ " حليمة السعدية " وكانت هذه الوليدة البنت الثانية لزوج عباد و " حسن جيق " فحزن حسن حزنا شديدا حين تيقن من انجاب زوجته للمولودة الحديثة وهاجر الريف وأخذ يتجول فى أسواق قلافو ومطاعمها ليسلى نفسه ويزيل القلق الذى ساوره اثر ولادة البنت ، ثم عاد بعد اشهر الى كلمان ودعا احد العرافين راجيا منه قراءة الكف والنظر فى باب العرافة لينبئه بما يسر نفسه، فقال العراف : وقد عرف شأنه من قبل : أنت يا حسن تفضل البنين على البنات وستنجب فى المرة القادمة ولدا ينقذ حياتك ويرفع شأنك " ففرح حسن جيق ظانا أن العراف يعرف الغيب، وبعد عام ولدت زوجة حسن ولدا مسترسل الشعر كالهنود ، كناه حسن بـ " سلطان " ومرت الأيام والسنين ، وكبر سلطان، وطلب ذات يوم من والده أن يمنحه بقدر من المال ليفتح دكانا صغيرا فى قلافو ، وقبل الوالد طلب ابنه بدون

تردد، ففتح سلطان الدكان ، ولم تكن معاملة سلطان مع زبون متجره حسنة . يشتم هذا ويسب ذاك ويخالف الأمانة، واتخذ من أسلوب الغدر حيلة يربح بها ، لكن الغدر غايته وخيمة، فصار المتجر خاويا لم يبق فيه شلن[1] واحدا يسد رمقه، وأخذ سلطان من أختيه اللتين اللذ تزوجتا برجلين من أشرف " كلمان " مبلغا من المال فبذر هذا المبلغ كعادته فى القمار والميسر وشرب (الطج)[2].

وكان حسن جيق يتابع أخبار ابنه الفاشل وقد بلغته تصرفاته وعند ما بلغ حسن جيق سن الشيخوخة تد هورت صحته، وتولت مسؤولية رعايته بنتاه، وأحسنا اليه خير احسان، لاتتركان غرفته تسهر كلتاهما طوال الليل فيطعمانه ويسقيانه، ويستران جسده ويقدمان إليه الدواء حسب الوصفة الطبية التى يكتبها الطبيب وأرسلتا رسالة الى شقيقهما سلطان يطلبان فيها زيارته لوالده كى يكسب دعاءه ورضاءه، لكنه رفض المجيء وأختار المكوث فى قلافو ومات الوالد حسن فى أحضان بنتيه، ولفظ أنفاسه وهو يدعو الله لهما، واستجاب الله دعاء حسن اذ صار شأنهما مرموقا وسط مجتمع " قلافو " وذاع صيتهما، وأصبحتا رمزا للرحمة والأخلاق الحميدة، أما العاصى سلطان فقد دهسته سيارة العقيد تصفاى الأيوبى وهو سكران، وقام بدفنه مجموعة من أولاد الشر أو كما يسميه الصوماليون " عيال السوق " وهكذا يفهم الأطفال أن الولد العاصى يقع فى غياهب الضياع، وأن البنت ليست كما يظنها غالبية الناس ضعيفة عديمة الدور بدون أن تقول الجدة التى تروى هذه القصة ان دور البنت كذا وكذا وأن الولد ليس بمعصوم بل ينحرف أحيانا، واذا كان هناك سؤال مفاده أليس من الممكن أن تخلق مسألة السيارة التى دهست على سلطان، وكذلك عملية أو طريقة دفن السوقة لسلطان نوعا من البلبلة والاضطراب الذهنى فى نفوس الأطفال بسبب قساوة هذين الموقفين ؟ ويجدر بنا أن نوضح أن الأطفال لايرون بمنظار القلق والخوف النتائج الوخيمة الناجمة عن عصيان الوالدين، وحسب رؤيتى الخاصة فان الطفل مرتبط - غالبا - بحنان

---

(١) - شلن : اسم العملة الصومالية.
(٢) - قرية من قرى قلافو
(٣) - الطج : صنف من أصناف الخمر .

الوالدين وعطفهما، وارتباطهم الوثيق هذا يعطيهم الاعتقاد بأن الخروج عن طاعة الوالدين يعنى هلاكا وتعرضا لحادث واندماجا فى مجتمع الانحطاط والرذائل، وللقصة التى أسلفنا ذكرها نظير من حيث الموضوع فى القصة العربية، ففكرة اذلال البنت واضعاف منزلتها كانت وما يرحت حتى الآن فى بعض بوادى العرب راسخة، ومع أن الاسلام حرر المرأة ومنحها حقها لكن العادة الجاهلية المهينة للبنت ما انفكت سارية المفعول فى أجزاء من أرجاء العالم العربى والاسلامى، ولننظر ما ترويه الجدة العربية لأطفالها:

قالت الجدة للأولاد عندما اجتمعوا عندها اننى سوف أقص عليكم هذه الليلة سالفة[1] أبى الأربع بنات وأبى الأربعة أولاد .

فقال الأطفال بصوت واحد نعم قصيها علينا ...

فقالت الجدة : هنا هاك الواحد والواحد الله سبحانه فى سماه العالى والى هنا هاك الأخوين كل واحد منهما قد تزوج ... فأما أحدهما فقد رزقه الله أربعة أولاد وأما الآخر فقد رزقه الله أربع بنات !!! وكان أبو البنات فقيرا لا يجد من وسائل العيش الا الكفاف أو أقل من الكفاف ... وأما أبو أربعة الأولاد فهو غنى وممتاز بتجارته وغناه !!! وكان أبو البنات دائما يجد من أخيه جفوة وهزوء حيث يلمزه ويغمزه بأن دريته كلهم اناث ... وكان أبوالبنات يتلقى تلك الغمزات واللمزات بصدر رحب ويتحمل من أخيه تلك القوارع التى توجه .. فى كل مناسبة . ! وقال أبو البنات الأربعة لأخيه: اختر واحدا من أولادك وأنا أختار واحدة من بناتى ولنترك الاثنين يسافران إلى بلد بعيدة بحثا عن الرزق والتجارة .. ولنر ماذا تكون النتائج ومن يكون الفائز .. ومن يكون الخسران ! فرحب أبو الأولاد بهذه الفكرة، وقال ليعد كل واحد منا العدة لأحد أولاده للسفر إلى بلدة بعيدة ولنر ماذا يرجع به كل واحد منهما .. ؟ وأختار أبو الأولاد أحد من أولاده وجهزه بكل ما يلزمه وأعطاه مبلغا من المال كبيرا ليبيع فيه ويشترى وأعد له راحلة فارهة، واشترى أبو البنت ناقة جرباء رخيصة بثمن على قدر طاقته وجهز ابنته بقر بتين كبيرتين قويتين، ووزنتين من التمر لا غير . !.. أما أبو الولد فقد أعد

(١) ـ سالفة : اصطلاح شائع فى الخليج العربى والمراد منه حكاية وخاصة حكايات الأقدمين.

لولده من جميع أنواع الأطعمة الحامض والمالح والحلو وأعطاه قربة من الماء واحدة ومشى الاثنان فى طريقهما فى رحلة قد تطول وقد تقصر وقد لايعودان منها سالمين - !

وقال الولد لابنة عمه عندما تعمقا فى الصحراء: - انه يجب على كل واحد منا أن يعتمد على نفسه وأن يستغنى بما معه عما مع رفيقه .. واذا احتج أحدنا شيئا من صاحبه فان ذلك يكون بطريق المقايضة ووافقت الفتاه على هذا الكلام ..!!

وفكرت الفتاة فى ابن عمها الذى يريد أن يذلها ويريد أن يعيش أمامها فى رغد من العيش بينما هي تعيش على الأسودان التمر والماء . !! وبحثت الفتاة عن طريقة تذله بها وتجعله يحتاج اليها... وتجعله يعطيها من أطايب ما معه من طعام !! وكان فى جيب ثوبها ابرة فنزلت من فوق راحلتها كأنها تريد أن تقضى حاجة، ثم جاءت تمشى برفق وحذر حتى صارت تحت راحلتها فركبتها وكان شيئا لم يكن ... وصارت قربة الفتى تنقط الماء الذى فيها .. ويخرج منها قطرة تلو قطرة حتى نفذ ما فيها من الماء.

ونزل الفتى من فوق راحلته ليشرب وقد التهب جوفه من كثرة ما يأكل من الأطعمة المالحة والحلوة .. فوجد قربته فارغة.

فقال لابنة عمه أعطينى شربة من الماء .. فقالت الفتاة أولم نتفق أن كل واحد منا لايدفع شيئا الا بثمن ؟ فقال نعم لقد اتفقنا فأعطينى شربة ماء بثمنها.. فقالت الفتاة انى أريد ثمنها الأطعمة المالحة التى معك فأعطاها جميع ما معه من الأطعمة المالحة .. ومشى الرفيقان وأحس الفتى بالظمأ مرة ثانية، وطلب منها شربة من الماء فقالت بجميع الأطعمة الحلوة (اللذيذة) التى معك فأعطاها ما معه من الأطعمة الحلوة، وأعطته شربة ماء ..

استمرت الفتاة تأخذ منه ما معه شيئا فشيئا .. إلى أن لم يبق معه الا راحلته فاتفقت معه على أن تعطيه راحلتها الجرباء وتأخذ راحلته الصحيحة مقابل شربات من الماء ... فرضى وتناول جميع الشربات المتفق عليها .. حتى لم يبق معه شيء واحتاج الى شرب الماء

وطلبه منها .. فقالت اننى أسقيك على شرط أن تعطينى ملابسك فألبسها و تأخذ ملابسى فتلبسها، فوافق الفتى مضطرا على على هذا الطلب الذى لا يليق بالرجال ولكن الضرورة لها أحكام ... ولما نفد كل ما عنده .. ولم يبق لديه شئ تطمع فيه الفتاة بل صارت هى التى تمثل دور الرجال وهو الذى يمثل دور النساء .. صارت تعطيه الماء مجانا .. وتعطيه من القوت مايكفيه فى حدود الحاجة والضرورة لا فى حدود الترف والنعيم الذى ألفه الفتى .. وصارت الفتاة هى المسيطرة على كل شئ تماما وانقاد الفتى وهو فى لباس فتاة إلى كل ما تريده ابنة عمه .. ! وأخيرا وصل الاثنان إلى مدينة كبيرة آهلة بالسكان ونزلا فى ضاحية من ضواحيها، وقالت الفتاة لابن عمها ابق عند رواحلناوأمتعتنا حتى أدخل إلى المدينة وأبحث لنا عن سكن فوافقالفتى وبقى وذهبت الفتاة إلى المدينة وصارت تتجول فى شوارعها إلى أن مرت بحانوت كبير فيه من جميع أنواع البضائع .. وصارت تنظر إلى تلك البضائع وتتفحصها .. و رآها صاحب الحانوت فرحب بها. وقال لها : هل تريدين حاجة ؟ فقالت : إننى حتى الآن لم أر الحاجة التى أريدها.. وعرف صاحب الحانوت من لهجتها وطريقة كلامها أنها غريبة ؛ وقال لها: لماذا قدمت إلى هذه البلدة فقالت الفتاة: جئت أبحث عن عمل. وكانت الفتاة صبيحة الوجه مشرقة الأسارير .. وكان صاحب الحانوت فى حاجة إلى موظف كريم الأخلاق مشرق الطلعة ليكون فى استقبال الزبائن .. واغرائهم بالشراء، وعرض الأصناف التى يرغبونها عليهم . ! فقال لها صاحب الحانوت اننا فى حاجة إلى موظف لعرض البضائع واستقبال الزبائن .. فقالت الفتاة اننى مستعدة اذا كان هناك أجر طيب واتفق الطرفان على أجر شهرى معلوم، وكانت الفتاة تعرف القراءة والكتابة .. والحساب ..... واستلمت عملها فى أول يوم .

وسألها صاحب الحانوت عن أهلها وهل معها أحد منهم .. فقالت : إن لى ابنة عم ساكنة فى ضاحية من ضواحى المدينة .. فقال التاجر ايتى بها واسكينيها معك فى بيتنا ... فان منزلنا واسع وفيه حجرات متعددة سوف يخصص لكما غرفتين. فقالت الفتاة: ان ابنة عمى منطوية على نفسها وتهوى الانزواء والانفراد وقدطلب منى أن أنصب لها خيمة فى المكان الذى هى

فيه الآن . فقال التاجر إذا لا داعى لاحراجها .. وأعطاها التاجر خيمة نصبت للفتى فى مكانه وصارت هذه الفتاة الموظفة تشترى لابن عمها مايريد من السوق فيأكل ويشرب وينام فى هذه الخيمة لايكاد يفارقها فى ليل أو نهار. ! أما الفتاة التى تمثل دور الرجل والتى وظفت على أنها رجل تغدو وتروح إلى عملها وتشترى لابن عمها ما يحتاجه من السوق ولكن من نقوده التى أعطى اياها والده، وكانت الفتاة تأكل وتشرب وتسكن وتكتسى كل ذلك على حساب التاجر ... وكان التاجر يدفع لها كل هذه الأمور وهو راض ومسرور فقد ازداد اقبال الزبائن على حانوته وتضاعف الدخل بسبب لباقة هذا الموظف الجديد .. ومضى شهر وشهران وثلاثة وأربعة إلى أن قاربت السنة أن تنتهى والفتاة تجمع الأموال وابن عمها ينفقها.. فلما كملت لهما سنة كانت الفتاة قد جمعت مبلغا من المال لابأس به، أما الفتى فقد بقى عالة على ابنة عمه التى تعطيه كل ما يحتاج إليه. ! وقالت الفتاة لصاحب الحانوت: لقد طالت غربتى واشتقت إلى أهلى وبلدى وأنا أريد أن أرحل وأريد أن تعطينى رواتبى الشهرية لأشترى بها بعض البضائع التى تروج فى بلادنا، فقال لها التاجر: وما الذى تريدين أن تشتريه فعددت له أصنافا من الأطعمة والأقمشة والملابس .. وأحضر للفتاة جميع ما طلبت وجهزت لها قافلة مثقلة بالأحمال ومرت على ابن عمها فأخذته معها وهو فى ثياب النساء . !! لايملك الا ناقته الجرباء وثياب النساء التى عليه. !! وقربت القافلة من أرض الوطن .. وخجلت الفتاة من أن تظهر أمام أقاربها وأبناء بلدتها بثياب الرجال فخلعت ملابسها وأعطتها ابن عمها وخلع ملابسه فأعطاها إياها . !! وأرسلت الفتاة إلى أهلها وأهل ابن عمها رسولا يبشرهم بقرب وصولهم. وجاء البشير .. وفرح الأبوان فرحت العائلتان، وترقب والد الفتى أن يكون فتاةً قد حقق نصرا يثبت دعواه فى تنقيص الفتيات وأهل الفتيات . !

وترقب أبو الفتاة أن تكون ابنته قد حطمت هذه الخرافة التى يعتمد عليها أخوه وهى أن الفتيان خير من الفتيات وأقبلت القافلة تمشى بأحمالها رويدرا رويدا . ! ونظر أبو الفتى فقال فى نفسه ان هذه القافلة ولاشك هى ملك ابنه.. ونظر أبو الفتاة الذى كان يثق بابنته ويرى

فيها مخايل الذكاء والنجاة أن تكون القافلة من نصيب ابنته. !! وقربت القافلة وكانت الفتاة قد أرشدت ابن عمها إلى طريقة استقباله لوالده وهى الطريقة التى زعمت أنها المتبعة لمن جاء من سفر بعيد .. وبعد مدة طويلة وملخص هذه الطريقة هى أن يأخذ كل واحد منهما حجرا فى يده، فاذا أقبل عليه والده رماه بهذا الحجر وسدده إلى رأسه أو إلى وجهه.. فاذا كان مقدرا له أن يصيبه الحجر فذلك قضاء وقدر لامفر منه .. وإذا كانت مقدرة له النجاة فان الحجر سوف لايصيبه . !!

وبذلك يكتسب الأب مناعة ضد الأحداث والحوادث التى تغدووتروح على الانسان .. واتفق الاثنان على ذلك .. وأقبل الوالدان على ولديهما وعندما قرب والد الفتى منه رفع يده وهوى بالحجر على وجه والده فضربه فى جبينه . ! فصار الدم يسيل على وجهه وعبارات الشماتة تتعاقب على أذنيه. أما الفتاة فانها أسرعت إلى والدها وضمها فى حضنه وقبلها فى جبينها وقبلته فى جبينه .. وأخذ الولد ناقته الجرباء وذهب بها إلى بيت والده بينما أخذت الفتاة تلك القافلة وذهبت بها إلى بيت والدها.

وصارت هذه الرحلة هي مدار الحديث لجميع سكان تلك البلد فترة طويلة من الزمن، كما أن والد الفتاة ارتفعت قيمته الاجتماعية نتيجة للثروة التى قدمت بها عليه ابنته .. ولم يعد أبو الأولاد يعير أخاه أو يحاول الحط من قدره بسبب بناته[1].

ومن قصص الأطفال الشائعة فى الصومال والتى نفهم منها اهتمام الطفل بالوالد ، القصة التالية التى ترجمها الأديب الانجيلزى أندروويسكى :

" كانت هناك بنتان صغيرتان تتعهدان الغنم والمعز، فأخذت كل منهما تفاخر الأخرى يوما بأن والدها أحسن من والد صاحبتها وقالت احداهن : إن والدى هو أعظم الرجال ! .

---

(١) ـ ص ٥٢ ـ ٦٢ من كتاب أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب لعبد الكريم الجهيمان ويشير المؤلف إلى أنه روى أصل هذه السالفة عن صديقة محمد بن مقرن ثم كتبها بأسلوبه الخاص وأثبتها.

فأجابت الأخرى : ماذا، أتظنينه أعظم من والدى ؟

فقالت الأولى : " نعم " .

فى أى شيء هو أعظم من والدى اذن

" فى أعمال الرجولة التى يقوم بها، فعندما تتشقق الأرض يستطيع والدى اصلاحها ! " .

ودهشت الفتاة الأخرى وظلت هادئة لحظة، ثم قالت : حسن إذا كان والدك يستطيع اصلاح الأرض عندما تتشقق فهو رجل ماهر، أما أنا، فالمكان الذى يقف فيه والدى لا تتشقق الأرض فيه مطلقا (١)

وأما الصنف الثانى من قصص الأطفال الذى يقدمه مدرسو أو بالاحرى مرشدو الكتاتيب فهي القصة الدينية، والمراد منها تربية الطفل منذحداثة سنة بتربية تتماشى مع فضائل دينه، ومن تلك القصص ما يلى :

ذهب جامع ورسمه إلى قرية " بنبار " لزيارة جدته رقية عثمان وفى أثناء عودته من بنبار سمع صراخا مزغجا، فالتفت يمنه ويسرة ليتأكد من مصدر الصراخ، ولم ير شيئا، ثم واصل سيره وبينما هو فى طريقه شاهد شابا مفتول العضلات فوق شجرة طويلة يراقب من بعيد ابله .

سأل جامع الشاب : هل سمعت صرخة كادت تصم أذنى ؟

قال الشاب : لم أسمع سوى صهيل فرس

فقال جامع للشاب : اذن أنت أصم لا تسمع ولا تعى

فسكت الشاب ولم يرد على قول جامع.

فلما وصل جامع إلى عبلبردى حكى لأحد رجال الدين قصته مع الصراخ، وأنبأه بأن الصرخة التى أنصت اليها كانت صرخة الجن .

---

(١) ـ مختارات من التراث الأفريقى .

مختارات من التراث الأفريقى

فقال الشيخ له : قل أعوذ بالله من صرخات الجن ووساوس الشيطان، وأعلم يابنى أن من الجن نفراً لا يضر ولا يزعج وأوضح الشيخ أيضا للولد بأن الصراخ والأصوات المتنوعة كثيرة فى البادية .. فعواء الذئاب، وزئير الأسد، وصهيل الفرس وغير ذلك كلها أصوات تسمع فى الصحراء وزبدة هذه القصة أو الغرض منها هو ازالة الأوهام التى تدور أحيانا فى أذهان بعض الأطفال .

ومن القصص الدينية الممتعة التىتروى للأطفال فى القرن الأفريقى، القصة التالية:

جاء رجل الى أبى حنيفة فشكا له أمره .

قال الرجل:كان عند ى مال كثير وقد وضعته فى مكان أمين حتى لايأخذه أحد ، ثم نسيت المكان الذى وضعته فيه، ولم أعد أتذكرهأبدا فهل تساعدنى على تذكر المكان ؟

قال أبو حنيفة فى نفسه : إن هذا الأمر ليس مسألة فقهية فأجيبه عنها ولكننى سأدله على طريق .

أيها الرجل اذهب إلى بيتك فتوضأ وصل حتى يطلع الفجر عند ذلك ستذكر المكان الذى وضعت فيه مالك .

وذهب الرجل إلى بيته فتوضأ وصلى ومازال فى صلاته حتى تذكر مكان ماله، فذهب إليه واحضره.

وفى الصباح ذهب إلى أبى حنيفة ليشكره .

ابتسم أبو حنيفة، وقال :

الشيطان أنساك مكان مالك، وعند ما رآك تصلى أراد أن يشغلك عن اتمام صلاتك فذكرك بمكان مالك .. صل هذه الليلة شكرا لله يارجل .

الحكاية الشعبية :

يحدث تداخل بين الحكاية الشعبية والقصة فى الأدب الصومالى، ويصعب على المرء التمييز بينهما إذ تروى الحكاية كالقصة، فكما يقدم القصاص مروياته للمستمعين بطريقة

شفوية مطابقة للقواعد التقليدية للقصة الصومالية سواء كانت القصة اسطورية أو رمزية أو فكاهية يقدم مقدم الحكاية بطريقة شفوية كل الحكايات، ولا يوجد ضوابط تميز بين الحكاية الشعبية والقصة .. فقط الفاصل بينهما - كما أسلفت - أن الراوى يبدأ بالقصة التاريخية بـ قيل وقال ويقال بينما الحكاية الشعبية وأقصد معظمها تبدأ بدون قال وبلا مقدمات تمهيدية، وأغلب الحكايات الشعبية الصومالية مكونة من قصص قصيرة ساخرة بسيطة فى بنائها، وتحكى لنا عموما عن الحياة اليومية، ويطلق عليها أسماء متعددة مثل الطرفة الساخرة والدعابة، وأقاصيص التسلية والمرح وقصص الخداع والحمقى والجبناء، وتكون الحكاية فى بعض المناسبات جنسية يعيبها الكبار ويطرب لها الشباب،والهدف الرئيسى للحكاية الشعبية هو التسلية أو بتعبير أدق الدعابة، وإذا كانت الحكاية الشعبية قديمها وحديثها تتناول قضايا اجتماعية لا يستغنى عنها المجتمع فإن القصاص أو الراوى يركز اهتمامه على تقديمها لمنتديات الأدب، ويبالغون أحيانا فى شرح تفاصيلها وأحداثها، ويقول مؤلف " الصومال قديما وحديثا " فى أثناء حديثه عن القصص والأساطير الشعبية الصومالية :

" تنتشر القصص والأساطير الشعبية بدرجة عظيمة بين الشعب الصومالى فى كل مكان ففى المدينة حول الموائد وفى أماكن شرب الشاى وفى المساء حينما يجتمع البدو حول النيران المشتعلة عبر السهول يجد الراوى الممتاز أذنا صاغية وقلوبا واعية لما يروى من أقاصيص وقصص صومالية وأساطير، وهي فى العادة ذات تراكيب غير محددة، وعلى أية حال يراعى ذلك مع القواعد الرئيسية واتباعها بقدر الامكان وفق الراوى نفسه، والرواية فن شعبى وأقرب إلى الحياة اليومية منه إلى الأسلوب الخطابى فالراوى الماهر إنما يمثل الممثل الماهر ويلعب دور كل شخصية فى قصته لاظهارهم فى الحياة الشعبية.

وأساطير الحيوانات والرمزيات من قصص الأطفال، وتستخدم فى تربيتهم لأنها تحتوى على نصيحة ومواعظ ومعلومات وتتطرف القصص الشعبية المواقف الاجتماعية والأخلاق والعظات وشرور الدنيا التى سيقابلها الطفل إذا عصى والديه أو خالف أمر الله، ويستخدم الكبار

قصصا بقصد الرمز فى الكلام وأحيانا يكون ذلك فى القصائد مثلها يشير العرب الى أغنية للأطفال معروفة أو قصص الجان والشياطين والقصص التى تروى بين الكبار هى التى تتناول شخصية تاريخية مشهورة مثل سلطان ولوال الذى حارب ضد الحبشة أو شخصيات تاريخية مثل الشيخ اسحاق [1] والحكاية الشعبية الصومالية قريبة أيضا من حيث الشكل والمضمون من الحكاية الشعبية العربية فهى كالعادة تطول أو تقصر وتخبرنا بأحداث حدثت جلها فى الماضى كما نشاهد فى وقائع القصة التاريخية وغيرها، ويستهدف رواى الحكاية فى أثناء حديثه عن حكاية قديمة تزويد المستمعين بتجارب حية تربطهم بالماضى والحاضر وتخلق لهم جوا من المرح والسعادة وهذا ما نراه غالبا فى حكايات الطرائف الشعبية أو النوادر التى تحكينا عن سلوك وسيرة بعض السذج والمغفلين والبخلاء الخ . وتدور وقائع الحكاية الشعبية الصومالية حول رجل أوامرة وهما حسب اصطلاح الحكاية العربية البطل والبطلة، ويتبين هذا القول إذا سردنا هنا رأى أحد الباحثين فى مجال الحكاية الشعبية بصفة عامة :

" يستخدم مصطلح حكاية شعبية للاشارة إلى الحواديث أو حكايات الجنيات مثل سندريلا "وسنوهوايت" كما يستخدم كذلك بمعنى أكثر اتساعا ليشمل جميع المرويات النثرية التى توارثها الأجيال سواء كانت مدونة أو شفوية وهو بذلك ينطبق على أشكال متنوعة من القصص مثل أساطير الخلق عند الشعوب البدائية والحكايات الاطارية المتقنة فى ألف ليلة وليلة وعلى بعض الحكايات الأخرى مثل مغامرات العم ريموس وكيوبد وسايكى، وحكاية الجنيات الشعبية المعروفة فى الانجليزية بـ " (Folk tale) تعبير للدلالة على قصة نثرية طويلة نوعا ما تتضمن عددا كبيرا من الجزئيات أو الأحداث فى ترابط غير محكم ولو أنه منطقى، تغلب الجدية عليها برغم أنها لا تخلو من فكاهة ويكون البطل أو البطلة فى هذه الحكايات هو الشخصية المحورية وتصنع من الوحدات فى تتابع معين [2].

---

(١) - ص ٥٢٨ الجزء الثانى من كتاب الصومال قديما وحديثا لحمدى السيد سالم .
(٢) - ص ١٧ من كتاب عالم الحكايات الشعبية لفوزى العنتيل .

حكايات الطرائف الشعبية الصومالية:

يكثر في الحكايات الصومالية الطرائف التي تتحدث غالبا عن أمور يسودها طابع التسلية ويراد بها أحيانا الذكاء والحكمة ولا تنحصر الطرفة الشعبية الصومالية بجانب الحكمة فقط وانما تتناول أيضا أقوال السذج والحمقى وأفعالهم .. الخ . السذج

ولا أرى فرقا بين الطرفة الشعبية الصومالية والطرفة المكتوبة بالعربية المعروفة في أوساط المجتمع العربي، ولا تختلف الطرفة عندنا عما يذكره فوزي العنتيل في كتابه عالم الحكايات في أثناء تعريفه بالطرائف الشعبية .

" الطرائف الشعبية مرويات بليغة لا ذعة وقصيرة فانها تمثل مرحلة مبكرة في تطور الأدب الشعبي سواء أكان غرضها هو اشباع حب الناس للاشاعات والفضائح أو كانت تستخدم للتسلية أو التهذيب، وترتبط الطرائف بشكل عام بالألغاز والحكم والأقوال المأثورة[1]

وتعتبر الطرائف الشعبية الصومالية التي ترجمها الأديب البريطاني أندرو ويسكي مثالا للطرفة الصومالية ومنها التالية :

" الرجل الذي أحب بنت السلطان "

كان هناك سلطان له ابنة واحدة بالغة الجمال ولم يكن له أبناء آخرون ووقعت في حب رجل، فلما كشف السلطان بعد قليل أمر هذا الحب استخدم امرأة عجوزا للتجسس عليهما وقال لها: أخبريني عن الوقت الذي يزورها فيه، وأخبرت المرأة العجوز السلطان عمن يكون هذا الرجل وعن الوقت الذي اعتاد أن يزور فيه الفتاة، وعندما سمع هذا أرسل جنوده للقبض على الرجل فلما أحضره الجنود الى السلطان حكم عليه بأن يدفن في حفرة ماعدا رأسه الذي يجب أن يترك فوق سطح الأرض ثم يرجم بالحجارة حتى يموت، وقال السلطان لجنوده: عندما تدفنونه في الحفرة ماعدا رأسه فلا تقتلوه بل أتركوه مدة يومين، دعوه يبقى هناك ، ثم في

---

(١) ـ ص ٣٢ من كتاب عالم الحكايات الشعبية لفوزي العنتيل.

مساء اليوم الثالث ارجموا رأسه بالأحجار، وحدث أن مرت به العجوز ورأته مدفونا فى الرمال فسألته : ماذا جرى لك ؟

فأجاب : إننى أحدب، وقد قيل لى اننى إذا دفنت نفسى فى الرمل ووضع الناس رملا ثقيلا على ظهرى فان حدبتى تزول ! وكانت المرأة العجوز نفسها حدباء. فقالت :

وهل أشفى اذا ما فعلت أنا مثلك وتزول حدبتى ؟

فأجاب : نعم لقد شفيت أنا وإن أردت أن أخرج من الحفرة فأحفرى الرمل وأخرجينى، وعندما تنزلين إلى الحفرة فسأغطيك بالرمال حيث تظلين فيها لمدة يومين فقط، وبعد تلك المدة سأحضر إليك وسأسوق الغنم والماعز إلى البيت الليلة بدلا عنك .

حسن جدا .

وقال لها تناولى قطعة من القماش واربطى عمامة على رأسك ان يدى مدفونتان، اربطها الى أنت ! ففعل هذا، وسرعان ماجاء الجنود الذين أرسلهم السلطان بعد ذلك ومعهم الحجارة وأخذوا يرجمونها بها حتى أطاحوا برأسها.

وقالوا بعد أن ماتت المرأة العجوزة، والآن بعد أن مات فلنخرجه من الحفرة لكى يدفن .

وعندما أخرجوا الجسم أدركوا أنه ليس الرجل بل امرأة عجوزة حدباء، فرجعوا إلى السلطان وقصوا عليه ما حدث .

وضحك السلطان وقال : أتركوه آمنا، لقد كان رجلا سعيد الحظ ! استدعوه إلى .

وذهبوا يبحثون عنه فلما وجدوه وأخبرهم عن حيلتهم قال له السلطان : أنت رجل ذكى وأنا أريدك أن تعمل عندى وبعد أن اشتغل الرجل عند السلطان فترة من الزمن زوجه السلطان بابنته وجعله مستشارا له [1].

ومن أشهر الطرائف الصومالية طرفة عجال شيداد التى انتشرت فى البوادى، ودخلت

---

(١) ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ من كتاب مختارات من التراث الأفريقى . وقد ترجم مؤلف هذا الكتاب القصص والحكايات الصومالية التى ترجمها أندرو ويسكى من الصومالية إلى الانجليزية .

الحضر فى أوائل الخمسينات لأنها فى البداية لم تكن معروفة فى مناطق بنادر الجنوبية، وبعد رسوخ المصاهرة بين الصوماليين فى عهد الوصاية، وبعد الاستقلال أى سنه ١٩٦٠ وماتلاها قويت الصلات التراثية بين الصوماليين وصارت الطرف والأقاصيص والفكاهات التى كانت فى الماضى متباينة تباينا بسيطا يخص قالب الطرفة وليس اللغة لأن التراث الصومالى المنطوف كله يعتمد على اللغة الصومالية وأغرض هنا نبذاً أو مقتطفات من طرف عجال شيداد الشهير .

يحكى أن عجال شيداد كان رجلا جبانا يخاف من الناس والحيوانات والجمادات، وقد خرج ذات ليلة للتبول فرأى جذع شجرة كبير، وظن الجذع حيوانا مفترسا، فمكث طول الليل فى العراء يحاور الجذع .

يقول له : إن كنت أسدا فجرب قوتك بمن هو أقوى منى وان كنت ضبعا فسامحنى، وان كنت نمرا فصارع الفهود وكلما حاول عجال التقهقر إلى الوراء ليرجع الى بيته يخشى أن يفاجيئه الحيوان المفترس، ولما بزغت الشمس وظهر الفجر تيقن أن الشئ الذى كان يحاورة طوال الليل كان جذع شجرة.

فقال عجال شيداد لجذع الشجر: لقد خلت أنك حيوان مفترس فأصبحت جذعا جامدا وأعلم أيها الجذع أننى لا أخرج بعد الآن ليلا لقضاء حاجة.

ويروى أن قبيلة عجال شيداد وقبيلة أخرى تصارعتا ودار بينهما حرب شعواء، فحفر عجال تحت سريره حفرة يحتمى بها، وقال لزوجته: إذا جاء إلى مخيمنا رجال لا تعرفهم سائلين عنك اسمى فقولى لهم :

" إن عجال مات، وسرعان ما جاء نفر من أعداء قبيلة عجال، وسألوا زوجة عجال .. أين عجال شيداد ؟ فسكتت الزوجة قليلا .. فصرخ عجال وهو فى الحفرة قائلا : لماذا أنت ساكتة قولى لهم : إن عجال مات، فلما سمع الرجال ذلك الصوت تشككوا، وقالوا لابد وأن نفتش مأوى عجال .

وسمع عجال قولهم هذا .. ففر قبل اقتحامهم لمهجمهوهكذا نجا عجال من الموت

بأعجوبة .

ويذكر أيضا أن ثعبانا صغيرا لمس أو بأسلوب أوضح مر على أنف عجال وهو نائم دون أن يلذغه فاستيقظ عجال من النوم وبكى بكاء الطفل ..

فقال له أحد جيرانه : مالك يا عجال تبكى !

قال عجال : لقد مر الثعبان الصغير على أنفى وأخشى أن يصير أنفى بعد الآن ممرا للثعابين .

****

نـــوادر الـحـكـمـــاء :

وحـــرى بى أن أشير إلـى أن نـوادر الحكماء و الطرائف المسلية الصومالية يتـم تقديمهـــا من قبل الراوى أو من قبل القصاص مرة واحدة، وهذا يحدث غالبا إذا كان القصاص يريـــــد ايضاح الفرق الشاسع بين المغفلين والحكماء، وتأتى النوادر عندنا تحت باب الطرف، ونوادر الحكماء عند الصوماليين مقسمة إلى نوادر تغلب عليها لفكاهة ونوادر تميل إلى الحكـــم، والأخيرة مفصلة عند الكبار أى من تجاوزت أعمارهم الأربعين، ومن الحكماء الذين لهـــم رصيد معقول من الأقوال المأثورة والحكم والمقولات الراقية التى تتوارثها الأجيال حكمـــاء معاصرون ، ومن المشاهير المحدثين الذين برعوا فى هذا المجال " فارح جولولـــــــى " و" دبوّلنى " و " مرايرى "، ولنذكر على سبيل المثال ما جرى لـ " مَرَيرَى ":

عاش آدم ورسمه المكنى بـ " مريرى " فى أوائل عهد سياد برى أى أن شهرته لمعت وقتذاك.

وكان من ألد المعارضين لنظامه، وقد سلط عليه برى عيونه. سمع " برى " أن مريرى قال فى أحد المنتديات : إن المستبدين يريدون أن يخيطوا شفاه الناس بالخيوط، وقد خلـــق الله الشفاه غير مخيطة وارادة الله أقوى من ارادة المستبدين وجبروت الله أعظم من جبروت الجبابرة الطغاة.

وفى يوم عيد أمر برى رجاله باحضار مريرى إلى مقره، ولما مثل مريرى بين يدى بـرى لم يرتعش بل جلس بدون إذن على كرسى.

فقال برى : من أذن لك بالجلوس ؟ أجاب مريرى قائلا : نفسى وإن النفس لأمارة بالسوء كما قال المولى .

فقال برى :إذن اعترفت أن نفسك تأمرك بالسوء وتجلس حيث تشاء ؟

قال مريرى : كلا بل قصدت جلوسا عفويا، وأما الجلسة الطيبة فمع غيرك من الشرفاء.

قال برى:ألا تخشى من بطشى : فقال مريرى : أخاف من بطش من هو أكبر منك.

قال : من ؟

قال : الله الحليم الذى غلبت محكمته العادلة محامك الجائرة .

فغضب برى وأمر رجاله بضرب مريرى وتعذيبه فى السجن ومات مريرى مكبلا بالسلاسل فى مستشفى تابع لسجن " قمتا " بمقدشو والحوار التالى الذى دار بين الحجاج والأعرابى نعتبره من النوادر المفضلة فى الصومال، ونلحظ أن الحوار السالف والآتى يجمعهما عناصر واحدة كالشجاعة والصراحة وعدم المبالاة ببطش الحاكم الجائر وانتقامه:

حج الحجاج فنزل مكة والمدينة، وطلب الغذاء وقال لرسوله: اذهب وتحرّ من يأكل معى ، فولى الرسول وجهه شطر الجبل، فاذا هو براع نائم، فلكزه بيده ، وقال : أيت الأمير، فلما مثل بين يدى الحجاج قال له : اغسل يديك وتغذ معى .

فقال الأعرابى : دعانى من هو خير منك فأجبته.

قال من هو ؟

فقال : دعانى الرؤوف الأعلى إلى الصيام فصمت .

قال :أفطر وصم غدا !

فقال : إن ضمنت لى البقاء إلى غد .

قال : ليس ذلك إلي .

فقال : كيف تسألنى عاجلا بآجل لا تقدر عليه ؟

قال : لأنه طعام طيب .

فقال : لم تطيبه أنت ، ولكن طيبته العافية[1].

ومن نوادر الحكماء العرب الشائعة فى الصومال والتى كنا نسمع إليها بشغف نوادر المنصور ملك المغرب فى العصر الأندلسى ومنها : " ظهر الفساد فى البر والبحر ".

حكى ابن أبى دينار القيروانى. قال : بعث الأمير يعقوب الموحدى المنصور ملك المغرب وأفريقية عامة إلى بعض عماله لينظر له رجلا عالما يخصه لتأديب أولاده .

فبعث العامل إليه برجلين وكتب معهما كتابا يقول فيه : قد بعثت إليك معلمين أحدهما : برّ فى دينه، والآخر بحرفى علمه .

(١) ـ المفرد العلم .

فلما امتحنهما المنصور لم يرضياه فوقع على ظهر كتاب العامل : بسم الله الرحمن الرحيم (ظهر الفساد فى البر والبحر [١].

والنوادر الشيقة ذات الطابع الفكاهى والتى سماها الأديب العلامة عباس محمود العقاد " النوادر القرقوشية " عُرِفَ قدر منها فى الصومال ومنها ما يلى :

قيل إن غلاما لقره قوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له: انه حدادك ينعل لك الفرس ويخدمك فان شنقته لم تجد غيره فنظر قره قوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفاص فقال : هذا القفاص لا حاجة بنا إليه فاشنقوه فى مكان الركبدار وهي وظيفة الغلام الحداد عنده ! يقول العقاد :

وعلى هذا المثال تجرى النوادر " القرقوشية " التى أثبتها " ابن معاتى " فى كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

ومنها نادرة الرجل الذى أوثقه الناس وحملوه حيا ليدفنوه وهو يصيح فى النعش مستغيثا بقره قوس ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يمضون به، وقال له: ويحك ! لأصدقك وأكذب مائة من ورائك !

وقيل : إن قره قوش نشر قميصه فوقع القميص من الحبل فتصدق بألف درهم وقال: لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت. وشكا إليه - أى قرة قوش - مدين أنه يجمع دينه، ويذهب به إلى صاحب الدين فلا يجده، ثم يأتى هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالى الوفاض لايملك السداد فأمر قرة قوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل [٢].

ومن القصص التى تمكننا المقارنة بينها وبين النوادر والنكات القرقوشية كثيرة

---

(١) - المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس .
(٢) - ص ٨٨ و ٨٩ من كتاب جحا الضاحك المضحك لعباس محمود العقاد .

ومعظمها تساق فيسياق القصة الشفوية التى تمثل عماد القصة الصومالية ومنها النادرة التالية :

كان يعيش فى حى "أنزلوتى" رجل يسمى "توج طيرى" يحترف اللصوصية ويتخذ من الارهاب سلاحا لكسب المزيد من الأموال، وتمنى جميع أهالى أنزلوتى الخلاص من شره، وذات صبيحة فوجئ بالشيخ محمد نور وهو عائد من المسجد المجاور لمنزله باللص وهو يحفر جحرا ملاصقا بالبيت ليسر له هذا الجحر ولوج البيت بهدف السرقة فمسك الشيخ يده ولم يمسه بأى سوء، وقدم الشيخ إلى توج طيرى النصيحة، وبدأ توج طيرى يترك سلوكه السيء ويصلى مع الناس، وظن الناس أنه تاب، وقللوا من انتباههم وحراستهم للبيوت والمتاجر، لكن توج طيرى أعاد الكرة واستفاد من غفلة الناس فنهب عدة بيوت، وبعد عام ألقى القبض عليه واقتادته الشرطة إلى سجن "بيوموندو" وأمر الضابط الايطالى بزجه فى زنزانة منفردة، ولما اشتد به الكرب فكر فى حيلة فاشله... زعم أنه مصاب بمرض الكوليرا ولا يستطيع تحمل الزنزانة، فقال الضابط له : الطاعون "الكوليرا" يميت الناس، فاذا أتت حقا مصاب بهذا الداء الوبيل أرنا موتك .. وها نحن مستعدون لدفنك حين تموت وبعد يومين إدعى أنه مغمى عليه كى تنقله الشرطة إلى المستشفى ليتمكن من الفرار من المشفى، ولما دخلت عليه الشرطة وجدوه مغشيا عليه لا يتحرك فظنوا أنه مات وحملوه فى النعش، ولما تيقن أن الشرطة فى طريقها إلى المقابر وليست بمتجهة إلى المستشفى صرخ مستغيثا بالضابط قائلا : إننى بخير .. لست مصابا بأى مرض، أعيدونى الى زنزانتى .

فقال الضابط : ادفنوه حيا فان سارق بيت الشيخ لا يترك نزل الضابط.

ويستحسن أن أذكر هنا أيضا أن عباس العقاد يوضح فى كتابه (جحا الضاحك المضحك) ما يبرهن لنا على أن النوادر والنكات العربية كنوادر جحا وغيرها عرفت أو بالأحرى ذاع صيتها فى شرق أفريقيا منذ أمد بعيد، وأغلب الظن أن هذا الشرق الذى يذكره العقاد هو الصومال لأن نوادر قرقوش وجحا وأبى نواس منتشرة فى الأدب الصومالى المنطوق وجلها تروى فى الكتاتيب ، ومجالس السمر، وفى المرحلة الاعدادية يقول العقاد فى أثناء سرده لبعض

النوادر التى عرفت فى شرق أفريقية :

مثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبى نواس وعن رابليه الفرنسى الذى تقدمت الاشارة اليه، وفحواها أن تاجرا بخيلا رأى طارقا فقيرا يتبلغ بالخبز القفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة،وحارالفقير فى أمره حتى أنقذه حلال المشكلات بحل من قبيل دعواه، لأنه رن أمامه قطعا من الدراهم، وقال له خذرنين هذه الدراهم ثمنا لرائحة شوائك !.. ومن الذى روى هذه النادرة عن أبى نواس ؟

لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة، بل رواها الكاتب الانجليزى " انجرام فى كتابه عن أبى نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية فى أفريقية الشرقية، وهذه ترجمة القصة كما نقلنا ها فى كتابنا عن أبى نواس .

قال انجرام ما ترجمته بحرفه على وجه التقريب :

" إن تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس إلى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها، ثم لقى التاجر فقال له: إنك أيها السيد قد أحسنت إلى أمس إذ منحتنى رائحة معزتك فاصطبغت بها هنيئا، فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له: الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها فقد اختلستها أنت إذن ولاندرى، وساقة إلى هارون الرشيد - وكان شديد المحاباة للتجار - فحكم على المسكين بتغريمة اثنى عشرة روبية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته، وخرج المسكين يبكى لأنه لا يملك فلسا من هذه الغرامة فوجد أبا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ووعده أن يساعده، ثم أعطاه اثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان . ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه ثم كان الغد فجاء إلى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنها على الأرض، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال : نعم ومد يده الدراهم يريد أن يقبضها، فرده أبو نواس وصاح به حسبك ، لقد وصل إليك الثمن رنينا برائحة، فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه وترك الروبيات للمسكين، وانصرف إلى داره".

هذه نادرة تروى فى سواحل أفريقية الشرقية ، ويتحدثون فيها بالروبيات وهم يذكرون نقود بغداد، وهذه النادرة بشئ من التصرف فيها تروى فى قصص جحا وتروى فى قصص رابلية[1]

والنوادر الصومالية والعربية تخضع عادة للواقع الاجتماعى فالموضوعات التى ترد فى النوادر المذكورة كالحديث عن سلوك الحمقى وتصرفات السذج وأقوال الحكماء والأذكياء، وكذلك حواديث البخلاء كلها تعبر عما يدور ويحدث فى المجتمع، والعادات العربية السائدة فى الشارع العربى تعطينا أدلة تبرهن على أن الطرائف ونوادر الحكماء والنكتة الصومالية لا تنفصل ولا تنأى عن الطرائف العربية المعروفة، ويلاحظ أن عناصر الحكايات تتفرغ منها من نوادر أدبية بليغة تزود الأدب العربى بانتاج أدبى متشابه يؤكد من صحة الفكرة القائلة بأن التراث العربى من طينة واحدة، ولنضرب المثال لنعرف المزيد من النوادر الموضحة لعلاقة القصة أو الحكاية الصومالية بأصناف الحكاية العربية التى تسير صوب طابع النكتة أو التسلية.

يحكى أن الداهية " عيروبى فارح " الشهير بالحكمة كان مسافرا إلى " طبرجيلال مجران" ولما دنا من المكان قابله رجل فجيي عيروبى الرجل، ولكن الرجل لم يرد التحية، فقال عيروبى. لم لا ترد التحية ؟ ـ

قال الرجل : لأنى لم أشرب صباح هذا اليوم حليب النوق !

فقال عيروبى: إذن أنت ناقة فارتع مع النوق مادمت لا تعرف أن التحية حياة .

وبالنسبة للنودر المسماة بالانجليزية " Drolls " فإنها كثيرة فى الحكاية الصومالية ، وأغلبها حكايات ساخرة ذات نمط شعبى تجمع خليطا من المضامين الأدبية والمصطلحات العامية المبتذلة ـ الشائعة ـ ومن أصناف النوادر الصومالية حكايات تدور بين البسطاء والحكماء وبين حيوان وآدمى وقد جاء فى حكاية "السلام المنقوض لا يمكن اصلاحه " :

كان هناك رجل نزل بمخيم فكشف وجود ثعبان فيه، ومع ذلك لم يكن الثعبان يؤذى أحدا ، واعتاد كل يوم أن يروح ويغدو بين الأطفال والحيوانات دون أن يؤذيهم، فتأمل الرجل هذا الأمر

---

(١) ـ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ من كتاب جحا الضاحك المضحك لعباس محمود العقاد .

يوما وقال لنفسه : لماذا لا تقتل هذا الثعبان حتى لا يعض أيا من حيواناتك أو أطفالك ؟، وذهب الثعبان وكان نائما فى جدع شجرة وقال لنفسه : أضربه بالسيف على عنقه ! ولكنه أخطأه وأصابت الضربة جذع الشجرة بينما استيقظ الثعبان وفر هاربا إلى داخل جحر.

وفى الليل حين كان الناس نياما خرج الثعبان وعض أكبر أبناء الرجل ومات الابن ، وذهب الرجل فى الصباح إلى الثعبان وقال له : لنعقد صلحا أيها الثعبان وليدع كل منا الآخر فى سلام ! ولكن الثعبان أجاب : أيها الانسان لقد كنا نعيش فى سلام فنقضته أنت أما الآن فما دمت أرى علامة السيف على جذع الشجرة وما دمت ترى قبر ابنك فلن يكون بيننا سلام .. فلنفترق !

الحكاية الفكاهية المرحة :

ومن أمتع القصص الصومالية القصيرة الحكاية الفكاهية وهذا النمط شهير بالاختصار إذلا تطول صفحاته إذ أردنا كتابته، وكثير من حكايات المرح تقدم للأطفال، وهذا لا يعنى أنها مخصصة للصغار فقط، وانما الواقع الأدبى أثبت أن الحكاية الفكاهية تمتع الكبار وتمدهم بمزيد من الراحة بل يذكر بعض المخبرين الروائيين الصوماليين أنها غدت علاجا ناجحا للمرضى النفسانيين، والحكاية الفكاهية الصومالية كالفكاهة العربية مضمونا وشكلا فمغزاهما واحد وهو اسعاد الناس، والعبارات والألفاظ لا تختلفان غالبا، وموضوعهما يدور حول حدث معين يعطينا صورة جلية لنهاية الحكاية الفكاهية ، زد على هذا أن معظم الحكايات الصومالية وتوأمتها العربية تجرى وقائعها فى البادية، وحكاية " المحتالين " التالية نفهم من خاتمتها حيل اللصوص وغباء أحد المسافرين من البدو.

يحكى أنه كان هناك لصان رأيا مسافرا يقود خروفا ويحمل اناء من الزبد فتشاورا معا فى طريقة نهبه، فقال أحدهما : سألعب عليه حيلة، وجلس بالقرب من الطريق الذى كان يمر فيه المسافر، وأخذ يصيح اسمعوا يا مسلمين ! فأقبل المسافر نحوه، وقال : لماذا تصيح ؟ فقال اللص : إننى ضرير أبحث عن شخص ليأخذنى إلى المدينة، فأجاب المسافر أنا أقودك وأنت تمسك بالحبل وتقود الخروف .

وواقف اللص على ذلك، ولكن عندما سارا برهة قال : أصغ الى لا يوجد حيوان مربوط فى الحبل الذى أمسك به .

فسأله المسافر : متى فك الحبل ؟

فأجاب : الآن . على التو

فقال المسافر : سأرجع على الطريق فاحمل عنى اناء الزبد، ورجع أدراجه بينما جرى اللص مبتعدا بالاناء، وهكذا لم ير المسافر بعد ذلك خروفه ور زبده (١).

وحكاية " سوء فهم " الفكاهية الخليجية - والخليج العربى بطبعه منطقة مجاورة للصومال- جديرة بالذكر لندرك أوجه التقارب والتشابه بين الحكايات الشعبية الفكاهية فى الصومال وفى مناطق بوادى شقيقاتها العرب .

يحكى أن بدوا لم يأتهم المطر من مدة، وصادف أن كان رجل مسافر على جمل فمرض الجمل فتركه ونزل على هؤلاء القوم ضيفا.

ومن عادة البدو أنهم لا يسألون فى الثلاثة أيام الأولى عن اسم الضيف وحاجته ووجهته، وبعد انقضاء الثلاثة أيام سألوه :

وش اسمك ؟ فقال : مطر ، فتعجبوا وظنوا أنه مطر حقيقى يخرج الزرع فعرضوا عليه أن يمطر لهم بعض المطر، ولما رفض طقوه (أى ضربوه) واستمروا فى طقه حتى أن أنزل الله رحمته عليهم وأرسل سحابة وأمطرها فتركوه لأنهم اعتقدوا أنه استجاب لهم وأمطر (٢).

حكاية الحيوان :

من المعلوم أن حكاية الحيوان تأخذ دورا فعالا فى الأقاصيص والحكايات الشعبية، والأهمية الأدبية الكبيرة لحكاية الحيوان تجعل الأدباء يولون الاهتمام البالغ لهذا النوع من الحكايات ويليق بالذكر أن بعض الأدباء يوظفون حكاية الحيوان كالأسد والثعلب ويستخدمونها لأغراض سياسية أما الحكاية فى مفهومها القديم فغالبا كانت تروى لعامل أدبى بحت أو للتسلية .

---

(١) - ترجمة أندريسكى، ص ١٦٩ مختارات من التراث الأفريقى .
(٢) - ص٩٨ القصص الشعبى فى قطر لصاحبه : د/ محمد طالب سلمان .

ومن المستحسن أن نستدل بالتعريف التالى لحكاية الحيوان ليسهل لنا فهم ماهيتها :

" إنها نوع من الحكايات الشعبية البسيطة وهى حكاية قصيرة وجزئياتها قليلة بصفة عامة، ويقصد بحكاية الحيوان الحكاية التى تلعب فيها الحيوانات دورا رئيسيا "(١).

وهنا نعرض أمثلة للحكاية الشعبية العربية :

يحكى أن ثعلبا وصف لأسد مريض دواء وهو قلب ثور فقال الأسد، وكيف أستطيع أن أصطاد الثور، وأنا بهذه الحالة ؟

فقال الثعلب : ما عليك أنا أدبر الأمر ثم ذهب الثعلب إلى الثور وقص عليه أن الأسد يريد أن يراك ويشكرك ويتعرف عليك ويعطيك أكلا .

صدق الثور (لأنه ثور) وذهب إلى الأسد، فقال الأسد: قرب يا الحبيب يا الطيب، فلما اقترب منه انقض عليه وقتله وذهب إلى عرينه ليستريح قليلا حتى يتمكن من أكل الثور، وفى هذه الأثناء أكل الثعلب قلب الثور ومخه، وحين استراح الأسد سأل عن القلب والمخ فلم يجدهما.

فقال الثعلب حين سأله الأسد: لا ندرى ماذا تريد !

فقال له :أريد قلب الثور ومخه، فقال الثعلب : لوكان له مخ وقلب كان ما أتى إلى هنا ولا صدق كلامى .(٢).

وفى القصة الصومالية وردت حكاية الثور فى مثل هذه الحكاية العربية المذكورة .

فى أحد مواسم العام حدث جفاف مهلك، وطاف أسد مفترس فى الغابات فلم يجد صيدا، واستشار الثعلب فقال الثعلب : اذهب الي غابات منطقة " هود " النائية وهنالك ستعثر على أربعة ثيران سمان مختلفة الألوان فتوجه الأسد إلى " هود " وعلم أن ألوان الثيران الاربعة متباينة كما أنبأه الثعلب ، فاتصل الأسد بالثور الأسودوقال له :

---

(١) ـ ص ٤٨ عالم الحكايات الشعبية : لفوزى العنتيل .
(٢) ـ ص ٢٢٧ من كتاب القصص الشعبى فى قطر .

إن لون الثور الأبيض يجذب انتباهى دائما، وبياضه الشديد يجلب لكم خطورة لأننى إذا سولت لى نفسى أن أفتك بكم أسترشد بلونه الناصع ويسهل لى معرفة مكانكم فما رأيك اذا خلصتكم من خطورته .. فوافق الثور الأسود باصطياد الأسد للثور الأبيض، وأكل الأسد الثور الأبيض .

وفى اليوم التالى جاء الأسد إلى الثور الأسود وقال له : إننى حينما أرى الثور الأحمر يكتشف لى مكان تواجدكم .. فمارأيك لو قتلته فوافق الثور الأسود ذلك وقتل الثور الأحمر وفى اليوم الثالث ذهب الأسد إلى الثور الأسود وقال له نفس عبارته السابقة فرحب الثور الأسود باصطياد الأسد للثور الرمادى، وفى اليوم الرابع قال الأسد :

لم يبق أمامى إلاأنت أيها الثور الأسود، فتأهب لأتناول لحمك الشهى فندم الثور الأسود ندما شديدا وقال معاتبا نفسه : ليتنى لم أوافق ... لقد ضاعت حيلتى يوم رحبت بافتراس الثور الأبيض والأحمر والرمادى [1].

ونظير حكاية الحيوان فى الصومال متوفر فى حكايات وقصص الحيوان عند العرب وبامكاننا أن نستشهد حكاية " مثل الأرنب والأسد ".

قال دمنة :

زعموا أن أسدا كان فى أرض كثيرة الماء والخصب ، وكان مابتلك البلاد من الوحش فى سعة من الماء والمرعى إلا أن ذلك لم يكن ينفعها من خوف الأسد، فائتمرت تلك الوحوش واجتمعت إلى الأسد فقلن له : إنك لا تصيد الدابة منا فى يوم الا فى تعب ونصب ، وإنا قد رأينا رأيا لنا ولك فيه راحة فان أنت أمنتنا فلم تخفنا جعلنا لك فى كل يوم دابة نرسل بها إليك عند غذائك فرضى الأسد بذلك وصالحهم عليه وقررن ذلك له، ثم إن أرنبا أصابتها القرعة فقالت لهن : إن أنتن رفقتن بى فيما لا يضركن لعلى أن أريحكن من الأسد

---

(١) ـ التشابه القصصى واضح فى قصص بعض الشعوب المتجاورة لذا نعد هذه القصة من القصص المنتشرة فى العالم العربى ومنه الصومال .

فقلن : وما الذى تأمرن من الرفق بك ؟

قالت : تأمرن من ينطلق معى ألا يتبعنى لعلى أن أبطئ على الأسد بعض الابطاء حتى يتأخر غذاؤه.

قلن : فلك ذلك، فانطلقت الأرنب متأنية حتى إذا جاوزت الساعة التى كان الأسد يأكل فيها تقدمت اليه تدب رويدا وقد جاع الأسد حين أبطأ عنه غذاؤه فغضب وقام من مَرْبَضِهِ يتمشى حتى إذا رأى الأرنب قال لها: من أين جئت ؟ وأين الوحش ؟

قالت : إنى رسول الوحش أرسلتنى إليك وقد بعثن معى لك بأرنب فلما كنت ها هنا قريبا منك استقبلنى أسد فأخذها منى وقال : أنا أولى بهذه الأرض ووحشها، وقلت له: إن هذه غذاء الملك أرسلت بها إليه الوحش فلا تُغْضِبَنَّهُ، فضغب الأسد وقال : أنطلقى معى فأرينى هذا هذا الأسد، فانطلقت بالأسد الى جب ذى ماء صاف عميق فقالت : هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه الا أن تحملنى فى حضنك فلا أخافه حتى أريكه. فاحتضنها الأسد وهذه الأرنب ، فاطلع الأسد فرأى ظله وظل وطل الأرنب فى الماء فلم يشك فى قولها فوضع الأرنب ووثب لقتاله فغرق فى الجب وأفلتت الأرنب وعادت إلى الوحوش فاعلمتهن صنيعها بالأسد [1].

وأقرب قصة صومالية لقصة الأرنب والأسد السالفة هي تلك القصة الشفوية التى وردت فى حكايات " جامع نور " (١) الشهيرة بـ (الضبع الأحمق):

قيل إن ضبعا متوحشا كان يعيش فى غابات (جيل قريسو) الواقعة فى وسط الصومال وذات مرة حدث جفاف شديد وتأخر موسم المطر عن وقته، ورحل البدو إلى آلابار القريبة من الأرياق ، وكانت هجرة الناس إلى تلك المناطق البعيدة عن جحر الضبع أثر سيء فى نفس الضبع إذ شعر بالجوع ولم يعثر على بقر ولا عنزه يفترس بها، فذهب إلى عرين أسد ليستشير بالأسد فلم ير الأسد، ثم بحث عن ثعلب فوجده وأخبره بأن الزمان دار عليه وأنه يتأوه

---

(١) ـ ص ٨٣ و ٨٤ من كتاب كليله ودمنه : ترجمة عبد الله بن المقفع .

(٢) ـ جامع نور : قصاص صومالى عاش فى منطقة ركو بمحافظة برى وتوفى سنة ١٩٧٥ م .

كل يوم ويتألم من شدة الجوع .

فقال الثعلب للضبع : أيها الضبع المغفل ثمة ضبع شرس يتردد في أقرب قرية من غابتنا يفترس كل مساء أغنام الناس ولم يترك لنا فرصة للاصطياد بدورنا.

قال الضبع : أنا مستعد لمقاتلته فأريني به .

فقال الثعلب : هيا، ولما وصلا إلى مكان فيه بركة ماء طلب الثعلب من الضبع أن ينظر إلى الماء فقبل الضبع طلبه ورأى صورته في الماء فقال الثعلب : هذا الذي تراه هو الضبع الشرير فألقى الضبع نفسه في الماء ليقتل الضبع وهكذا هلك نفسه .

وذهب الثعلب إلى مأسدة عرين رهيب لأسد مفترس ولما التقت بالأسد قالت له : أيها الليث أنت سيد الأقوياء وقد وهبك الله عضلات مفتولة لذا أنصحك أن تفترس كل يومين مرة وأنا أقوم بدور الاستطلاع وكشف أماكن المواشي ، ووافق الأسد على رأيها، وهكذا عاشا معا يتقاسمان اللحوم، ولم يعكر صفوهما مفترس آخر من الوحوش .

قصص البخلاء :

من العادات المفضلة عند الصوماليين ـ كباقي العرب ـ الكرم والنجدة واغاثة الملهوف، واشعال النار في آناء الليل الدامس كان مفخرة عند الصوماليين القاطنين في البيداء ،إذ كان بريق النار اشارة كاشارة المرور في عصرنا الحاضر تنبه المارين على معابر الصحراء الواسعة التي يتوه فيها من لا يعرف مجاهلها، وكانت النيران بمثابة ما يسمى اليوم بـ " ترانزيت " يلجأ اليها المسافر الذي يسري وسط الدجى ليجد الملاذ والقرى فيقرب صاحب النار للضيف أعز ما عنده من ابل أو غنم ، وإذا تساهل المضيف في اكرام ضيفه ضاعت هيبته في مجتمع البادية وانحط مقامه في مجالس السادة والأعيان، واذا ضل ضارب البيداء طريقه وأحس بالجوع كان عليه أن يبحث عن طعام مناسب فتراه يترفع عن أكل الجيف والطعام الملوث وما إلى ذلك، وإذا فقد التائه صبره وتفاقمت عليه مصيبة الجوع واضطر لأكل كلب فانه يصير منبوذا كالناقة الجرباء ويعاب عليه أكل لحم الكلب

ونستشف من هذا أن قصص البخلاء غالبا تأتى نتيجة لمخالفة الفضائل وتجاوز العادات المحببة عند المجتمع البدوى ، وندرك هنا أن ما يعيبه العربى يعد عيبا عند الصومالى ، والقصة التالية تدلنا على مدى كراهية الصومالى لتناول لحوم ذوات المخالب المحرمة شرعا واستعمال جلد الكلب، ويطلق الصوماليون على كل من يمارس سلوكا كسلوك الرجل الذى تنجلى تصرفاته الغريبة فى القصة التالية إسما غريبا :

يحكى أن رجلا لم يكن يعطى الناس أى شيء ، ومع ذلك لا يردهم إذ كان يتجنب بالخداع والحيلة أن يعطى أحدا شيئاما، ومع ذلك كان جميع الناس ينصرفون عنه راضين فهم لم يأخذوا شيئا.

وبعد مدة بدأ الناس يتحدثون عنه، وسمع أربعة من علماء الدين حديث الناس فقالوا: فلنسأل هذا الرجل الذى يتحدث عنه الناس فان كان بخيلا فانا نحذره بقولنا: أيها الرجل أقلع عن هذاالبخل والا عوقبت فى العالم الآخر، واما إن كان الناس يتقولون عليه كذبا فسندافع عنه ضدهم .

وهكذا ذهبوا إلى الرجل وقالوا: قل لنا أولا أ أنت ذلك الرجل البخيل الذى يتحدث عنه الناس ؟

فأجاب : أتسمعون أيها الاخوة لمثل هؤلاء الناس ؟ إن كانوا يقولون إننى بخيل فلا تلتفتوا إليهم ! اننى سأعطيكم ما تطلبون !

ونظر العلماء كل إلى الآخر، وقالوا: لعل الناس يكذبون ! فلنجلس لنرى ماذا يفعل ؟ وحينئذ قال الرجل لزوجته التى كانت تعرف جيدا طريقته فى الحديث : انشرى يا عزيزتى حصير جلد الكلب لهؤلاء الرجال فى المنظرة النجسة !، وعندما سمع الرجال هذه الكلمات نظر كل منهم إلى الآخر متعجبا، ووضعت المرأة جلدا فى منظرة قريبة وبينما كان الرجال لايزالون متحيرين كيف يتصرفون فى هذا الشأن، قال الرجل مرة أخرى : خذى يا عزيزتى بعض روث الحمار ونظفى به اناء اللبن المسمى " بالشيء القذر الحواف " والتفت الرجال كل إلى

الآخر فى حيرة حين سمعوا اسم الآنية المكروه وبأى شيء سينظف ا وأخذت الاناء بعيدا ونظفته بشيء لم يره الرجال ثم أعادته إلى زوجها وهي تقول : إن اناء اللبن معد. فقال : احلبى لهؤلاء الرجال البقرة كذا ـ وكذا التى سلبتها من الأيتام. وهنا انصرفوا قائلين : أغرب عنا أيها الشيطان فلن نأكل طعامك، وجرى الرجل خلفهم وقال : لا تذهبوا أيها الأخوان ، تعالوا وانظروا ماذا سأقدم لكم ا ، ولكنهم رفضوا وأقسموا ألا يقربوا بيته ولا أى شيء من أشيائه وكفوا عن بحث الأمر[1].

وما جاء فى الصفحة ٣٣٣ من كتاب البخلاء يجزم استغراب العربى للأمر الذى يجر المرء إلى تناول لحم غير معتاد واشمئزازه من غير المألوف ..

" قال أعربى : جعت حتى سمعت فى مسامعى دويا فخرجت أريغ الصيد فاذا بمغارة ، واذا هو جرو ذئب فذبحته وأكلته وادهنت واحتذيت، ولما قدم المغيرة القادسية على سعد بسبعين من الظهر وعند سعد ضيق شديد من الحال نحروها وأكلوا لحومها واهنوا بشحومها واحتذوا جلودها، وذكروا عن عبد الملك بن عمير عن رجل من بنى عذرة قال : خرجت زائرا لأخوال لى بهجر فاذاهم فيبرث أحمر بأقصى حجر فى طلوع القمر فذكروا أن أتانا تعتاد نخلة فترفع يديها وتعطو بفيها وتأخذ الحلقان والمبسبتة والمنصفة والمعوة فتنكبت قوسى وتقلدت جفيرى فاذا هي قد أقبلت فرميتها فخرت لفيها فأدركت فقورت سرتها ومعرفتها فقدحت نارى وجمعت حطبى ثم دفنتها ثم أدركنى ما يدرك الشباب من النوم فما استيقظت الا بحرّ الشمس فى ظهرى ثم كشفت عنها فاذا لها غطيط من الودك كتداعى طيء وغطيف وغطفان ثم قمت إلى الرطب وقد ضربه برد السحر فجنيت المعوة والحلقان، فجعلت أضع الشحمة بين الرطبتين والرطبة بين الشحمتين فأظن الشحمة سمنة ثم سلاءه وأحسبها من حلاوتها شهدة أحدرها من الطود ....

وأنا أتهم هذا الحديث لأن فيه ما لايجوز أن يتكلم به عربى يعرف مذاهب العرب ....

---

(١) ـ مختارات من التراث الأفريقى (سبق ذكره).

وهو من أحاديث الهيثم " [1].

وتحت عنوان " مآكل الأعراب " يقول مدينى لأعرابى : أى شيء تدعون وأى شيء تأكلون ؟ قال : نأكل ماذَبَّ ودرج الا أم حبين، فقال المدينى : لِتَهْنَ أم حبين العافية .. وأم حبين دويبة بقدر الخنفساء حسب شرح البخلاء، ومن ثم نلمح أن البخل كان ميزة مذمومة يوصف به من لا يتحمل الضائقة التى تواجهه فى أوقات الخطوب والقحط فتسول له نفسه أكل ما لا تهوى إليه الأنفس وبذلك يصير البخيل شاذا وسطبيئته البدوية ومع أن البخيل يفقد ثقته فى المجتمع فان ممارسته - أحيانا - بعض الأعمال المفيدة كرعى الابل وحرصه الشديد على الحفاظ على أموال الناس واعتزامه الدفاع عن ممتلكات قومه تخرجه عن العزلة المفروضة عليه وأحب الاشارة إلى " كلع شورية " البخيل لنعرف أن للبخيل أحيانا - محاسن معقولة فقد عاش "كلع شوريه " فى بادية " قلافو " وكان يجمع الابل فى جظيرة واسعة ويستيقظ فى وقت مبكر ليقود ابله إلى الغابة ذات الأعشاب السخية التى تضمن له تسمين ابله ودرها حليبا وفيرا.

وفى احدى الأيام جاء إليه ضيف قدم من جيغجيغا وطلب الضيف من " كلع " قدرا من الطعام والماء لكن " كلع " قال له : الطعام والماء لصاحبهما قال الضيف : لم أفهم ماذا تعنى فقال " كلع " : لا تضيع وقتى فانى أحسب الوقت بالأصابع .

قال الضيف : قطع الله أصابعك .

فقال " كلع " : آمين .

وفرو مغادرة الضيف لمخيم " كلع " سمع كلع صوتا مصحوبا بالضجيج فأخذ بندقيته واتجه صوب الغابة .

فرأى مجموعة من الرجال تنهب ابل فخيذته، وطفق يقاتلهم حتى تمكن انقاذ الابل من العصابة وطردهم من الغابة .

---

(١) - ص ٣٣٣ من كتاب البخلاء للجاحظ

ومنذ ذلك اليوم أكرمته فخيذته وعلموا أن اعتزازه بعشيرته تنجيه من فضائح البخل، وبامكاننا أن نتأكد من وجود بخلاء أمثال " كلع " في بوادي العرب، فما من قصة في الصومال الا ولها نظير في الوطن العربي مما يدل على الإرتباطات الاجتماعية الوثيقة بين الصوماليين وأشقائهم العرب، وخاصة متانة علاقة بدو الصومال ببدو العرب ولننظر مايلي :

" وكان أبو سعيد هذا مع بخله أشد الناس نفسا وأحماهم أنفا، يلغ من عمره في ذلك و من بلوغه فيه أنه أتى رجلا من ثقيف يقتضيه ألف دينار وقد حل عليه المال فكان ربما أطال عنده الجلوس ويحضر عنده الغذاء فيتغذى معه وهو في ذلك يقتضيه.

فلما طال عليه المطل قال له يوما وهو على خوانه: إن لهذا المال زكاة مؤداة وقد علمنا أنا حين أخرجنا هذا المال من ايدينا أنه معرض للذهاب وللمنازعة الطويلة ولأن يقع في الميراث ثم رضينا منك بالربح اليسير بالذى ظنناه بك من حسن القضاء ولولا ذلك لم نرض بهذا المال، وهذا المال إذا كان شرطه أن يرجع بعد سنة فرفهت عنك بحسن المطالبة شهر أو شهرين ثم مكث عندى الى أن أصبت له مثلك شهرا أو شهرين محق فضله وخرج علينا فضل ومثلك يكتفي بالقليل وقد طال افتضائي ، وطال تغافلك) ..

يقول هذا الكلام وهو في ذلك لا يقطع الأكل .. فاقبل عليه رجل من ثقيف فعرفله بأنه لو أراد التقاضي محضا لكان ذلك في المسجد ولم يكن في الموضع الذى يحضر فيه الغذاء فقطع الأكل ثم نزا في وجهه الدم ونظر إليه نظر الجمل الصؤول ثم كاد يطير ثم أقبل عليه فقال : لا أم لك ! أنا انما اصطبغت من دنخل حتى فني من حسن العقل، وأحببت الغنى بفضل بغضي للفقر وأبغضت الفقر بفضل أنفتي من احتمال الذل تعرض لي لا أم لك بأني أرغب في غذائه ؟ والله ما أكلت معه الا ليستحي من حرمة المؤاكلة وليصير كرمه سببا لتعجيل الحاجة، ثم نهض بالصك وعليه طينته فاعترض بها الحائط حتى كسرها ثم نفل في الكتاب وحك بعضه ببعض ثم مزقه ورمى به، ثم قال لكل من شهد المجلس :

" هذه الف دينار كانت لي على ابي فلان، اشهدوا جميعا اني قد قبضت منه وانه

برىء من كل شيء أطالبه. ثم نهض فلما صنع ما صنع أقبل الغريم على صاحبه فقال : ما دعاك إلى هذا الكلام ؟ لم تقوله لهذا الرجل على مائدتى وتقدم بهذا الكلام على من لاتعرف كيف موقع الأمور منه ؟ وبعد فقد والله أردت مطله إلى أن أبيع الثمر ورجونا حلاوته فقد أحسنت إليه وأسأت إلينا وعجلت عليه ماله. اذهب يا غلام فاضرب بذلك الثمر السوق فبعه بما بلغ فيأخذ ماله كملا ثم ركب إليه، فأبى أن يأخذه فلما كثر الأمر فى ذلك طلبوا إليه -أى الحوا فى قبوله - حتى أخذ المال [١]. وهكذا لا أستطيع أن أجزم عزلة البخيل ودمامته فرب بخيل يبخل بماله ويضرب به المثل فى الجرأة ولا أؤيد الفكرة السائدة فى أوساط بعض القبائل البدوية التى تقول : إن البخل والجبن صفتان مرتبطتان لا تنفصل احدهما عن الآخرى، فقد ثبت أن علاد سعلى وهلع طيرى [٢]، اشتهرا بالبخل وكانا نموذجا أو مثالا للشجاعة.

---

(١) - ص ٢١٥ و ٢١٦، و ٢١٧ من كتاب البخلاء للجاحظ .
(٢) -

الفصل الثالث

أ ـ القصة الصومالية

وروافدها العربية

قامت فكرة احياء الأدب العربى على سواعد الاعلام العربى فى الصومال إذ كان من فوائد المطابع العربية المثمرة التى أنشئت فى مقدشو ظهور صحف عربية كجريدة " صوت الصومال " و " اليوم " و " الوحدة " و " الحقيقة " و " الشعب " و " الطليعة "، وهذه الصحف كانت تعمل جنبا إلى جنب مع الاعلام العربى المسموع، فقد كان التعاون بين البرامج الأدبية القليلة التى يبثها القسم العربى باذاعة مقدشو وما تنشره الصحف فى صفحاتها الصغيرة من فنون الأدب العربى قويا .

ورغم ضالة وضعف ركن الأدب فى الصحف المذكورة ـ السياسية ـ نقر بأن الاعلام العربى فى الصومال شجع الملمين العارفين باللغة العربية على نشر آرائهم وأفكارهم الأدبية فى تلك الصحف ، ومن هؤلاء المرحوم "جيلانى أحمد شريف ومحمد أحمد اسماعيل الشهير بـ "سدّحلى" ويجدر بى أن أشير الى أن قصة " همزات الشياطين " لعبد الحميد جودة السحار كانت من أشهر القصص العربية الحديثة التى نشرت فى الصحف العربية الصوماليةوالسبب راجع إلى أن مزاج الصوماليين يفضل غالبا القصص التى تنتهى بنهايات متفائلة كالتوبة إلى الله ، والنجاح، وذم الرذيلة وغدت قصة " همزات " التى تم نشرها فى نافذة الأدب من جريدة الوحدة فى اكتوبر سنة ١٩٦٤م اكتشافا جديدا للصوماليين، وقد تأثر جيلنا بهذه القصة ونطبراتها من القصص العربية العصرية ، وقد نشرت قصة " ثمار الصبر " بعد اطلاعى المتواضع لقواعد الفن القصصى، و " ثمار الصبر " رغم اختلافها عن " همزات الشياطين " فى دور الأبطال والأداء التمثيلى، لكنها من حيث الموضوع أو الهدف الأساسى قريبة من مرمى " همزات الشياطين"

فقصة " همزات " كما يصورها الأستاذ الجليل محمد قطب لا تتركنا فى منظر الحيرة والقلق ، وانما تبرز لنا الأحداث الأخيرة من القصة من تراجع البطل عن الرذيلة وتوبته إلى باريئة، وهذا على حد قول قطب يعنى أن يكون الضوء مركزا على لخطاب الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة .

"انها قصة شاب متدين يقع تحت اغراء الفتنة، وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج ، وتحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة تصرعها وتكتم أنفاسها، ويظل المؤلف يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب، حتى يقع فى الخطيئة ويرتكب الفاحشة ولكنه لا يترك والضوء مسلط على منظر الجريمة ، وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير، إنه يرسم لك لحظة الافاقة، انه ينهى القصة بمنظر الفتى وهو يتلمس فى ظلمة نفسه أضواء المغفرة ثم يفتح الباب ليدخل منه النور[1].

وقصة " سحنى " تعنى تصوير الجانب الروحى القائم على أساس الحب للجديه والخير، والاستقامة التى تربط دائما عاطفة الشاب بالضوابط الأخلاقية التى يقتدى بها كل جيل .. فقد عاش " سحنى " فى مدينة " عيلبردى " بالصومال مع والدته الفقيرة التى قدمت له كل ما تملك، وبذلت قصارى جهدها فى سبيل اسعاده وتربيته، ولما اشتد ساعده وبلغ سن الرشد التحق بمدرسة " عيلبردى " وتفوق على نظرائه من التلاميذ المتحدرين من أسر غنية تنعم بالحياة السعيدة.

ويحاول " سحنى " السفر إلى " مقدشو " حيث توجد المدارس الثانوية والمعاهد العالية، وهناك يضطر للعمل فى وظيفة مساح أحذية بعد يأسه من الحصول على عمل أحسن من هذه الحرفة ويرفض بكبرياء الشلنات التى يقترح له أصدقاؤه جمعها ليسد بها رمقه .

وتأبى نفسه الأبية الخضوع أو اللجوء إلى منازل الأثرياء الذين يهينون أولاد الفقراء.

---

(١) ـ من كتاب النفس والمجتمع فصل فوق الواقع وسردها محمد قطب هذه القطعة فى كتابه منهج الفن الاسلامى بقصد الاستشهاد.

كان "سحنى" يقطن فى مسجد عبد القادر الواقع فى قلب مقدشو، لم يتردد عن كسب العيش وعن طلب العلم والتقيد أو الا لتزام بأوامر الخالق لأن ايمانه بأن العمل شرف وأن التسول مهانة كان أقوى من كل شيء .

وعلم أن العلم يرفع شأن الرجال وأن التدين وأداء الواجبات الربانية زينة الحياة وذ خيرة الآخرة، فلم يتوان عن بذل الجهد لتحقيق مرامية النبيلة، فصبر وصابر، وتحمل مصاعب الحياة ليصل الى مرتبة عالية من التعليم والثقافة .

ولما أتم تعليمه الثانوى تقدم لامتحان المنح الدراسية الخارجية فنجح بتفوق ولكن مديرى شؤون المنح الدراسية يحلون محله طالبا فاشلا ويسلبون حقه، فيلنزم "سحنى" بالصبر، وكل مرة يقاوم الظلم بصبر وأناة حتى يوفق أخيرا بمنحة أخرى فيسافر الى بلد أوربى، ويتخرج من كلية الطب، ويعود الى بلده ويحاول الزواج.. لكن العادات البالية تواجهه، ويرفض والد البنت أن يزوج ابنته شابا من أسرة مجولة.

القصة الرومانسية[1] ودورها فى اصلاح المجتمع الصومالى :

اذا كان الأدب العربى قد لعب دوره فى تحرير الأمة العربية فان القصة الصومالية فى مراحلهاالأخيرة أخذت شيئا فشيئا وتتجه الى المجتمع الصومالى وتحاول البحث عن الحلول الناجحة للتخلص من العادات المتخلفة التى تحطم وتخيم آمال الشباب، وطفقت القصة أيضا تعالج الرذائل المتفشية فى المجتمع والى تعيق مطامح الأمة .

وكان من أوائل الذين نادوا باصلاح المجتمع الصومالى عن طريق التعبير القصصى المرحوم محمد حسين الشهير بـ "شيكو حرير"[2] وكان لـ "شيكو حرير قدر من الالمام باللغة العربية لكنه لم يكن يتقن أسلوب كتابة القصة العربية بالعربية، واكتفى المرحوم بتقديم قصصه الشفوية الى أكاديمية التراث والثقافة بمقدشو.

وكانت اذاعة مقدشو تبث أحيانا بعض قصصه الاجتماعية وأذكر منها القصة التالية :

---

(١) أقصد تلك القصة القصيرة التى تدور أحداثها غالبا فى عالم الواقع ويراد بها اظهار الأحداث الخارقة التى تجذب انتباه القارئ والسامع وتبين لهما المآسى الاجتماعية وتغلبها النزعة العاطفية .

(٢) شيكو حرير قصاص صومالى درس الدين وكان خبيرا فى الأدب الصومالى، توفى فى نهاية عام ١٩٩١م .

فى ليلة قمراء دخل " فيتن أو جاس " قرية " ملّيكّالىّ " واشترى جرابا من التمر، وبعد شراء حاجياته خرج قبل صلاة الفجر بساعتين، وهو يقود جمله ويحمل بندقيته على كتفه الأيمن متوجها إلى بادية " مليكانى " حيث يقطن أهله، وكان الذعر والهلع يسودان أجواء المنطقة وقتذاك بسبب الحرب الدامية الدائرة بين (ريرِ قرع " قبيلة فيتن و (ريرِ قنسح) ولما بزغت الشمس رأى فيتن فى منتصف الطريق أثر رجل، فتتبع الأثر، وبعد ثوان سمع طلقات رصاص فتوجه صوب صوت الرصاص، ولما اقترب من المكان سمع صوت رجل يقول لرجل آخر ويلك يا " جعور" لا تفرط فى تعذيب ولد فيتن فإن فيتن إذا تيقن أن ولده قتل بشكل مروع بشع لن يهدأ له بال وسينتقم شر انتقام، فأطلق فيتن الرصاص تجاه الرجلين فاندهش الرجلان، وبعد دقائق من تبادل الرصاص بين فيتن والرجلين تمكن فيتن من القبض على أحد الرجلين ولم يعثر على الآخر، ووجد ابنه مقتولا مقطوع اليد، فنظر فيتن للرجل قائلا له: ماذا تتوقع منى ياقاتل ولدى ؟فقال الرجل : انى لست بالجانى .. لقد نجا منك قاتل ابنك ؟ وأنا أرجو من خالقك أن يلهمك بالصبر، وعفا فيتن عن الرجل، وبعد مرور عام وقع قاتل ابن فيتن فى أسر قبيلة فيتن وقبل أن يحاكم فيتن المجرم جاء فجأة الرجل الذى صفح عنه فيتن راكبا فرسا يلوّح برايه بيضاء قائلا : السلام ... السلام .. الأمن يافتين ياسيد بنى قرعْ .. لقد علمنا صبرك وجنوحك الى السلم ورحب فيتن بهذه المبادرة السلمية، وعفا كذلك عن قاتل ولده وتسلم الدية من عشيرة الجانى ، وهكذا صار فيتن مثلا يحتذى به وغدا مثلا للصبر، وتمنى كل شيخ قبيلة أن يحذو حذو " فتين " ونرى أن هذه القصة يغلب عليها طابع الحزن، فالوالد حين يرى جثة ولده فى صورة تنفر عنها النفس يشده الحزن ويؤزه أزا مخيفا، فالقصاص " شيكوحرير " فى هذه الموقف يقارن بين نظرتين متباعدتين هما الانتقام المر والعفو غير المتوقع من فيتن، ثم يتضح لنا الانطباع الطيب الراسخ فى نفس زميل المجرم الذى عفا عنه فتين والذى أدى فى النهاية إلى الصلح.

هذه القصة تعطينا دواء يقضى على مرض أو بالأخرى على رذيلة خبيثة تضير بالمجتمع ضررا بالغا أخطر بكثير مما تسببه الرذائل الأخرى وهي الاخذ بالثار والعلاج المثالى الذى

أراد به توضيحة " شيكوحرير " هز العفو عند المقدرة وفوائده الجمة المؤدية إلى التسامح والتآخى .

إن القصة العربية فى البلدان العربية الأخرى استنفرت طاقات كتابها أمثال محمد لطفى جمعة، ومحمود تيمور، والمنفلوطى وغيرهم الذين صاروا قادة الاصلاح فى المجتمع العربى نتيجة لجهودهم المثمرة الناجمة عن انتاجهم القصصى الذى اجتث جذور الأمراض الاجتماعية، والأدباء الصوماليون المهتمون بالقصة وأثرها فى الاصلاح كانوا قلة إن لم أقل لم يكن لهم دور يذكر فى وساط الأدباء العرب المصلحين، والسبب يرجع الى ندرة الآلة العربية الكاتبة، وانعدام المطابع وقلة الامكانات زد على هذا استبعاد المستعمرين وأعوانهم كل شئ مكتوب بالعربية، والحقيقة التى لايخالطها أى ريب هي أن السلطات البريطانية فى الشمال والايطالية فى الجنوب والفرنسية فى جيبوتى كانت تتعقب وتطارد وتعتقل كل مثقف له ميول عربية أو مهتم بثقافة أمته العربية، ولذا ليس من المستغرب أن أقول : إن فى عهد تيمور والمنفلوطى فى مصر كانت الصومال تئن تحت وطأة حظر اللغة العربية، ولا أنكر أن العالم العربى تعرض لنفس المظالم الاستعمارية الرامية لعرقلة اللغة العربية لكن القاعدة اللغوية فى البلدان العربية أعطت اللغة العربية قوة تمكنها من انتشار واثبات كيانها الأدبى الفنى، وليس قصدى من هذا القول أن العربية بتراثها وآدابها انعدمت فى تراب الصومال وأظن أننى لا أكون مغاليا أو بعيدا عن الواقع إذا قلت إن الدور الاصلاحى للقصة الاجتماعية يحقق فوائد جمة للمجتمع المطلوب اصلاحه، فكثير من مجتمعات العالم الثالث تأثرت بالرذائل التى نقلها أبناؤها العائدون من الغرب كالقمار وشرب الخمور والدعارة والأيدز، والتقليد الأعمى وغير ذلك من ضروب الفساد الاجتماعي، والأمر الذى لا يشوبه شك هو أن القصة بجميع أشكالها تستطيع بشكل فعال استئصال الأمراض الاجتماعية فهي كالطبيب المتخصص المتفرغ لبحث خفايا السقم وبواطن العلل ، واذا كانت أشعة اكس تيسر للانسان معرفة أعراض الداء . . .

فان القصة الاجتماعية نجحت فى حصر واحصاء أخطر الرذائل التى تثقل كاهل شعوب ما سمى بالعالم الثالث ، وقد لاحظنا مرارا وتكرارا أن رواد القصص الاجتماعية فى بعض البلدان العربية يكسبون عطف حكومتهم، ويحصلون على الجوائز التقديرية ، وقد حثت الدول الغربية كتابها ببذل الجهد الحثيث فى سبيل انقاذ الآلاف التى تفقد أرواحها شهريا بسبب مرض فقدان الحياة "الأيدز" ولكى ينجلى الموضوع أحبذ أن أبين أن القصاصين الصوماليين القلائل الذين شهروا أو جهزوا أقلامهم لرفع المجتمع الصومالى وتحريره من قيود التخلف والجهل والنزعة القلبية ما وجدوا فرصة التعبير عن وجهات نظرهم إزاء المجتمع بشكل فن قصصى يوجز وينجز أساليب علاج علل المجتمع بلغة الضاد، لغة الاجداد وذلك أن القوى الماسونية التى تحرض الغرب على محاربة اللغة العربية فى قارة البراءة أفريقيا لم تسمح للأقلام النيرة الصومالية الفاهمة لمجريات الأحداث فى العالم والثورات الاجتماعية المنبثقة من الصحوة الفكرية فى العالم العربى خلال الأربعينات والخمسينات والتى ظلت تتصدى لفساد الغزو الفكرى الأوربى الساعى لنشر الرذائل فى أوساط الشباب لم يسمح بأن يعبروا بصراحة عن أفكارهم ، وقد عبر عدد ضئيل جدا من الكتاب الصوماليين عن آرائهم فى الاصلاح الاجتماعى ومناهضة الرذيلة المستوردة عبروا عنها أو شرحوها باللغات الايطالية والانجليزية والفرنسية فى شكل مقالات ، ولم يعد لتلك المقالات الاجتماعية أى وجود، إذ كانت تلقى الصحف فى أراشيف مغلقة ومخازن مظلمة كى لاتجذب انتباه الشارع الصومالى، ولا أبالغ اذا ذكرت هنا أن القصة العربية الاجتماعية فى أطوارها الأولى لم تصل إلى الصومال، وحتى إذا دخلت بعض القصص الاجتماعية الرائعة الهادفة إلى تحرير المرأة - ودخلت فعلا - لم تكن مؤثرة فى الجو الاجتماعى الصومالى المكبل آنذاك بقيود العادات البالية التى جعلت المرأة جزءا من المطبخ، وينبغى أن نعرف أن القصة الصومالية واكبت القصة فى المنطقة العربية المحيطة بها، ذلك أن المجتمع الصومالى خاضع فى كل المراحل التى يمر بها لما يؤثر فى المجتمع العربى ، فالمرأة العربية فى الخليج العربى تعانى من نفس ما تعانيه المرأة فى الصومال وكلاهما

مرتبطاتان بالحالة الاجتماعية والقصة الرومانسية ارتبطت بالدور الاصلاحي، وصورت الفساد والفشل الذريع الذى واجه التقاليد البالية فى الصومال وتقضى على بعض المعتقدات المختلة، ويبدو أن الصراع العنيف مع التقاليد البالية يولد شعورا غاطفيا صادقا، وهذا يعنى أن البطل الرومانسى مضطر للانقياد الى المشكلة الاجتماعية التى تقلقه وتضعه فى مواقف حرجه، والقصاص الصومالى محمد طاهر أفرح يصور أو بعبارة أوضح يتحدث فى قصته " مانفاى " عن تلك الفتاة التى لم تنج من تعنت أسرتها، فهذا هو والدها " مؤمن " يجبرها على ما لا تطيقه فيحاول تزويجها بابن عمها أبو بكر مختار، وهي تريد أن تجتاز هذه العقبة بعزيمة ولكن الأمر يزداد سواء، وتظل الفتاة الصامدة " مانفاى " تقاوم هذا الموقف المحرج ونستنبط من قصة مانفاى ما يومئ الى تدمر البنت، وعدم تساهلها بتجاهل الأسرة لحريتها ورادتها وتعالج فى نفس الوقت ذلك الداء المدمر للمجتمع الذى يؤدى إلى تنفير البيت وهروبها من المنزل ناهيك عن تعرضها لمصائد وكمائن الشيطان، فافتاة البريئة "مانفاى" تجبرها الضغوط والتهديدات المستمرة من قبل والدها مؤمن اللجوء الى سبيل المغامرة، فتضطر الى الذهاب الى بيت خارج منزل أسرتها وتسافر مع شباب لا تعرف تواياهم، ولا تدرى ماذا تخبئ غرائزهم، وفى نهاية المطاف تنصاع الى نصيحة صديقتها المخلصة " زهرة يوسف " التى تبذل الجهد الحثيث لانقاذ المسكينة مانفاى، ولتوطيد العلاقة بين " مانفاى" وحبيبها المتعلم أحمد جامع وتنجو مانفاى بأعجوبة من اغراءات بيدن شبيل المرأة الشريرة التى اعتادت اصطياد البنات وافساد أخلاقهن مستخدمة الحيل البذيئة فتأتى هذه بوجه وتلك بوجه آخر، وتقود البنت العفيفة الى بيت المعاصى، وها هي ذا تتربص بـ " مانفاى " وتراها وهي تمشى صوب بيت شقيقتها ليلى، ويخطف جمالها نظرات " موسى طجى " ذلك الرجل ذى الأطوار الغريبة الذى لا يستطيع أن يتحكم فى غريزته الشهوانية فيتعثر من حين لآخر ويجرى وراء كل فتاة جميلة، ويطلب بالحاح من بيدن شبيل أن تفترس له " مانفاى" بكل الوسائل، ويصر على أنه لا يهتم بالفتيات اللائى يترددن فى مصيدة بيدن شبيل وأن الوحيدة التى ممكنه تهدئة رغبته الجنسية هى " مانفاى"، وتقنعه بأنها قادرة على أن تجلب " مانفاى" فى ليلة وضحاها أو أقل .

وتحيط الهموم القاتلة بـ " مانفاى " فلا تقر لها عين، ولا يطمئن لها بال ، وأخطر ما يداهمها كابوس البيت وكركبة القوادة الشريرة بيدن شبيل " فتلجأ احيانا الي بيت اختها ليلى وزوج اختها عيسى طيرى الذين يكنان لها احترام

ويحاولان بقدر استطاعتهما الدفاع عن حقوقها، ولكن مكر بيدن شبيل ودهاءها المموه يغلب عليها ، وتتمنى مانفاى أن يعود اليها حبيبها المفضل " أحمد جامع " الذى ذهب إلى منطقة غير معروفة لأداء واجب،وحبها لأحمد لم يكن مجرد غرام وانما ظلت تحبه ليكون فى يوم من الأيام شريك حياتها، وكلما بدأت التفكير فى مستقبلها وفى البحث الجاد عن الرجل المتعلم الذى اختارته أحمد جامع تجد بيدن شبيل جالسة إلى جنبها تشوش عليها وتغريها مشجعة اياها بالاستسلام لـ موسى طجى الذى ركز كل اهتمامه لتلطيخ سمعة هذه المعذبة فتهرب منها، ولكن لا محيص عنها،وكانت البنت العفيفة (فاطمة برى " ـ الخادمة ـ تعرف مكائد سيدتها العجوز بيدن شبيل، وعلمت أنها تريد التلاعب بمصير مانفاى، ففكرت فاطمة فى الخلاص والاسراع الى حيث أهل مانفاى ليلحقوا بنتهم قبل وقوعها فى كمين بيدن ، وفى أول الأمر تتصل بليلى أخت مانفاى وزوجها عيسى طيرى وغيرهم، وتخبرهم بأن المؤامرة ضد مانفاى قد دبرت من قبل بيدن وأرغمت بنتهم الجلوس فى بيت يمارس فيه الخلاعة وشرب الخمر .. الخ . ويتضح لأسرة مانفاى أنها لم تذهب إلى ذلك البيت المخل بالشرف بمحض ارادتها، وانما دخلته لسبب مسكر دسته لها بيدن، وينقل جامع طجى الثرى الوصولى مانفاى إلى فيلته ـ منزله ـ الفخمة ليسيطر على بال البنت المظلومة .

وفى وسط الفيلة تقاوم الفتاة اغراءاته ووعوده الطائشة وتترفع عن الخضوع لماله وأهوائه الزائفة . ويدور الخلاف الحاد بين " جامع طجى " والقوادة " بيندن " اذ يؤدى قنوطه ويأسه المميت من النيل من مانفاى، وفشله فى كسب ودها إلى اتهامه بيدن ، بأنها لا ترغب الا فى جمع النقود ، وتبديد ثروته بالحيل والأكاذيب المعسولة، ويبلغ السيل الزبى حينما يتكشف لمانفاى أن الثرى المتآمر عليها " جامع طجى " والد عشيقها أحمد ـ زوجها فى النهاية ـ .

ونلحظ هنا أن القصاص يروم من وراء هذه القصة كشف الستار عن المآسى التى واجهت المرأة الصومالية، فالحزن الذى أرخى سدوله على خاطر مانفاى، وسهرها المتواصل للخروج من

المأزق والنجاة من كافة الكمائن يبرهن على الهموم التى ألمت بالبنت المظلومة ويبدو أن الأديب " أفرح " يصور بطريقة رائعة يلمسها القارئ معابر المأزق التى دبرت لها ثم يتحسسها بقساوة، ويركز الكاتب أيضا شناعة الرذيلة وأثرها فى افساد المجتمع فيتطرق إلى بذاءة الخمر ومهنة القوادة، وغير ذلك، ومن المستحسن ألا ننسى الظروف المحيطة بالمرأة الصومالية، وبالذات المراهقة التى تحلم بتحقيق ما تصبو إليه من حب بغية مقاومة الضغوط الشديدة التى تتلقاها من جبروت البيت الذى يعاملها معاملة الأوانى المكدسة فى المطبخ، ولا ينظر بعقلانية إلى النتائج الوخيمة المترتبة على اجبار البنت على رجل لا ترتضيه ، واذا كان هذا النوع من التعبير عن أحاسيس الفتاة المعذبة الثائرة دفاعا يتبناه الكاتب للحفاظ على قيم وكرامة البنت أو لعدم التساهل فى حقها فى الاختيار، فإن نظرته لهذه القضية الرئيسية الموضحة لازمة البنات الصوماليات شاعت بل سادت من قبل فى المجتمعات العربية الأخرى، وأقصد أن ما يؤلم المرأة الصومالية الناشئة يؤلم المرأة فى الخليج العربى، واليمن ومصر، والسودان، ذلك أن القصة الاصلاحية الاجتماعية ذات الطابع الرومانسى انتشرت بشكل أو بآخر فى مناحى البلاد العربية، وكان تأثر القصة الاجتماعية الصومالية بالطابع الفنى القصصى مطابقا للقصص الشائعة فى البلدان العربية القريبة من الصومال، فالعامل الجغرافى يولد غالبا نمط واحدا من الأحداث لسبب الرابطة الاجتماعية المتينة القائمة بين هذه البيئات المذكورة، والغليان الذى تحدثه العادات الجافة أو التمرد الناجم عن ردة التقاليد تعطينا نمطا متشابها من القصة الرومانسية ذات الصبغة الاصلاحية الممزوجة بالتشاؤم الرامى الى اقتلاع المظالم المقيدة لحرية المرأة .

ولما اتجهت القصة القصيرة إلى اصلاح المجتمع والبحث عن حلول ناجحة لآفاته التقليدية تطورت القصة ، وأخذت طابعا جديدا من النمو يحررها من صبغة القصة البدائية التى تنحصر فى منوال الأساطير والمغامرات، وحكايات القدماء الموروثة، ولعل صاحب كتاب القصة القصيرة فى الخليج العربى يمثل خير دليل يؤكد قولى :

يقول : " ان القصة القصيرة فى هذا الاتجاه الاجتماعى تقوم بدعم الدور الاصلاحى الذى تمر به البلاد أكثر مما تقوم بدعم الأصول الفنية للقصة أو ترسيخ تقاليدها فى الخلق والابداع، ولعل هذا أخطر ما قدر للقصة القصيرةفى الخليج العربى أن تمر به وهي فى بدايتها الأولى، فلا غرابة أن تفتقد ، " وهي ضمن رؤيتها الاصلاحية " كثيرا من سمات الفن القصصى الذى تحتاج اليه الأهداف التربوية والتعليمية، أو تحيل أسلوبه إلى عملية اتصال مباشر مع القارىء كما رأينا ذلك فى كثير من القصص السابقة، والعامل الأساسى فى هذا الاتصال الصريح الذى يعلنه الكاتب فى بداية القصة أوخلالها أو فى نهايتها يرجع فيما نرى إلى ارتباط نشأة القصة القصيرة فى الخليج العربى بالدور الاصلاحى خلال فترة واحدة (الاربعينات - الخمسينات) اذ لو أنها نشأت قبل هذه الفترة بزمن لأمكنها أن تواجه الدور بتقاليد فنية و أصول تقنية أكثر ثباتا واستقرارا[1].

ومن ثم نلحظ أن الأدباء فى الخليج العربى والصومال - لكونهم فى منطقةمتجاورة يحركهم شعور موحد فهم يعطون الأولوية للجانب الاصلاحى الاجتماعى، ومع أنهم لا يهملون قواعد القصة ومواصفاتها فانهم كما يذكر الأستاذ غلوم لا يبالون بالأصول الفنية للقصة، والأديب الصومالى " محمد طاهر أفرح " ركز - كما أشرت سابقا - على البحث عن علاج لأزمة البنت المقهورة قاصدا بذلك تعميم الأمر، ويعد هذا الكاتب الموهوب من القلائل الذين أحيت تجربتهم الأدبية الاصلاحية المجتمع الصومالى .

وتسلط قصصه - غالبا - الضوء على الاجتماعيات التى تضطرب بين تقاليد رومانسية وأخرى واقعية .

ومن المستحسن أن لا ننسى جهود " شيكو حرير " الذى خلق نوعا جديدا من القصة المؤثرة فى المجتمعين البدوى والحضرى ، وقد نالت قصته الشهيرة بـ " هُورِى ايو هَبِينْ "

---

(١) - القصة العربية فى الخليج العربى : للأستاذ ابراهيم عبد الله غلوم ص : ١٥٧ .

اعجاب الصوماليين فالقصاص شيكوحرير يبنى قصته بأسلوب شيق يتناول فيه الليالى والأيام الطويلة التى قطعها هورى للبحث عن حبيبته المفقودة ويتحدث عن النار التى يشعلها وسط الغابة الكثيفة ليخوف الأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة ثم يسرد فى القصة هجوم قبيلة سليخة على هورى .

ونستشف من أسلوب " شيكو حرير " نوعا من التطور دخل القصة الصومالية، ولكونه متبحرا فى اللغة العربية فانه ربما تأثر بالقصص العربية التى قرأها .

ووصلت القصة الصومالية المتأثرة بالعربية إلى منزلة لا بأس بها فى السبعينات أى مابين ١٩٧٠ إلى ١٩٧٩ م، ورغم عدم ترحيب الصوماليين بكتابة اللغة الصومالية بالحروف اللاتينية لسبب دينى هو أن الصوماليين يفضلون لغة القرآن على أية لغة أخرى فان كتابة الحروف الصومالية باللاتينية ساعدت نوعا ما فى تطوير القصة الصومالية [1].

وقد اجتازت القصة الصومالية فعلا أطوارها التقليدية وبدأت فى السبعينات تواكب القصص العصرية الحديثة وقد سبق أن أوضحت أن قصة مانفاى عالجت مشكلة اجتماعية سادت الشارع الصومالى وهي استصغار حق الفتاة الصومالية بالزواج المناسب، وقد ساق محمد طاهر أفرح صاحب قصة " مانفاى " قصته بأسلوب رومانسى مؤثر فى جميع أحداث القصة .

أما " أيان درن " وهي من تأليف عبد الله شيخ حسين فانها كانت قصة رهيبة تسلط الضوء على فتاة بريئة لا تفلت من يد صاحبتها التى تغريها حتى تقع فى نهاية المطاف فى فخ الفاحشة فتحمل لقيطا، وتفقد ثقة أصحابها فتصير وصولية تكن وتضمر الحقد للمجتمع بأكمله وتفكر فى الانتقام .

---

(١) - ساعدت الحروف اللاتينية فى كتابة القصة الصومالية وذلك أنها يسرت تأليف القصة بأحرفها للمتعلم وغير المتعلم وكذلك مهدت السبيل للترجمة من اللاتينية الى العربية .

والقصة الرومانسية المعبرة عن أحاسيس الحزن والمرارات التى عانى منها كلا من الشاب والمرأة الصومالية تسيطر على خواطر القصاصيين الصوماليين والخليجيين، وتحدث نوعا جديدا من التطور فى القصة فتتحول من اسطورة بدوية وأقصوصة صوفية إلى قصة فعاله مؤثرة تحرك المناخ الأدبى، وتغطى ثغرات المجتمع بالحلول أو على الأقل بكشف عيوب العادات والتقاليد ذات الصبغة المتخلفة وتستجيب لصرخات المجتمع .

ولقد كان نمو القصة فى كل من الصومال وشبه الجزيرة العربية مرتبطا بالشعور الذاتى للكتاب القصصيين العصريين الفاهمين لمزالق البيت المبجل للتقاليد البدائية، ومايؤثر فى شبة الجزيرة العربية من جمود أو تطور يؤثر بشكل ملموس فى بوابة العرب الصومال وما جاء تحت عنوان صورة الحب الرومانسى من كتاب (القصة القصيرة فى الخليج العربى) دليل قوى لقولى وأعنى أن نمط القصة الرومانسية فى الخليج مطابق لواقع القصة الحديثة فى الصومال .

يقول صاحب الكتاب [1] المذكور :

لقد غمر التيار المعنى بالعواطف الذاتية كتاب القصة الرومانسية القصيرة فى الخليج العربى، فأهتموا كثيرا بالتعبير عن عواطف الحزن والحب وتقلبات الوجدان بين اليأس والرجاء وكما شغلتهم علاقة الرجل بالمرأة فى نظام الزواج، واشتقوا منها مشاعر القلق والخوف والحيرة والخيبة شلفتهم هذه العلاقة مرة أخرى، ولكن فى أقوى العواطف التى يمكن أن تقوم بين الرجل والمرأة، وهي .. الحب .

ويضيف إلى هذا قوله الوارد فى الفقرة الأخيرة من صفحة مائتان وثمانية وثلاثون " وتعبر القصص القصيرة التى عالجت عاطفة الحب بين الرجل والمرأة عن انهيار ما كانت تمثله تلك العاطفة من حلم أثيرى كما عبر عن تداعى مثالياتها المجنحة، إما بقوى غيبية كالقدر

---

(١) ـ سبق ذكره .

أو الصدفة أو أن تداعيها ينبعث من تداعى قيم الفضيلة والشرف فهي بذلك لا تخرج عن تصوير الشعور العارم بالخيبة والانهيار فى هذه الفترة .

والجمود المتسلط على الأسرة الصومالية أو الخليجية أو اليمنية الذى يدفع البنت الى التحدى لضغوط المجتمع الواقف ضد رغبتها فى الزواج بمن تحب ولم يقتصر ذلك على الفتاة فحسب، وانما تؤثر على الشاب أيضا اذ كان يصعب فى وقت غير بعيد على الرجل المتلهف لزواج البنت التى تقنع ذوقه الخلقى والخلقى ـ الجمال ـ تفحص شأنها أو التحدث معها، وما حدث " لخليف جامع " الشاب الصومالى الذىأنهى تعليمه فى بومباى بالهند، ووقع فى فخ الحب فى أثناء زيارة لريف " بورتنلى " المتمسك تمسكا بالغا بتقاليد الماضى، فيسعى جاهدا للتقرب من البنت الجميلة التى رآها فى دائرة البئر فتهرب منه، ويحاول أن يرضى والدها فى مشروع الزواج فيرفض بدون مبرر، ويضطر خليف الى العودة الى " بومباى " بالهند، وهناك يأخذه الغضب والاستياء الى الزواج بامرأة هندية شريرة تمارس السحر فتسكب على رأسه ماء حارا وهو نائم فيموت موتة فظيعة.

وتوحى لنا قصة" الصورة الجديدة" الخليجية لجاسم القطامى نفس الانطباع الذى يساور خليف جامع، ويسرد الأستاذ غلوم فى كتابة السالف الذكر مقطعا من قصة الصورة الحديدة . يقول :

على أن هذا الكاتب ـ ويقصد القطامى ـ فى قصته الصورة الجديدة يعطى مشكلة أثر التقاليد وتحكمها فى الزواج ووضع الأسرة بعدا جديدا لايسبقه أحد من الكتاب، فهو يرى أن هذه المشكلة ستقود الى مشكلة أخرى وهي الزواج من خارج البلاد (الزواج من الأجنبية) كما فعل هذه القصة الذى يذهب الى الدراسة فى الخارج، وحين يرجع الى مجتمعه ويرغب فى الزواج يطلب من والده أن يرى ابنة عمه التى يختارها فيرفض الوالد متذرعا بأن تقاليد الأسرة لا تسمح بذلك، وهنا يسافر الابن الى البلد التى تلقى التعليم فيها، وتعرف فيها على أسرة، وخطب منها بنتا من بناتها، ورجع الى البلاد، ولكن لا يلبث أن يدب الشقاق بينهما نظرا لاختلاف التقاليد حيث ضاقت الزوجة بالقيود الاجتماعية التى لم تألفها، وفى يوم يكشف الزوج وهو فى حالة من حالات الضيق بزوجته صورة لابنة عمه قيدرك كم هي جميلة

تلك التى رفضَ أن يقبلها دون أن يتعرف عليها. [١].

ويسرد المؤلف [٢] فى حديثه عن كتاب القصة الرومانسية قصة " يوم انزال السفن " [٣] ومضمونها على حد قول غلوم . هو كالتالى :

بطلة القصة مريم كانت شديدة الجمال، وأحبت حبا جما بحارا يسمى " عامر " وحيث أن البيئة المحلية لم تكن تتيح اللقاء بين الرجل والمرأة فان كاتب قصة " يوم انزال السفن" يلجأ تخلصا من ذلك الى تصوير الحدث فى القصة من خلال بدء موسم الغوص، ففى هذا اليوم يتجمع البحارة لدفع السفن فى البحر كما تأتى الفتيات على الشاطئ ليغنين ويعبرن عن الفرح ببدء الموسم، وتبدو بطلة القصة هنا وهي تستعد للذهاب الى شاطئ البحر مع الفتيات حيث سيكون هناك عامر، ويجمع هذا الموقف بين انبثاق الحلم الذى يمثله عامر تسلل الحزن الذى ينبعث لها من أعماق يأيسة بسبب عدم اهتمام عامر بها، وما أن تصل الى الشاطئ حتى يستقبلها عامر من بين جميع الفتيات ، ويهيئ لها مكانا نظيفا فى السفينة، ويبدى لها حماسا وحبا فتدهش مريم وتنتابها هزة عنيفة من البهجة والسعادة وتحدث نفسها (سأسجل فى مذكراتى أن أهنأ يوم فى حياتى (يوم انزال السفن) وبذا تستسلم لحلم لذيذ فى اللقاء وتنتظر وهو يدفع مع الرجال السفينة الكبيرة بظهروهم القوية، وفجأة انزلقتالسفينة بسرعة فائقة فوق الاخشاب المدهونة فهوت بمن عليها، وصرخ الرجال والنساء، ولكن تلاشت جميع الصرخات مع صوت مفزع لعامر الذى أصبح جثة مهشمة، ونظرت مريم إليها باهته وهى تردد (مات ... مات ..) ويكون موت عامر بهذه الصدفة الباغتة انهيارا قهريا لحلم الفتاة بعد أن تجسد الحب لديها وتوهج فى قلبها، وتخلص من اليأس وتفتح فى عالم أثيرى يذكرنا بالأجواء الرومانسية العبقة التى جالت فيها بطلات الحب فى الروايات الرومانسية العربية، فهى فى غمرة اللقاء بعامر تستل منه مزمارا (وجعلت تمر به على شفيتيها الرشيقتين فتبرز منه صوتا موسيقيا ساحرا يتفق وأغنية حبيبها عامر وهو ينشد " (هو يا مال) مع الرجال .

---

(١) ـ سبق ذكره.

(٢) ـ القصة القصيرة فى الخليج العربى: أ - غلوم ص ١٥٧ ونشر هذه القصة فى جريدة البحرين سنة ١٩٤٣ م بدون ذكر صاحبها .

ولابد من الاشارة إلى أن هذه القصة تعطى القارىء صورة عن العامل الطبيعى فى الجزيرة العربية فالبحرالمحيط بالجزيرة يزوّدنا بأحداث قصصية رائعة كقصة " يوم انزال السفن" السالفة وبالمثل زود الساحل الصومالى الطويل القصاصين الصوماليين بمزيد من القصص الأسطورية والواقعية التى توحى للأديب المتمرس خيالا عميق الأثر.

وقد لاحظنا أن القصص الشائعة فى مناطق شرق الصومال الساحلية انتجت العديدمن القصص الدالة على أثر البحر فى الأديب القصصى الصومالى، وخير قصة من أقاصيص البحر قصة البحار بشير سعيد الذى توجه مع عمه محمود على إلى عدن باليمن لانزال بضائع مكونة من البخور وجلود النمور والوشق فى مرفأ عدن التجارى .

وفى عدن كانت الفتاة الجميلة " سرير " تقطن مع عمها الصومالى فى حى " معلا" بعدن ، نقلتها والدتها على متن عبارة متوجهة إلى عدن وهي فى الخامسة من عمرها، وقد توفى عمها فى عدن ، وبعد موت عمها عاشت سرير فى كنف والدتها رقية صالح التى تملك مطعما صغيرا بحارة التواهى تبيع فيه القهوة والشاى والحلوى ومشروب النعناع، واعتادت سرير اطاعة وسماع أوامر ونصائح والدتها.

كانت سرير تعلم أن أمها مهاجرة هاجرت من بر الصومال وأنها لا تزال تتابع أخبار الصومال وترحب بالصوماليين القادمين من سواحل شرق الصومال، وفى مساء يوم خميس من ليلة المولد النبوى ١٢ ربيع الأول دخل بشير مع عمه العارف بأحياء عدن ومقاهيها مطعم رقية صالح وفور احتسائهم لمشروب النعناع رأوا سرير تنزل من سيارة البنات المدرسية متجهة صوب مطعم والدتها، وبعيد دخولها للمطعم شرع بشير ينظرها بتمعن ، وأوشك أن يقع من على الكرسى لشدة ابتهاجه بجمال سرير، ونبهه عمه مشيرا اليه بغض البصر، ومنذ ذلك اليوم أخذ بشير يخبر عمه محمود حبه لسرير حسن، وكان حياء محمود وطول أناته يسيطر على مشاعره، فليس بمقدوره أن يواجه أحاسيس بشير وعاطفته الهياجة بالرفض كما يصعب عليه أيضا صلب يد سرير الفتاة الوحيدة لرقية صالح ليزوجها البحار بشير لكن بشير ألح فى الأمراذ لم يزل انطباع الحب راسخا فى نفسه،

بذل قصارى جهده فى سبيل تأجيل سفرهم إلى الصومال، ومادامت العادة لا تبيح اللقاء المباشر بين الرجل والمرأة لبدء حديث غرامى ولو كان مباحا شرعا لم يكن فى وسع بشير الاتصال المباشر بالمنزل الذى تقطن فيه حبيبته سرير، وظلت سرير منذ أول نظرة لها لبشير وهو قابع فى مطعم والدتها تزين نفسها، تنظر دوما إلى مرآتها، تتفحص شعرها وجسمها، تطيب ملابسها بالعطر فهي متشوقة لرؤية البحار الشاب بشير سعيد الذى لا يعلم أن سرير تحبه، وكان بشير يخشى أن تقوض والدة سرير حلمه إزاء طلب يد سرير لكنه عرف أن أم سرير إمرأة متمدينة لطيفة يسهل التفاهم معها فعرض عليها قضيته شارحا لها عزمه على الزواج من بنتها وسرت رقية بطلب البحار بشير وأنبأته بأن سرير لا تنظر رجلا غير البحار الشجاع بشير سعيد وعند سماعه لهذه الكلمات كاد يطير من الفرح، وفى صبيحة اليوم التالى أمرت رقية بنتها باعداد طعام غداء لبشير وعمه محمود واغتنم بشير هذه الفرصة الثمينة، وبعد تناولهم للغذاء قال بشير لرقية صالح سنكون سعيدين إذا تأهبتما أنت وسرير للسفر معنا إلى الصومال فضحكت رقية وعدت كلامه مزاحا ورديا يلطف جو الحديث، وقبل الموعد المحدد للسفر بيومين قرر بشير بعد التشاور مع عمه طلب زواج سوير من والدتها رقية، وبعد ابلاغهم لها بموضوع الزواج سألت رقية ابنتها البارة سرير ، هل ترضى بذلك أم لا ؟

ولم تتردد سرير عن الموافقة، وفى المساء حضر المدعوون لحفل الزواج وقرأ المأذون الدعاء، وعمت الزغرطة والفرحة منزل رقية صالح وهكذا تحركت سفينة البحار بشير مطمئنا بزوجته الشريفة ، وفى رفقتهما عمه محمود وبعض المسافرين متجهة صوب الصومال، ولما اقتربت السفينة من ميناء بوصاصو اهتزت وربت إذ هبت عاصفة عاتية جعلت السفينة كورقة فى مهب الريح، وصارت الأمواج تحيطها من كل الجهات، وركز بشير كل اهتمامه على سرير التى أقلقها الهلع حين رأت الخطر المحيط بهم، وبذل بشير وعمه قصارى جهدهما للحيلولة دون غرق السفينة، لكن السفينة لم يكتب لها النجاح فغدت حطاما بلا أثر وشاء الله أن يصبح سرير وعم البحار من الناجين القلة الذين وصلوا إلى شاطئ السلام بوصاصو بمعاونة بعض الصيادين الطيبين، ولقى بشير حتفه فى ظلمات البحر متأثرا بضربة سمك القرش لبطنه.

ب - نماذج من القصة الصومالية المكتوبة بالعربية

القصة العربية في الصومال لم تنل حظها في التأليف والنشر بقدر ما ناله الشعر، كل ماروته الصوماليون من قصص وحكايات متنوعة كانت تروى باللغة الصومالية كما أشرت سابقا.

و يبدو جليا أن كل شيء يتعلق بالقصة كان مرهونا أو بالأحرى كان مشروطا بالكتابة والكتابة قيد - كما قيل - وبامكاننا أن نشير هنا إلى أن العامل الذي هيأ المجال لظهور قدر بسيط من الأعمال القصصية الروائية التي تؤكد لنا وثوق علاقات الصومال بالوطن العربي واضح فقد ظهرت قصص البحارة ومغامراتهم العديدة في ساحة الأدب الصومالي - القصصي - رد على هذا أن التغييرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع خلقت جوا قصصيا كاد يرفع مستوى القصة العربية المكتوبة بالعربية وقد أدى الجو القصصي الجديد الى الاهتمام والاقتباس من أول قصة عربية[1] برزت في الصومال وهي قصة شيقة سميت بـ " قصة الملاح الغريق في أرض الصومال " ونشرت هذه القصة في كتب أدبية وتاريخية عربية وانجليزية أذكر منها كتاب الصومال قديما وحديثا، واذا أمعنا النظر في مفهوم القصة العربية القديمة في الصومال ندرك أنها أثرت قصص المغامرات البحرية الحديثة ومع تباين قصص العصرين القديم والحديث نقر أن قصة المغامرات القديمة كقصة الملاح التي أمامنا وغيرها هيأت للقصاصيين الصوماليين طريقة كتابة القصة العربية المعاصرة، وفيما يلي قصة الملاح الغريق في الصومال :

لقد سافرت إلى منجم الملك فركبت البحر في سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا، وفيها ١٢٠ من أحسن ملاحي مصر، وقد شهدوا السماء وشهدوا الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من

---

(١) - هي قصة الملاح الغريق في أرض الصومال في ص ٣١٤ من كتاب الصومال قديما وحديثا وكما يذكر صاحب هذا الكتاب حدثت هذه القصة لسيد شريف عاد من الصومال ويصور فيها مظاهر الحياة في الصومال .

قلوب الأسود، وكانوا يتنبأون بالعاصفة قبل ثورتها وبالزوبعة قبل هبوبها على أن العاصفة عصفت وكنا لا نزال فى البحر قبل أن نرسو على الأرض عصفت بالسفينة فقبضت على قطعة من الخشب تعلقت بها، ومات كل من كان فى السفينة سواى، ولم يبق منهم أحد فألقتنى موجة من البحر على جزيرة فيها قبضت ثلاثة أيام وحدى لا زميل لى غير قلبى، وقد قمت أبحث عن الطعام لنفسى فوجدت تينا وعنابا وسائر النباتات والثمار العظيمة والأسماك والطيور ولم يكن هناك شئ لم يكن موجودا فيها فأكلت حتى شبعت وتركت ماكنت قد أفرطت فى أخذه لنفسى ثم أخذت زندا وأشعلت نارا وأحرقت قربانا للآلهة .. وعندئذ سمعت صوت رعد فظننت أنها موجه البحر ولكن الأشجار تحطمت وزلزلت الأرض ولما كشفت عن وجهى وجدت أنها حية تقترب، وكان طولها ثلاثين ذراعا وكانت لحيتها أطول من ذراعين، وكان جسمها مموها بالذهب وحواجبها من الاردواز الحقيقى وكانت تتلوى إلى الأمام ثم فتحت لى فمها وأنا راقد أمامها على بطنى، وقالت لى من أتى بك إلى هنا أيها الصغير .. ؟ ان لم تقل لى فى الحال عمن أتى بك الى هذه الجزيرة فسأجعلك تفيق ثم تحرق حتى تصير رمادا وتستحيل إلى شئ لا يرى.

ثم أخذتنى فى فمها وجذبتنى إلى جحرها حيث وضعتنى بغير أن تمسنى وقد بقيت سليما دون أن ينقص منى شئ ثم فتحت لى فمها فانبطحت على الأرض وقالت من أتى بك إلى هنا ؟ من أتى بك الى هنا أيها الصغير ؟ ومن أتى بك الى جزيرة البحر هذه التى يقع شاطيأها فى الماء فأجبتها وذراعاى مثنيتان أمامها .. لقد سافرت إلى المناجم بأمر الملك فى سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا، وكان فيها ١٢٠ من أشهر ملاحى مصر .. لقد شهدوا الأرض وشهدوا السماء وكانت قلوبهم أثبت من قلوب الأسود، وكانوا يتنبأون بالعاصفة قبل ثورتها وبالزوبعة قبل هبوبها وكان كل منهم يفوق الآخر ذكاء قلب وقوة ذراع، ولم يكن بينهم خامل ولكن العاصفة عصفت وكنا (لانزال) فى البحر قبل أن ترسو السفينة على الأرض واشتدت الريح .. وكانت معها موجة (ارتفاعها) ٨ أذرع (فقبضت) على قطعة من الخشب ومات كل من كان فى السفينة غيرى ولم يبق منهم أحد سواى أنا الذى أقف أمامك وقد جاءت بى موجة إلى هذه الجزيرة .. فقالت لى لا تخش شيئا أيها

الصغير لاتخش شيئا. لا تهتم (؟) بعد أن أتيت إلى .. ها قد منحك الاله الحياة لقد جاء بك إلى جزيرة الأرواح هذه التى يوجد فيها كل شيء يمكن تخيله والملأى بكل شيء طيب ، معا سنبقى شهرا بعد آخر حتى تنقضى أربعة أشهر فى هذه الجزيرة، وستأتى سفينة من العاصمة وفيها ملاحون يعرفونك وستعود معهم الى العاصمة، وستتحدث بقصتك فى مدينتك لشد ما يبهج المرء أن يقص ما قلفاه بعد أن يكون البؤس قد انقضى ، لذلك سأقص عليك شيئا مماثلا فى هذه الجزيرة ، فقد كنت أعيش فيها مع اخوتى وكان بينهم (أيضا) أولاد وكنا جميعا ٧٥ حية منهم أولادى وأخواتى عدا ابنة امرأة شامية جاء بها القدر (؟) وقد حدث أن هوى نجم فاستحال به هؤلاء (أى أقارب الحية) الى لهب ولم أكن وقتئذ بجانبهم فاحترقوا، ونجوت لأننى لم أكن بينهم وقد كدت أموت حزنا عليهم عندما وجدتهم كومة واحدة من الجثث وأنت إذا بقيت صابرا فانك ستعانق أولادك وتقبل زوجتك وترى دارك مرة ثانية وهذا من كل شيء، وانك سترجع إلى العاصمة وستعيش فيها وسط اخوتك .

عند ذلك انطرحت على بطنى ومسست الأرض أمامها وقلت لها سأقص على الملك نبأك هذا وسأخبره بعظمتك وسأجعل الناس يجلبون لك زيتا.

أب وحكن وأديب وحاست من أنواع البخور وبخور المعبد الذى يسر جميع الآلهة ..... سأقص ما حدث لى وسيقدم لك الشكر أمام البلاد بأكلها وسأذبح لك الماشية قربانا وسأذبح لك الوز وأجعل السفن تجلب إليك من سائر خيرات مصر، كما يضع الانسان للاله الذى يحب الناس وهو فى بلد بعيد لا نعرفه .

عند ذلك ضحكت على ما قلته وقالت لي وفى قلبها سخرية ليس عندك مر ولا أنت أصبحت مالك البخور، ولكننى حاكمة "بونت" "الصومال" وأملك المر، أما زيت حكن ذلك الذى تريد أن تجلبه الى فانه أعظم شيءفى هذه الجزيرة ولكنك عندما ترحل من هذا المكان فانك لن ترى هذه الجزيرة مرة أخرى لأنها ستصير ماء .

ولقد جاءت السفينة كما تنبأت فذهبت وصعدت على شجرة عالية وتبينت من كان فيها ثم ذهبت لأخبرها فوجدتها تعرف ذلك وقد قالت لى: لترجع سالما، لترجع سالما الى دارك أيهاالصغير، وسترى

أولادك من جديد ولكن اجعل لى اسما حسنا فى بلدك هذاماأطلب منك.. عنيد ذاك انبطحت على بطنى أمامها وذراعاى مثنيتان فأعطتنى حمل سفينة من المر وحكن وأديب وحاست ومن خشب تشيص وشعاش ومن أصباغ الوجه وذيول زراف وكرات كبيرة من البخور ومن أنياب الفيل وكلاب الصيد وقردة ذات ذيول طويلة وسائر أنواع الأشياء الثمينة فحملتها على هذه السفينة .

وعندما انبطحت أرضا شكرا لها قالت لى .. ستصل العاصمة بعد شهرين .. وستعانق أولادك وسترجع شابا، وستدفن هناك وهبطت إلى الشاطئ حيث كانت هذه السفينة وصحت على الجنود الذين كانوا فى هذه السفينة وشكرت لها وهى على الشاطئ من هذه الجزيرة، وشاركنى كذلك أولئك الذين كانوا فى السفينة وقد أبحرت شمالا الى مقر الملك ووصلت العاصمة فى شهرين تماما كما ذكرت الحية ثم دخلت على الملك وجئت له بالعطايا التى أحضرتها من هذه الجزيرة وقد شكرنى على الملأ من موظفى البلاد كلها بأكملها " .. .

هذه القصة التى يعتقد الكثير من رواد الأدب فى الصومال بأنها أول قصة عربية دخلت الصومال ربما ترجمها أحد أدباء مصر القدامى العارفين بالكتابة الهير وغليفية فى العصور الغابرة، ونفهم من عباراتها وألفاظها بل ومن موضوعها العام وصفا كاملا للرخاء أو الترف الذى ساد الصومال فى العصور القديمة . فحديث صاحب القصة عن حمل سفينة من المر ، وحكن وأديب وحاست [٢] (آحشاب وشعاش وصباغ الوجه وزيول رزاق وكرات كبيرة من البخور زأنياب الفيلة وسائر أنواع الأشياء الثمينة توحى الينا بنوع من التقدم القصصى فى عصر وجدت فيه القصة جوا قصصيا ملائما تسوده النعم الوفيرة التى تحرك قلم الأديب البارع الموهوب القادر على وصف ما يراه من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، ومع قدمهذه القصة نُدرك أنها تغرس فى ذهن القصاص الصومالى البدوى الذى لا يعرف الا ما تمليه عليه بيئته البدوية من من خيال وتأملات نحو منظر الصحراء والابل وتضفى طابعا جديدا من الفن القصصى المرتبط

---

(١) - نوع من البخور يصدر إلى الخارج .
(٢) - أنواع ممتازة من البخور الصومالية وتنطق بـ حجى وبيدى .

بالظواهر الحضارية كالساحل والسفينة والعاصمة وأصناف السلع والبضائع المذكورة في القصة التي بين أيدينا ونستنتج من مفهوم هذه القصة فوائد جمة تعرفنا قدرا لا بأس به من القواعد الفنية للقصة الأسطورية القصيرة كما يذكرها صاحب كتاب " الصومال قديما وحديثا " في شرحه التالي :

في القصة عنصر الخيال لجذب أنظار وعطف الملك والشعب وفيها رموز الغرض منها أن تكون عناصر تشويق، وبجانب هذا وصف لأخطار السفر وطول الرحلة (شهرين) ومهارة الملاحين في الأرصاد والملاحة، والشجاعة .. ووصف لبلاد الصومال بكرم الضيافة والحماية للأجانب وتعبير عن العلاقة الروحية بين مصر والصومال وفض النزاع الذي بين أبناء البلاد (في الصومال) حينما وفدت عليهم قبيلة أخرى (امرأة) وأحدثت الفتن والنزاع فهلك الكثير مما أثر في نفسية (الحاكم) للبلاد حتى انه شعر بنهاية حياته عقب عودة الملاح الغريق(ستصير الجزيرة كالماء) أي البلاد ستكون بلا حاكم وتدل على براعة الصوماليين في التنبؤ، ويؤكد ذلك الملاح الغريق بقوله:

" وصلت العاصمة في شهرين تماما كما ذكرت الحية (الاسم المستعار للحاكم على أرجح ما نرى) كما أن فيها تعبيرا عن الكرم الصومالي إذ عادت السفينة إلى مصر محملة هدايا الصومال من أنواع البخور والمر والزيت (أب وحكن وأديب وحاست) ومن أصباغ وذيول الزراق وأفياب الفيلة والقردة وسائر أنواع الأخشاب الثمينة، ومما يؤكد هذا أن هذه المنتجات تمثل عنصرا هاما من عناصر الانتاج في الصومال في أيامنا هذه رغم مرور أكثر من خمسة آلاف عام ، وما زالت هذه الحركة التجارية قائمة بين مصر وارثة مجد الفراعنة والجمهورية الصومالية وارثة حضارة بونت القديمة . ومن ثم نتأكد أن القصة هنا استخدمت عناصر الخيال والتشويق والوصف الرائع والأسماء المستعارة والرموز، وكلها صفات تمثل عناصر الفن القصصي المنشود ، وقصة الملاح الغريق حسب شرح وتوضيح الكتاب السابق الذكر محفوظة حاليا في احدى برديات الدولة الوسطى في بطرسبرج .

وإذا حاولنا فهم المزيد من القصة العربية الصومالية نصل إلى نتيجة تبرهن لنا على أن القصة

العربية المعاصرة فى الصومال توجهت إلى الاصلاح بكل أنواعه والى بحث الحلول الناجعة التى تعالج ثغرات المجتمع، وكما أشرت فى باب سابق من هذا البحث لم تكن هناك ثغرة أو سقم أخطر من الاضطهاد الذى تعانيه المرأة الصومالية وذلك أن المجتمع الصومالى بدوه وحضره ظل منذ مدة يرى المرأة بمنظار الاستصغار، وقد أكد بعض التربويين الصوماليين أن أعدادا هائلة من المرهقين والمراهقات ينأون أحيانا عن الحياة الهادئة فى البيت الذى لا ينعم بحنان الأبوة وتلجأ الى حياة الصخب والفوضى فى الأزقة وأرصفة الطرقات والملاهى بحثا عن أصدقاء يأتنسون بهم أو يقتدون بسلوكياتهم وهنا يحدث مرات عديدة سوء اختيار المراهق أو المراهقة للصديق أو الصديقة، يقع الولد فى شرك صديق متمرد أغوته نزواته وهيجته كوامن شهواته ويكون بهذا قدوة سيئة لزميله، وكذلك قد تكون الفتاة فريسة لبنت خليعة تقودها إلى الدعارة والى كل منكر يضر بسمعتها فتجد نفسها فى مأزق خطير لا تستطيع الخروج منه فتفكر فى الانتحار وهذا ما نراه فى القصة التالية:

نشأت " جِيْبِيلُو " فى بادية من بوادى الصومال ... وتربت فى أحضان والديها " حند لى " و " حدية " اللذان كانا يكنان لها الحب العميق والعاطفة الأبوية المخلصة المعروفة عند كل والد و والدة .

وكانت جيبيلو فتاة ذات جمال وبهاء يظن كل من ينظر إليها أنها واحدة من حور العين ، فشعرها المسترسل الشديد السواد وعيناها الذهبيتان ولونها الأسمر المائل إلى البياض وجيدها الممتلئ ورونق شكلها البراق الذى يعبر عن اكتمال أنوثتها يعطى كل شخص يقدر تقييم الجمال صورة حية تجعله يقر ويعترق بأنها وردة زمانها وجوهرة جيلها ولؤلؤة من لآلئ "بارجال" النادرة .

لقد كانت البيئة البدوية التى ترعرعت فيها " جيبيلو " تزيد جمالها على جمال، فقد شاهدتها لأول مرة فى إحدى شرع غابات " بنبار " فى موسم نثر الربيع دره .. كانت تمشى بين الأشجار الخضراء الباسقات الطول، تلك الأشجار المورقة التى تغطيها الزهور الزاهية

التى تعطر القلوب وتجتذب رؤية الأنام .. رأيتها والعشب يلمس قدميها ويديها كأنه يريد مصافحتها.

لقد كانت حيبيلو فى تلك اللحظات تلتفت يمنة ويسرة وكأنها فقدت وديعة ستحاسب عليها إذا ضاعت ثم خلت أنها تبحث عن دابة مفقودة أو ماشية تاهت فى الغابات الكثيفة، وازداد اعجابى حينما رأيتها تخفض رأسها ثم ترفعه وتصورت أنها تستمع إلى صوت لا أدرى ما هو ذلك الصوت ... !

كان هناك شارع ترابى قريب من مخيم حيبيلو تمر به السيارات ويربط ذلك الشارع بادية " بنبار " بمدينتى " حدر " و " مقدشو " العاصمة وما بينهما، وبدون قصد اقتربت إلى الطريق الترابى، وجلست تحت شجرة وارفة الظل تقع بجانب الطريق، وبعد دقائق من الاستراحة فتحت اناء حليب الابل الذى كان فى حوزتى، وفى أثناء الشرب سمعت من بعيد صوت سيارة فخاطبت نفسى قائلا : أهذا هو الصوت الذى كانت تستمع إليه حيبيلو ! كيف تسمعينه ولم أسمعه قبل هذه اللحظة ؟ ألها حاسة سمع أقوى من حاستى السمعية ؟ وبينما أنا منهمر فى هذه الجو من التساؤلات والدهشة وصلت سيارة إلى مكان قريب من شجرتى ووقفت لأشاهد النازلين منها والراكبين فيها، وفجأة وقع بصرى على خالة حيبيلو التى تدعى بـ " حليمة " تنزل من السيارة وهي تحمل حقيبة كبيرة على ظهرها، وما هي الا ثوان حتى سمعت صوت حيبيلو يعلو ويخرج نداه من الغابة قائلة : ياخالتى العزيزة .. حليمه .. حليمة فهمت من صوتها أن نبأ وصول خالتها كان معلوما عندها، وأدركت أن الشوق يعتريها لمقابلتها، ولكننى لا أدرى ! ولا أستطيع أن أقيس هذا الشوق الزائد عن الحدود العاطفية المألوفة، ولمحت بسرعة حيبيلو وهي تعانق خالتها وتكرر المعانقة المعروفة عند أهل البادية، وظهرت الابتسامة على شفتيها وحملت حيبيلو حقيبة خالتها على ظهرها وتوجهتا إلى حيث المخيم، ولما غربت الشمس بهر ضوء المصابيح فى جميع مخيمات بنبار، وكان مخيم آل حيبيلو المع المخيمات، وتجمعت حوله الآنسات والسيدات، وطال الحديث بين حيبيلو وخالتها وأوشكت حيبيلو

أن تسافر وحدها إلى مقدشو بدون انتظار سيارة الغد المارة على الطريق المجاور لشدة الفرح وذلك عندما أخبرتها خالتها بأن والدها حندولى يطالب مجيئها - أى حيبيلو " إلى مقدشو كى تتعارف بابن عمها " حكار " الذى سيعود من روما فى العاشر من ديسمبر ١٩٧٩م بعد اتمامه لأكاديمية عسكرية فى ايطاليا.

وفى اليوم التالى سافرت حيبيلو مع خالتها حليمة إلى مقدشو، وهناك نزلا فى بيت عمها " حنن " والد حكار حيث يقيم والدها أيضا.

لقد كانت حيبيلو مصابة بدهشة تجاه المجتمع الجديد مجتمع المدينة ولم تستطيع أن تندمج فيه بسرعة فلم تعد تشاهد الغزلان والخرفان وتتنسم بشذا البادية وأريجة المريح، ووجدت الدخان قد حل محل الشذا ولاحظت أن الفجوة كبيرة بين بيئتها والبيئة الحضرية الجديدة عليها، فهذه المدينة الكبيرة مليئة بالضوضاء والضجيج وينعدم فيها الهدوء الذى عرفته فى البادية.

كانت تنزل أحيانا إلى السوق مع بعض الخادمات لشراء الضروريات فتكاد تدهسها السيارات وتصدمها لا ستغراقها فى المشاهدة ولا ندهاشها من السيارات الفخمة والمبانى الشاهقة والشوارع المعبدة وعربات النقل الضخمة ثم تصيبها الحيرة وتتضايق عندما تنظر هذا الزى العجيب الذى تلبسه بنات مقدشو، فالفستان القصير، والحذاء الرفيع والملابس المزركشة تثير دهشتها لأنها عاشت فى بيئة بدوية بريئة لا تعرف الزخرفة ولا الزركشة ولا يعمرها الضجيج والضوضاء ومن أغرب ما لاحظته حبيلو الهوة الكبيرة بين الشباب المراهق فى الحضر والبادية، فالمراهقون فى البادية ملتزمون بالتراث ولا يغمزون العين إذا رأو بنتا كأبناء الحضر، ولا يحركون ألسنتهم لمخاطبة الفتاة بطريقة عارية من الحياء، ولم يكن من عادة شباب البادية الطيش وتجاوزالحد راستهلال الكلام الوجدانى أو الغرمى فى مخاطبة الفتيات اللائى لا يعرفونهن أما أبناء الحضر فكل شئ بسيط عندهم، ومفهوم السعادة فى المدن مخالف لمفهوم السعادة عند أهل البادية فى الصومال وتقييم البنت فى البادية واحترامها - حسب رؤيتى - ليس كتقييم أهل المدن ، فالبنت

فى البادية لا يواجه مصيرها الزوجى غالبا أى خلل أو كابوس بينما الفتاة فى المدينة معرضة كثيرا إلى خطر الوقوع فى فخ الفضيحة .

وهكذا ظلت العفيفة حيبيلو أسيرة بين مجتمعين متباينين فى الجانب الاجتماعى، وغدت المدينة التى كانت بالأمس القريب نموذجا جيدا ومثالا رائعا لسكان البادية تتأثر بسلوك مثيلاتها فى مقدشو - العاصمة الكبيرة - وشرعت تلبس كما يلبسْ وتمضغ العلكة أو اللادن كما يمضغن وتمشى بطريقة تماثل مشيتهن مقلدة اياهن ولكنها رغم تأثرها بكل هذه الأمور لم تزل متمسكة بحشمتها واعتزازها بنفسها وبشرفها وتترفع على مرافقة المراهقين من الشباب، وفى الموعد المحدد لمجئ ابن عمها " حكار " بُتَهِيَا والدها للاستعداد إلى ذهاب المطار، فتأهبت وتحركت السيارة المقلة بـ " حلبيلو " ووالدها وعمها وزميلاتها إلى المطار، وبعد وهلة قصيرة من الزمن وصلت طائرة " اليطاليا " الفخمة وهبطت بمطار مقدشو الدولى ،وكان "حكار " أول من ينزل من الركاب، وتبودلت المعانقات بحماس ولهف ولكن الخجل كان يخالل حبيلو، وعندما أراد حكار أن يعانقها تراجعت قليلا إلى الخلف واكتفت بمديدها اليه لتصافحه وهي تخفض رأسها حياء لأنها لم تتعود هذه المعانقة وقال " حكار " مندهشا: عجبا لابنة عمى.. لماذا تستحي منى لماذا ؟ لم ترفضين قبلتى الودية ؟ ولم يرد أحد عن استفهاماته التعجبية هذه لأن الكل يفهم الفرق الشاسع بين شاب قدم من ايطاليا وفتاة جاءت من بادية بنبار، وتوجه الجميع صوب السيارة ووصلوا الى حي " هدن " حيث المنزل، وبعد تناولهم طعام الغذاء خرج حكار بسرعة خاطفة، ولم يعرف أحد من ذوية إلى أين ذهب ؟

كان حكار ضيق الأفق فى التفكير ولم يكن ينظر إلى الأمور نظرة الإنسان الكيس المتبصر، فقد فضل زيارة صديقته على زيارة أهله وأقاربه، وكان فى حقيبته مجموعة من المجلات الجنسية التى اشتراها من أسواق (روما) وطفق يوزعها على بعض زملائه من الشباب، وحدثت الفاجعة الكبرى عندما منح حكار شابا وسيما فى أوج سن المراهقة مجلة جنسية مليئة بالصور المتباينة الخليعة يدعى ذلك الشاب " حيلديد " وكان من الذين أوقعهم الشيطان فى حبائله المتينة وشباكة الحديدية لا ينام بدون ممارسة سلوك فاسد غير شرعى، ولا تحلوله الحياة إذا لم يتحدث

مع مراهقة جميلة فى كل لحظة وكان مأوى " حيلديد " قريبا من المنزل الذى تقطن فيه حبيلو ولهذا كان يتابع أخبار حبيلو ويجرى وراءها ولكنها كانت تطرده .

وبعد مدة من الزمن تمكنت احدى صديقات حيلديد أن تصطاد البريئة حيبيلو، ونصبت لها كمينا شيطانيا إذ استطاعت أن تغريها بصور احدى المجلات الجنسية الفاحشة، وكعادة غالبية البشر ثارت غريزة حيبيلوا الشهوانية وانخدعت بثرثرة صاحبة حيلديد وأخذت الصديقة الشريرة حبيلو بسيارتها الصغيرة لتقدم حبيلو إلى حيلديد، وبهذه السهولة أضحت حبيلو العوبة فى يد حيلديد بعد أن حطم أنوثتها وداس على سمعتها، وحملت حبيلو لقيطا وقررت قبل انجاب اللقيط الانتحار ولم يكن يعرف قرارها المؤلم الا صديقة حيلديد الشريرة وفى الخامس من يناير ١٩٨٠ م أعدمت نفسها بعد احتسائها بكوب من السم القاتل وعثرت بلدية مقدشو على جثتها وسط ظلام دامس فى طريق ضيق بحي هودن، وعلم حكار بالأمر وتيقن بأن صديقه حيلديد كانت سببا فى انتحار ابنة عمه حبيلو، ولم يفكر حكار بطريقة عقلانية فحلف أمام ملأمى الناس بأنه سيثأر لابنة عمه وينتقم فتوقع الناس بأنه يقتل حيلديد. لكن انتقامه أصبح انتقاما جنسيا اذ فعل بأخت حيلديد نفس الفعلة الخبيثة التى فعلها حيلديد بابنة عمه، وتفاقمت المشكلة عندما طالب والد حيلديد تزويج بنته لحكار للتستر، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض من قبل والد حبيلو وعمها حنن وكان ردهما : (وجزاء سيئة سيئة مثلها). واحتدم الصراع بين آل حبيلو وحيلديد إذ قتل حكار والد حيلديد الذى حاول أن يجبره على زواج ابنته، وزادت هذه الجريمة ضراوة الانتقام وشراسته .

ونستنتج من مضمون هذه القصة أن المغزى الرئيسى منها هو كشف وفضح المعاملة السليبة والاغراء الفاحش الذى لجأ اليه المحرضون للرذيلة للفتك بالبنت البريئة التى تأبى أن ترضخ لحبائل الشيطان ومصائده . فذكر مشهد الصديقة الشريرة التى تقود حيبلو إلى مستنقع الفساد يمثل عنصرا فعالا فى القصة، والهدف الرئيسى من ابراز دورها السلبى هو اعطاء المجتمع صورة جلية عن ضخامة وفداحة جرم القوادة أينما كانت ، وإذا كانت المجلة

الجنسية فى هذه القصة أم الفتنة التى أشعلت نيران الحرب بين أسرة حبيلو وحيلديد فان دور الصديقة الشريرة هنا يمثل العنصر المحرك للرذيلة وخطورتها لا تقتصر باغرائيها وتركها حبيلو بين يدى شاب ساقط، وانما تشجيعها للشاب أيضا على ممارسة الفساد يعد موقفا يخلق الفساد وسط الأسر والعشائر المسالمة، ونلاحظ كذلك فى القصة أن السلاح الذى استخدمته صديقة الولد الساقط حيلديد " المجلة الجنسية ليحقق أغراضه البذيئة ومراميه الضالة إذا عرف المراهقون والمراهقات اللائى يتخذن منه ملاذا لمزاولة المعاصى ومخاطرها الفتاكة ويتضح لنا أيضا أن المجلة الفاسدة لا تتوقف شراستها على تدمير بيت كبيت حبيلو وحيلديد وحدهما، ولكنها تؤدى إلى تدمير بيوت أعداد هائلة من العشائر، وربما لا تتوقف نكبتها عند هذا الحد بل تسبب حربا أهلية بين قبيلتين، لذا يبدو لنا أن هذه القصة تمثل لنا نمطا جديدا من الاصلاح المنشود. فى القصة الاجتماعية .

واذا كانت القصة الصومالية فى الماضى تسلط الضوء على قصص السير أو الأساطير الشعبية فانها فى مثل هذه القصة الآنفة الذكر تتطور وتحاول بقدر الامكان معالجة رذيلة تضر بالمجتمع وتقوده إلى الثبور.

وثمة نقطة مهمة يستحب ذكرها، وهي أن أوجه التشابه بين حبيلو و " نفيسه " المذكورة فى قصة بداية ونهاية لنجيب محفوظ .. متقاربة، فالمطربة نفيسة التى تذوقت مرارة الدنيا بسبب وقوعها فى فخ الدعارة وحبيلو المسكينة كلتيهما تتعرضان للاغراءات والوساوس الشيطانية، وتنتهى حياتهما بنهاية مأساوية، واختلاف طريقة الانتحار بين نفيسه وحبيلو لايعنى تباينا فى هذا المشهد ... فهذه نفيسة تحتضر كما يصفها نجيب محفوظ ...

« تقطع الأرض قدما قدما حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن المسير، ورفعت رأسها وأجالته فيما حولها ثم استدرات نحو السور والقت ببصرها إلى الماء المصطخب الجارى .. فألقت بنفسها أوتركب نفسها تهوى، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء تمثل لعينى المبتلى بسماعها وجه الموت، لكنها ضاعت فى صرختها »[1].

(١) ـ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ من كتاب بداية ونهاية لنجيب محفوظ.

والمشهد الثانى الذى يكاد يوحد أوجه التشابه بين القصتين هو موقف حسنين أخ نفيسه الذى يعيش فى حالة من الاضطراب الذهنى حينما يخبره الضابط بأن أخته ضبطت فى بيت فساد بالسكاكينى..

يقول محفوظ عن شأن حسنين : " ولبث حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرهبة، كيف تنتهى هذه المحنة ؟ وكيف أخرج منها .. أيمكن حقا أن يسدل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عيشا لا طائل تحته ؟ انى أختنق .

إن الماضى لا ينمحى ولكنه يسابق مستقبلى .. لماذا لا يعيش بلا مبالاة ؟ قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا .. لا داعى للتفكير مطلقا.. ما أشد عذابى ، كيف أتغلب على هذه التعاسة كلها "(١).

وندرك من خلال اطلاعنا على مأساة (حبيلو) أنها تحتسى السم، وتعثر الشرطة التابعة لبلدية مقمدشو على جثتها الهامدة فى زاوية ضيقة.

والندم أو الحزن الذى ساور حسنين حين رأى أخته نفيسة قد وقعت فى كمين العيب مازج أيضا هذا الكرب ببال أخ حبيلو (حكار) إذ لم يستطيع حكار التحكم فى نفسه عندما علم أن أخته حملت لقيطا .. واستخدم كما لاحظنا فى القصة أسلوب الترهيب والتهديد واعدا بأنه سيثأر لأخته.. ومن ثم يتجلى لنا مدى تأثر القصة الصومالية العربية المعاصرة بالقصص العربية الحديثة، وهذا النوع من القصة الاجتماعية أحيا الأسس الفنية للقصة العربية فى الصومال، وظلت تعالج المظالم والاضطهادالذى تعانى منه الفتاة الصومالية، وربما كان سبب بروز الظواهر الابداعية الجديدة فى منتصف السبعينات الاحساس الشديد بالمواقف السلبية التى

---

(١) ـ ص ٣٦٥ من كتاب بداية ونهاية لنجيب محفوظ .

يتخذها الرجل حيال الفتاة، والحقيقة التى لا يخالها أى ريب هي أن القدر الضئيل من القصص الصومالية العربية التى تعالج الرذائل برزت فى الصومال متأثرة بقصص القصاصين العرب المحدثين الذين اقتبسوا الجوانب المفيدة من الحضارة الغربية وأعنى أنهم انتهجوا نهج القصة الأوربية ذات النزعة الفردية التحررية التى تنادى بفك الحصار عن المرأة المتشوقة لكسر أعمدة الجمود الفكرى، ولم تكن القصة التى أسميتها بـ " جريمة مجلة جنسية " حصيلة صراع أدبى يخل أو يخالف الجانب الروحى الذى يلزمنا دائما التقيد بالضوابط فى أثناء تناولنا لموضوع كموضوع الدفاع عن حقوق المرأة .

والقصة التالية التى أقر بأنها تفتقر إلى بعض سمات ومميزات القصة الحديثة بسبب حداثة عهدها وبزوغها فى بيئة لم تبال بالكتابة العربية المتطورة بالشكل المناسب تبرهن للمهتمين بالاصلاح الاجتماعى القصصى على أن المرأة رغم احرازها ونيلها بعض حقوقها ما فتئت فى بعض المجتمعات كمجتمعنا البدوى تئن تحت تهديد وغطرسة الرجل المتعصب وها هنا قصة " بيلن وبناتها الخمسة " :

أرادت بيلن ـ الفتاة الصومالية ـ المتواضعة أن تتأسى بأسماء بنت أبى بكر، وخديجة بنت خويلد والشيماء ولبابة الكبرى .

نشأت بيلن فى بيئة رعوية، رباها والدها ياسين فأحسن تربيتها وعلمها القرآن وقدرا كافيا من أحاديث الرسول (ص) وكان يقول لها: أريد أن أراك قوية غطريفة، واعلمي أن القوة إذا اجتمعت مع الشرف فى كفة ميزان فلا يمكن أن تغلب هذه الكفة .

وكانت بيلن ملتزمة بأوامر ووصايا والدها ولم تخالفه فى يوم من الأيام، وصارت بيلن مثالية فى مجتمعها، وغدت أسوة حسنة لكل بنات جيلها، وتعززت علاقة بيلن مع أهل الخير، وتمنى كل رجل عظيم أن يتزوجها حين تبلغ سن الرشد.

ومرت الأيام واكتمل عمر بيلن ، وازدادت نضجا فى العقل وبهاء فى الجمال وحسنا فى الخلق وبلاغة فى الكلام، وكان فى منطقة " بورحكبه " التى تعيش فيها بيلن رجل جبار يُعرف بـ " جيدى

بابو " يتحرش بالنساء ويبطش بهن ، ويأمر جنوده أن يحضروا إلى وكره كل بنت بالغة فيعتدى عليها ويسيء إلى سمعتها ثم يطلق سراحها كما يطلق الابل بعد أن اختلط الحابل بالنابل .

وذات يوم علم أحد عيون جيدى بابو أن بيلن تقطن فى بيت والدها القريب من مقر اقامة جيدى، وأسرع الرجل ليخبر جيدى أن بنتا جميلة موجودة فى بيت والدها ياسين، وبعد سماع جيدى لمخبره أمر باحضار بيلن، ولما علم أهل بورحكبه أن جيدى يريد أن يلطخ شرف بيلن اجتمع صناديد المنطقة ومغاويرها فى بيت ياسين وتعالت الأصوات فى المنزل، وتأهب ياسين ومن حوله من الأحباب للدفاع عن كرامة بيلن ، وقبل وصول جنود جيدى قَدَمَ رجل يسمى "باربى" إلى ياسين حصانا قويا، وتم انقاذ بلين بذلك الحصان وخرج ياسين يترصد ويراقب تحركات جنود حيدى، فلما تأكد خروجهم من مكان اقامة جيدى دخل ياسين خفية منزل جيدى ثم اقتحم غرفته الخاصة وقتله شر قتله هو ومن معه من مستشاريه وحرسه الخاص ووصل بسرعة نبأ قتل جيدى إلى سائرضواحى بورحكبه وعمت الفرحة كل بيت، واحتفل الناس بمناسبة قتل جيدى، وهطلت الأمطارالغزيرة باذن الله، وكثر الكلأ، وعم الغيث كافة أرجاء (بورحكبه "وعادت بيلن إلى مسقط رأسها حكيمة، وتزوجت رجلا متزنا مشهورا بسخائه وشهامته وعفة نفسه ، وأنجبت بيلن خمس بنات وكان الناس يظنون أنهم استراحوا من شر جيدى ومصائبه، وتوهموا أن الفساد قد انتهى بموته، ولكن الظلم له أنصار وعدد وعدة كثيرة، وبينما الناس يعيشون فى بحبوبة من الرفاهية، والهدوء يسود المنطقة كلها، سمعت بيلن صراخا شديدا فى منتصف الليل من مكان بعيد، ولما اقترب شبح الصوت تيقنت أن الصوت صوت خيول، وما هى الا لحظات حتى رأت جنود جيدى يهاجمون بيتها، فقد كان مع جنود جيدى دليل أخبرهم عن نزلها وقتل هؤلاء الجنود الهمجيون بنتين من بنات بيلن، ووقف الجنود على باب منزل بيلن فرأوا بيلن فى حالة اغماء والدماء تسيل من جسدها، وحسبوا أنها ماتت فتركوها،وشاءت الاقدار أن تخفى بلين بناتها الثلاثة اللائى بقين على قيد الحياة عن عيون الأشرار، وذلك أنها وضعتهن

تجت بطنها واستمر بطش الجنود بالآمنين الأبرياء، وكان زوج بيلن من الضحايا إذ قتلوه فى مدخل بيت عمه يوسف، ونهب الجنود المواشى وهتكوا حرمات النساء، ولم ينج الا قليل من أهل المنطقة، وبعد مغادرة الجنود وزوال الكابوس طلبت بيلن النجدة وهى تصيح بأعلى صوتها، فلم تجد أى مجيب لاغاثتها.

لقد غيرت هذه الحادثة مجرى حياة بيلن وتأثرت بالمصيبة التى نزلت بأهلها وبمنزلها. لكنها كانت صبورة فلم تقل بيلن ولو مرة واحدة " واكرباه " ولم تكن تعرف البكاء والعويل وانما كان قولها الذى ترددة وتعوده لسانها " إن الله مع الصابرين " وعزمت بيلن أن تهاجر إلى ربف بعيد يسمى " اداد " وحملت بناتها الثلاثة على ظهرها ورأسها.

وفى الطريق الطويل كانت تمشى تطعم بناتها وتعطيهم ثمار " الهوهب " وكان فى جعبتها قدح، صغير تشرب فيه الماء، وحينما وصلت إلى اداد لم تبرك بيلن رغم تعبها الشديد كالعجماوات فى مكان خال، ولكنها حيت أصحاب الريف بتحية الاسلام، وشرعت تحكى لهم عن قصة حياتها وما حل بها من مصائب ونوائب، ولم يدخر أهل الريف وسعا .. لمساعدتها، وقرروا أن يمنحوها بعض المال ولكنها رفضت وذكرتهم بأنها تترفع عن أن يراها الناس بمنظر المتسولة .. طلبت منهم المأوى والعمل فقط، وعندما سألوها أى نوع من الأعمال تجيد بينت لهم بأنها خبيرة فى حلب الأبقار وصناعة الحصير، واعداد الخبز، وطفقت تعمل، فحصلت على مبلغ من المال نتيجة لعملها الحثيث واشترت تنورا، ولما حصلت على قدر من المال يكفى لسد حاجتها وحاجة بناتها الثلاثة" سرير" "سوبن " و " سموادا " قررت بيلن الرحيل إلى مدينة " بيدوه " عاصمة محافظة جوبا العليا التى تبعد عن اداد خمسين كيلو مترا، واستأجرت بيلن كوخا متوسط الحال فى بيدوه ولم تكسل بل بدأت تسعى إلى كسب الرزق .. تبيع الخبز وتحصل الأجر من الحلابة وتحسنت ظروف بيلن، وتجاوزت المرحلة العصيبة التى مرت بها ولم تتساهل ولو لحظة واحدة فى تربية بناتها وتعليمهن، وتيقنت بعد مدة وجيزة أن مدرسة ابتدائية توجد بالقرب من عين بيدوه - عين ماء - وأن هناك حضانة جنب

المدرسة يديرها مشرف أمريكى، فسجلت صغرى بناتها فى تلك الحضانة، أما بنتاها الكبرتان فقد التحقتا بالمدرسةالابتدائية، وبرزت عبقريتهما وذكاءوهما فى الفصل واعتادتا بعد فراغهما من ساعات الدراسة ألا تتجها مباشرة الى كوخ أمهما، ولكنهما كانتا تذهبان إلى الحضانة لزيارة شقيقتهما الصغيرة المقيمة هناكفيقبلونها ويتمنون لها الخير و السعادةوالمستقبل المنير، وبعد حقبة من الزمن أنتهت سوبن وسمودا الدراسةالابتدائية فى المدرسة الوحيدة التى كانت فى بيدوه ـ آنذاك ـ وكان السؤال الذى يجول فى خاطر بيلن : ماذا تفعل بناتك بعد أن أتمتا المرحلة الابتدائية ؟ كيف يكون مستقبلهما التعليمى مادامت لا توجد فى بيدوه ولا فى القطر بأكمله مدارس غير ابتدائية ؟ وبعد خمسة عشر ربيعا شاع أن سوبن وسمودا متأهبتين للزواج، وكان فى قرية اداد التى هاجرت عنها بيلن رجل ثرى يسمى " عثمان " يملك كثيرا من المساحات الزراعية والخيول والابل والأغنام، وكان هذا الرجل من أوائل الذين تعرفوا بيلن أثناء نزولها لأول وهلة فى قريته السالفة الذكر.

كان عثمان يعلم حق العلم أن بيلن الأم المناضلة التى كافحت لتحيا الحياة الشريفة، رفعت شأن بناتها، وقد رآها عدة مرات وهي تحلب أبقار جيرانها.. وكان كلما نزل إلى مدينة بيدوه ينظر إلى بيلن بنظره العطف والرحمة حتى إنه مدّلها يد العون مرتين متتاليتين .. وكان عثمان يفكر بالزواج، وقد وقع احتياره على سوبن، وما هي الا أيام قلائل حتى طلب عثمان من بيلن يد سوبن ، وكان يصعب على بيلن رفض طلب عثمان ذلك الرجل الشهم الرحيم الذى أعانها وساندها فى وقت الشدة،وتزوج عثمان سوبن ، ولم ينم أحد من سكان بيدوه فى ليلة زفاف عثمان .. الكل يغنى .. صوت الأناشيد يعلو فى كل مكان، وتطلق البالونات المتباينة الألوان إلى الهواء، والكبار والصغار يهنئونعثمان وسوبن والتقى الزوجان فى بيت الزوجية يتعانقان ويتبادلان كلمات الحب وأخذت ثروة عثمان تنمو وتزيد عما كانت عليه سابقا حتى ظن عثمان أن الله زاد وبارك ماله بسبب اختياره الزواج بسوبن وأغرقت أمواله وما شيته أسواق بيدوه وأريافها، وكان لزاما على عثمان أن يزيد عماله، وتسابق أهل المدينة للتعارف بعثمان .

وبعد تسع سنوات من زواج عثمان لسوبن تأكد عثمان بعد استشارته مع طبيبه الخاص أنه عقيم لا ينجب، ولكونه تقيا ورعا لم يتزحزح ايمانه بقضاء الله وقدره. وفى أحد الليالى جاء رجل يلقب بـ " جانكو " إلى عثمان وهو جالس فى غرفة جلوس المنزل وطعنه طعنة لا انسانية أدت إلى وفاته بسرعة، وأمر جانكو زوجة عثمان وشقيقتها سمودا التى كانت تعينها فى ادارة شؤون البيت أمرهما ألا يخرجا من المنزل وهددهما بالقتل إذا خالفتا أوامره ثم بدأ يعتدى عليهما .. ونجح جانكو فى الاستيلاء على مفاتيح كنوز عثمان، وأسرعت بيلن نحو المنزل لانقاد بنتيها ولكن جانكو ذبحها ثم قطع رأسها، ومثل بها شر تمثيل وسمعت سرير أصغر بنات بيلن التى كانت فى الحضانة البلاء الذى نزل بأهلها،تأثرت تأثرا بالغا بالفاجعة التى لحقت بأمها وشقيقتيها سوبن وسمودا.

وشرحت سرير قصة والدتها وشقيقتيها لمدير الحضانة الأمريكى بعد أن سألها عن سبب انقطاع زيارة أختيها لها، ودهش الأمريكى وسجل القصة فى شريط ونصح سرير أن تبقى فى حضانتيها كى تنجو بنفسها من شر جانكو وسفكه فقبلت نصيحته وما برحت حتى الآن باقية فى حضانة الأمريكى بمدينة " بيدوه ".

والقصة الصومالية المكتوبة بالعربية لم تسلط الأضواء على رذيلة واحدة، فالحديث عن المظالم التى واجهت المرأة الصومالية كانت تمهيدا للحديث عن رذائل أخرى تحتاج إلى القصة الاصلاحية الاجتماعية فالمخدرات التى صارت أزمة مستعصية فى بعض بلدان العالم دخلت الصومال بشكل فظيع، وأعادت على المجتمع الصومالى مصائب ومفاسد كثيرة، وقصة " ورق القات " التالية ليست الا نموذجا حيا لعلاج آفة القات :

فى نهار ساج بزغت شمسه بزوغا لا يكتنفه أى ضباب ولا تغطيه أية سحائب دخل " جيلال " مدينة " جيبوتى " المشهورة بحلقات القات ومجالس السهر والسمر، وبعد مهلة من السير شاهد رهطا كبيرا من الناس التفوا حول البائعين لأوراق القات، وحينما اقترب جيلال من ذلك السوق الصاخب كاد يولج أصابعه فى أذنيه لشدة الضجيج والضوضاء التى سادت

السوق، وطفق يطيل النظر فى تحركات المشترين وصرخات بائعى الورق الأخضر الذين ينطقون بكلمات يمجدون ويمتدحون بها سمومهم الخضراء الجذابة، وقد ازداد اعجابه وتضاعفت دهشته حينما سجلت أذناه كلمات معناها :

"هيا إلى الشجرة المفضلة شجرة الولى المبارك الشيخ " أبادر" هيا إلى قوت الأولياء"

ولما هم جيلال بشراء حزمة من القات من هذا البائع الذى يستخدم هذه الكلمات سمع صوت منادٍ آخر يقول : من لم يبادر بشراء هذا القات فكأنه فقد ميراث أبيه، واستمر فى النداء يكرر عبارات رنانة ومعسولة جعلته يتجه إلى جهته ، واشترى منه حزمة متوسطة الحجم بلغ ثمنها ألفين من الفرنكات، وبدأ جيلال يكمل سيره نحو بيت صديقه فى حى "كارتيه ست" البعيد عن السوق الرئيسى للقات مشيا على الأقدام، ولم يتمكن من استئجار التاكسى ولا دفع ثمن السيارة الذاهبة إلى الحى لأن الفرنكات التى كانت فى جعبته ذهبت هدرا، ونفذت فى ثمن القات، وبعد عناء وتعب شد يدين وصل إلى منزل صديقه (جيلدون " وكانت نفسه فى حاجة ماسة إلى الاستحمام والراحة النفسية ولكنه جلس على الحصير الجميل المفروش بأروع الفرش، واتكأ على المخدة البنفسجية المتلألئة، ووضعت الخادمة أمامه أوانى الشاى ذات الألوان الزاهية والمشروبات المتنوعة، وشرع بفتح حزمة القات وتناولها بشغف، وبعد ساعتين من التخدير غلبته سكره القات، وبد أ يفكر [1] فتذكر أن مجيئه إلى جيبوتى كانت وراءه ثلاثة عوامل " الأول تحديد موعد مناسب لعقد قران حبيبته " سليخة " التى تقطن جبيوتى، الثانى السفر إلى الكويت لنقل بعض البضائع المكدسة فى ميناء الأحمدى التى أوكلها له صديقه جيلدون وتحويلها إلى جيبوتى ، والعامل الثالث كان شراء سيارة نقل تعمل بين " هرجيسا " و " جيبوتى " وكان السببان الأول والثالث مشروطين بالأجرة التى سيحصلها من صديقه جيلدون بعد نجاح مهمة نقل البضائع، وكان جيلال يذهب يوميا إلى الدكان الذى عينه له صديقه ليأخذ منه مصروف طعامه أثناء تواجده فى جيبوتى، فيأخذ منه الألف والالفين والثلاثة

---

(١) ـ التفكير فى أثناء مضغ القات يعنى أن مد من القات يسرح ويدور فى خاطره أمور دنيوية كثيرة .

فيقسمها إلى طعام الغذاء وثمن القات، ولايضع أى حساب للفطور والعشاء، فالفطور عنده وقت نوم والعشاء ساعة ادمان وسهر وثرثرة، ولا يجد فرصة للحاقها، ولا يهتم بالقيمة الغذائية المتوفرة فى طعامى الفطور والعشاء .

ومرت الأيام والشهور وهو فى هذه الحالة من التدهور، واتصلت به حبيبته سليخة هاتفيا تحاوره وتسأله عن حالته ووضعه الوجدانى والعاطفى حول اتفاقيتهما تجاه المستقبل فدس لها الكذب، وخاطبها بأسلوب جعلها تتمتع باجاباته ولا تعلم هذه المسكينة البريئة أن الرجل صار فى عداد المدمنين، وأن المتعاطين لأوراق شجرة القات يعالجون الأمور بقشور، ويفضلون الأمور السطحية عن المهم أو بمعنى أدق يقدمون المسائل الثانوية على الضروريات المفيدة ولو كانت سليخة تدرك تماما سلوك خطيبها المتساهل البعيد عن الجدية والواقع لاستهجنت تصرفاته وعاتبته. ولم يفكر جيلال ولو ساعة واحدة فى انقاد نفسه من الرذيلة التى يتخبط فيها خبط عشواء، ولم يحاول أن يعرف أن طريقه نحو مستقبل شريف ليس معبدا بالورود وانما يحتاج إلى بذل الجهود الحثيثة والعمل الشاق والمثابرة، والأدهى والأمر من كل شيء هو أنه لم يأبه للأضرار الجسيمة التىتنجم عن تعاطى أوراق الشجرة الملعونة.

وفى الحادى عشر من جمادى الأول سنة ست وأربعمائة والف هجريه أخبر صاحب الدكان جيلالى أن المصروف الذى خصصه له صديقه جيلدون قد انقطع، ومن ثم قامت قيامة جيلال ، وبدأ يعتمد على الديون والحيل الدنيئة التى زعزعت شخصيته، وأصبح من الضعفاء المهرجين الذين يغامرون بحياتهم وشرفهم، وتراكمت عليه الديون واذا هم أن ينزل إلى السوق خشى من ضربة يد أو طعنة سكين تأتى إليه من قبل الذين منحوه المال، واستقر ردحا طويلا من الزمن فى غرفته المظلمة التى تحولت إلى أطلال بالية مهجورة وبينما هو قابع على حصيرة دخلت إليه ذات يوم سليخة وفهمت بسرعة أن عمر صديقها قد خسر وضاع، وبدأت تعاتبه قائلة له : لقد توخيتُ منذ زمن غير بعيد توطيد صداقتى لك،وثقت بك، واتفقنا على بناء مستقبل سعيد، ولكننى أرى أنك خدعت نفسك وخدعتنى وتغلبت عليك أوراق الشجرة

المتلونة، أبدت لك اخضرارها وأخفت عنك سمها الزعاف فهذيت كما يهذى المجنون ...

وهنا يسكت جيلال الوضيع خافضا رأسه بمذلة وخضوع، ثم تهزه غريزة الرجولة فيرتجل ويصرخ قائلا لحبيبته : أسكتى أيتها الثرثارة ولا تعاتبنى واذهبى حيث شئت، وكنت فى ذلك الوقت أسكن فى بيت مجاور لغرفة جيلال .

وبينما كنت أستعد لصلاة العصر سمعت صوتا هما المرتفعين الذين كادا يعرقلان صلاتى ولم أتابع عن كثب كل مايتباذلونه من اتهامات ومعاتبات وكنت على يقين بأن ردود جيلال واجاباته السلبية كانت مجرد مهاترات لا تقوم على أساس منطقى، وقررت سليخة فى ذلك اليوم مقاطعته نهائيا، وغادرت الغرفة الشريرة وهى فى حالة من الانفعال الشديد، وخلال أدائى صلاة العصر فى غرفتى رأيت ورقة قات خضراء قد جرفتها الرياح إلى فناء غرفتى وتوقفت أمام سجادتى كأنها تريد أن أخاطبها وأ حاورها أو أحكم عليهابعقوبة شديدة، ولم أوجه نظراتى تجاهها حتى لا تشوش صلاتى ولما فرغت من الصلاة أمسكتها بيدى، وقلت لها : لقد خلقك الله ...وأحسن صورتك ومنحك اللون الأخضر المحبوب عند جميع الكائنات ولكنك كالشيطان الرجيم الذى قال لمولاه: أنظرنى إلى يوم يبعث الخلق كى أغوى وأضل سائر الأنام، واستأنفتُ أسئلتى ومخاطبتى لورقة القات قائلا لها: أفلا أكون من الصادقين إذا قلت لك انك تطهرين لأصحابك مظهرا جميلا ومنظرا خلابا وتبطنين لهم داء دفينا، أليس هذا من التلون يا أيتها الورقة الشريرة ! ولم أعجز عن توجيه كل الصيغ الاستفهامية الى تلك الورقة الهزيلة، فوجدتها مكلومة حزينة لا تطيق الكلام، وعزمت أن أذهب إلى جيلال فحملت ورقة القات بجيبى ودخلت غرفته بعد أن استأذنته، وكاد جيلال يطير من الفرح حينما أخبرته أننى جئت لزيارته.. فرح لأن المجتمع السجيبوتى جعله معزولا ومنبوذا بسبب سلوكه .. وكان يشعر بوحشة كبرى وجلست معه، وقبل أن أبادره بأى كلام أخرجت ورقة القات وقلت له : أتعرف هذه يا جيلال ؟

فأجاب بسرعة قائلا: نعم أعرفها إنها خدنى ورفيقة عمرى . فقلت له : أ مازلت مصمما على حبها ومقدسا اياها ؟ فانفجرت عيناه واستغرق فى البكاء ولم أدعه لحاله بل أخذت أكفكف دمعه وأهدئه، ولم أدخر وسعا لتجريح وكشف شناعة وجرم رفيقته الخضراء - ورقة

القات ـ التى أفقدته أهدافه الثلاثة التى جاء لأجلها إلى جيبوتى سليخة والسيارة والسفر إلى الكويت وما هى الا لحظات حتى وجدت جيلال يطأطئ رأسه، ويستمع بانتباه وبشغف إلى نصيحتى المخلصة، واعترف بأخطائه ووعدنى بأنه سيقطع عن عادة ادمان القات، وأنه سيستعيد سمعته الطيبة وشرفه، وفى نفس اللحظة بدأ يحاسب نفسه، ومد يده إلى متوخيا ورقة القات التى حملتها ليحرقها ظانا بأنها مصدر شؤم فأعطيتها لهوحرقها، وفى اليوم التالى نظف ملابسه وبدأ الصلاة ووفقه الله للعمل الصالح، وصارت له ارادة حديدية هيأت له سبل العيش الكريم واستعاد كرامته، وغدا من المعدودين الذين يعدون على الأصابع حين يتحدث الناس عن مغاوير وشرفاء جيبوتى وعليتها، وحقق جيلال جل الأحلام التى كانت تراوده وسارع كل الذين نبذوه إلى تهنئته وتبرئته .

واذا كانت قصة الاصلاح الاجتماعى قد ركزت على الجوانب التى أشرنا اليها هنا، وعرفنا أنها وجهت كل اهتماماتها حول السبل الكفيلة لعلاج الرذائل التى أرخت سدولها على المجتمع الصومالى فانها لم تقتصر فى الحديث عن هذا الاطار المذكور فقط، وانما تناولت أيضا جانب الفضيلة، والقصة التالية التى تحكى لنا عن الوفاء والصبر على الشدائد إن دلت على شئ فانما تدل على أهمية القصة العربية الحديثة ودورها الكبير فى نشر الفضائل التى تسمو بالأمة وتصون سمعتها :

(١) وفاء اليتيم جوليد :

كان فى مدينة من مدن الصومال تسمى " بلدوين " شاب وسيم الوجه جميل المنظر طيب الخلقة والخلق يدعى " جوليد " .

كان جوليد يتيم الأبوين يعانى من فقر مدقع، ولكى يضمن جوليد حياته ومستقبلة توخى من أحد التجار أن يمنحه عملا، ولحسن الحظ لم يرفض التاجر طلب جوليد، وقبل جوليد المنهة التى عرضها عليه التاجر وهى بيع اللوز والعلكة فى الملاهى والمنتديات وعلى أرصفة الطرقات ، وبدأ جوليد يعمل بجد يبيع اللوز والعلكة طول النهار ويعيد الربح

للتاجر بعد غروب الشمس .

كان التاجر معجبا بسلوك جوليد وأخلاقياته الحميدة كالأمانة والاخلاص والصدق والنزاهة والوفاء، وحينما تأكد التاجر أن جوليد مخلص لا يوجد فى المدينة نظير له فى الطاعة والوفاء قرر أن يضم جوليد إلى بيته، وأن يعده من أبنائه، وسرعان ما أمر التاجر جوليد أن يستعد للعام الدراسى الذى يبدأ فى مدارس مدينة " بلدوين " وفرح جوليد برأى التاجر وبنصيحته المثالية، وقبلهُ قُبلةُ الابن البار بوالده ووعده أن ينفذ أوامره ويقبل نصائحه وتوجيهاته، وكان للتاجر ثلاث بنات جميلات وولدا واحدا وتوثقت العلاقة الودية بين جوليد وأولاد التاجر .

وكان " ايمان " الابن البكر للتاجر يكره كل من يسئ إلى جوليد أو يعامله معاملة الغريب، ودار خلاف حاد بين عم ايمان - شقيق التاجر الوحيد وايمان حول شأن جوليد .

وذات يوم سافر التاجر إلى مقدشو للعلاج، ولما تيقن شقيق التاجر مرض أخيه طرد جوليد من المنزل، فثار ايمان وهاجت عاطفته وانفعل انفعالا شديدا، وحلف ليخرجن من المنزل إن لم يعد إليه جوليد، وتدهورت حالة البيت وتضعضعت شئونه منذ أن غادره التاجر الطيب الصدوق، ولم يتأثر جوليد بالسلوك التعسفى الذى عامله به شقيق التاجر بل صبر وصابر وجد واجتهد، لأجل تدبير قوت يومه، وعمل فى أحد مطاعم المدينة ، وبينما هو يعمل فى المطعم عاد التاجر من سفره ووصل إلى المدينة، وشاهد التفكك الذى أصاب بيته وأسرته، وشرح ايمان لأبيه الخطوة اللانسانية التى اتخذها عمه ضد جوليد البرئ،وتأسف التاجر من سلوك أخيه العدوانى ووجه إليه اللوم الشديد والعتاب المرير، وذهبا التاجر وابنه " ايمان " معا إلى المطعم الذى كان يعمل فيه جوليد، فقد كان " ايمان " يعرف المطعم قبل مجئ أبيه، وأعتاد أن يزور صديقه الحميم ، ولما رأى جوليد التاجر وابنه قادمين إليه اهتز لشدة الفرح، وتقدم مسرعا نحوهما وعانقهما بحماس، ووضع جوليد كرسيين ثطيفين للتاجر وابنه، وجلسا تكريما واحتراما لجوليد الأمين، وأخبر التاجر جوليد أنه متأسف لما وقع

عليه من طرد وتشريد، فكان رد جوليد رد الرجال إذ قال للتاجر: إن سلوك شقيقك تجاهى كان بسيطا ولا يجوز الاهتمام به، وبعد برهة قصيرة من الجلوس أمر التاجر جوليد أن يعود إلى البيت، ولم يبق فى ذلك اليوم من العام الدراسى الا أياما معدودات .

وقال " ايمان " لوالده : يا أبى انه يذهب معنا الآن ولا نتركه فرحب التاجر بقول ابنه، وركب جوليد معهما السيارة الفخمة وتوجها إلى البيت، وبعد فترة موجزة من الزمن بدأ العام الدراسى، وتأهب جوليد للدراسة، وظهر نبوغ جوليد فى الفصل وبرزت عبقريته بسرعة مثل سرعة البرق .

كان جيدا فى جميع المواد، وأحبه الأساتذة والطلاب، ولم يكن يعرف الكسل والتواكل يقرأ فى الغدو والآصال، ويذاكر دروسه فى كل آن وأوان وكان يساعد زميله المخلص " ايمان " فى حل المسائل الحسابية والتمارين النحوية، وغير ذلك من العلوم المتباينة.

وفى إحدى الليالى شاهد أثناء استراحته ظاهرة لم يرها قبل الآن - أى قبل تلك اللحظة رأى " جواهر " شقيقة ايمان كبرى البنات تذرف دموعها وهى جالسة وحدها على كرسى قريب من الصالون فظن أن نائبة من نوائب الدنيا نزلت عليها فتحرك نحوها، ووقف أمامها سائلا اياها: مالكِ ياجواهر ماذا جرى لك ؟ ما سبب حزنك ؟ فقالت بصوت هزيل : إننى تذكرت يوم طردك عمى من بيتنا. فقال لها : يا جواهر إن ذلك كان أمرا هينا وقد فات ما فات .

كانت جواهر آنذاك فى عمر الزهور، وكان جمالها المتلائى يلمح بوضوح وظهرت أنوثتها الفاتنة وشعرها الذهبى، وماهى الا لحظات حتى شعر جوليد بشئ من الاغماء .. إنه ليس الاغماء الحقيقى ولكن سهام الحب أصابت قلبه، وبعد يومين من هذه الحادثة خرجت أسرة التاجر ومعهم جوليد إلى نزهة فى حديقة الحيوان .

كانت جواهر طوال مدة النزهة تنظر صوب جوليد بحب وشغف ومن ثم تأكد جوليد أن الحب كان العامل الأساسى الذى أسال دموعها فى الليلة السابقة، وعلم تماما خلال هذه النزهة أنها تحبه حبا جما، وسر جوليد بنظرات محبوبته وابتساماتها العذبة الجذابة، ومرت

الأيام والسنوات ، وأنهى جوليد المرحلة الثانوية، فأرسله التاجر إلى مقدشو حيث الجامعات ليواصل تعليمه هناك، فاختار جوليد " كلية التربية والتعليم »

القريبة من مدينة " أفجوى " السياحية، وكانت هواية جوليد المفضلة " الأستانية " ولهذا وقع اختياره بهذه الكلية التى تخرج المدرسين، والتحق " ايمان " ابن التاجر بكلية الطب .

وكان جوليد فى أثناء دراسته يراسل جواهر ويتتبع أخبارها وأخبار والدها التاجر، وكانت جواهر ترسل الجواب أسبوعيا وعززت هذه الرسائل رابطة الحب، وعرض جوليد فكرة الزواج لجواهر فرحبت برأيه، واتفقا على الزواج بعد تخرجه من الجامعة وفى كلية التربية المشهورة عند الصوماليين بـ " لفولى " أصبح جوليد مضرب المثل فى الصدق الأخلاق، تشتاق إليه المراهقات وتتسابق إلى مصاحبته الفتيات اللائى كن يصفن ملامحه الجسدية ويشبهن جماله بجمال يوسف عليه السلام ولكن جوليد بعزيمته وحزمه أبى أن يكون دمية فى يد فتيات الحب المتقلب أو المتلون الذى لا يبقى بأكثر من عشية واحدة وضحاها، وبحث جوليد عن ملجأ ينقذه من كمين حبائل الشيطان فذهب إلى أحد المطاعم الواقعة فى الأذغال القريبة من قاعة " لفولى " وهناك طلب من الحاج عمر صاحب المطعم المتواضع كأسا من الحليب وبدأ جوليد يتأمل ويفكر فى اخلاص التاجرالذى مهد له سبل العيش - باذن الله - ووفر له الحياة السعيدة، وعن جواهر التى أحبته وأحبها، وتساءل كيف يواجه حملة المراهقات، وقبل اتمامه شرب كوب الحليب تذكر قول الله تعالى (ففروا الى الله) ثم سمع آذان العصر، وعلم أن الملجأ هو بيت الله والالتزام بأوامر الله والاعتصام بحبله، ومنذ ذلك اليوم كان جوليد أسبق المصلين إلى الصف الأول للصلاة، وقبل موعد الصلاة كان يتلو كتاب الله متدبرا لاقارئا كقراءة المقلدين ، ومن ثم لم تجد بنات الفجور أى سبيل إلى جوليد وتوقفن عن الحديث معه، والمدهش أن " جائفة " احدى فتيات شعبة المواد الاجتماعية لم تصبر ولم تتوقف عن بذل الجهد لكسب قلب جوليد .

كانت جائفة ابنة أحد نواب محكمة الأمن القومى، وقد تعودت أن تترك سيارتها بالقرب من

محراب مسجد " لفولى " الجميل . وكانت تتزيى - تلبس - أزياء مكشوفة مزركشة وملونة، وقد طلب أحد الطلاب المتدينين منها ذات يوم أن تلتزم بالحشمة والحياء وتنقل سيارتها فى أثناء الخروج من الصلاة إلى مكان ناء عن المسجد وكان ردها البذىء أن تبصق على وجه الطالب العفيف .. وعلم جوليد بهذه الحادثة فزادته نفورا وكراهية لتلك الفتاة المتكبرة وفى مساء ليلة جمعة طرقت جائفة باب غرفة جوليد بدون خجل وكأنها على موعد معه،ففتح جوليد الباب فاذا هي تفاجئه بكلمات عاطفية راجية منه بالحاح شديد أن يصحبها إلى أفجوى فأخبرها بعدم استعداده لمرافقتها فانصرفت حزينة متأسفة من كلمات جوليد، وفشلت جائفة فى دراستها، وألم بها مرض نفسى نجم عن حبهاالياًئس لجوليد، فأضحت هزيلة شاحبة الوجه محطمة البال.

ولم يستطع والدها القاسى معرفة داء ابنته، فقرر لها ضربتين بالسوط بعد غروب كل نهار، ونتيجة لهذا السلوك البهلوانى الغريب أصابها الجنون . وشرع والدها الأبلة يبحث عن أسباب فشلها فى الدراسة واستغرب جنونها .. وقد اتصل ذات يوم بعميد كلية " لفولى " ليتيقن منه حالة بنته جائفة فى أيام دراستها بالكلية، واكتفى العميد بعبارة موجزة قائلا : إن ابنتك لم تكن من الطالبات النجيبات المجتهدات .. ولم يجد النائب ما يوصله أو يقربه إلى الحقيقة وكان أحد الموظفين فى ادارة السكرتارية يستمع باهتمام إلى حوار النائب والعميد حول مسألة جائفة، وحينما خرج النائب من مكتب العميد ناداه الموظف ونصحه بالاتصال ببعض زميلات جائفة فى لفولى أو التشاور مع بعض الطلبة العقلاء الذين يمكن أن يكون لديهم معلومات عن موضوع جائفة، فرحب النائب بنصيحة الموظف وتحرك وهو ينفخ دخان سيجارته على وجه الموظف، وعاد الموظف إلى مكتبه مندهشا من سلوك النائب، وبعد أيام من التحريات تأكد النائب من حادثة البصاق، ومشكلة السيارة ومحراب المسجد وكذلك، رفض جوليد صداقة ابنته وأدى هذا لاقتفاء والتتبع الى تبذخ النائب واتخانه فى الأمر بطريقة غير منطقية، وظن أن الجبروت ييسر القضية ويسهل العقبات، وبدأ يهدد جوليد، وفى احدى أيام الاجازة الجامعية نجا جوليد بأعجوبة من الموت عندما كادت تدهسه سيارة قادمة

مـــــــــــن " أفجوى " فلم تصب السيارة جوليد، وانما دهست عجوزة تحمل الحطب ، وعلم أخيرا أن الهذف كان جوليد، وذلك عندما اعترف السائق أمام شرطة المـــرور أن النائب حرضه على التخلص من جوليد، وأخرجت الشرطة من جيب السائق صورة جوليد التى حصلها النائب من أرشيف " لفولى " ...

ولم يبال جوليد بهذا التصرف العشوائى الجبان .. ولكنه منذ ذلك الحادث ظل متفتح العين ساهرا فى الدفاع عن نفسه، ولم يشغله هذا الغدر عن واجبه التعليمى وعن حبـــه لـ " جواهر ".

وكان يراسل محبوبته جواهر ووالدها التاجر المثالى .. وبعد مرور عدة أعوام أنهى جوليد دراسته، وحاز على شهادة الليسانس بتقدير " ممتاز ".

وفجأة عينته وزارة التعليم مدرسا فى مدينة بلدوين ، وتوجه جوليد بسرعة إلى مسقـــط رأسه، ونزل فى بيت التاجر، وأصبحت جواهر ممرضة فى أرقى وأروع مستشفى فى بلدوين، ورآها جوليد وقد ازدادت جمالا على جمال .. وطلب من والدها التاجر يدها.

فوافق التاجر رغبة جوليد ورحب به ترحيبا شديدا وهو يقول : " إنك ياجوليد زوج ابنتى جواهر العزيزة وأقسم بالله أن حظها سعيد مادمت قد طلبت منى يدها فأنت ابنى البار، وأنت أوفـــى الأوفياء " وأعطاهما التاجر فيلة فخمة مفروشة كاملة الأثاث .

وقبل عقد القران بيوم واحد خر التاجر صريعا على الأرض بعد أن هاجمته نوبة قلبية، وفارق الحياة .

وتولى زمام الأسرة وادارة ثروة التاجر شقيقه المعروف بالقسوة والعنجهية، وحاول جوليد أن يوطد ويحسن علاقته مع شقيق التاجر، ولكن شقيق التاجر رفض رفضا باتا بزواج جوليد الفقير بنت المليونير الجميلة جواهر.

وقال شقيق التاجر لجوليد:

سأقتلك اذا لم تترجع عن طلبك ليد جواهر !

ووضع شقيق التاجر مفاتيح الفيلة فى جيبه .. ولكن المشيئة الربانية وقدرة الله كانت فوق كل تهديد وترهيب إذ فرت جواهر من البيت ولجأت إلى منزل أحد أقربائها..

وتعرف جوليد على ذلك المنزل، وهناك تم عقد قرانهما.

الخـــاتمـــة

كان بديهيا أن أوضح فى هذا البحث بأن العلاقة الصومالية العربية الوثيقة أدت إلى تكوين أو ايجاد ثقافة عربية واسعة النطاق فى أرجاء الصومال، وكان لزاما على توضيح نمط الثقافة العربية السائدة فى الصومال ودورها فى ترسيخ الأدب العربى فى نفوس الصوماليين الذين اختلطوا بمجتمعات لا تمت بأى صلة إلى تراث الأمة العربية.

ويجدر بي أن أذكر هنا أن الشعر العربى يمثل جل أنواع الثقافات العربية فى الصومال، فقد عرف الصوماليون الشعر العربى قبل القصة والخطبة وانتشر فى أوساط الصوماليين الشعر الصوفى الذى يعد أكثر أنواع الشعر العربى رواجا فى الصومال، ولا يخفى على أى باحث يهتم بالأدب العربى فى الصومال أن انتشار الشعر الصوفى كان له أثر كبير فى المدارس الصومالية المتخصصة فى المجال الدينى، ومع أن غالبية القصائد الصوفية التى نظمها الصوماليون كانت مهلهلة النسج ولم تصل إلى مرتبة الجودة الشعرية فان هناك قدر من القصائد لايستهان به وحقق فى اطار الأدب العربى بالصومال نوعا من النجاح المعقول، وقد ذكرت بعضها فى هذا البحث، ولم أعثر على كل القصائد الجيدة وأشهر مثال يذكرونه فى هذا الصدد أبيات وردت فى كتيب (سراج العقول والسرائر) فى التوسل بالشيخ عبد القادر الجيلانى يقول فى مطلعها:

يا محي الدين أحينا يا معتمد * يا سيدى كن لى ظهيرا بالمدد

وللشيخ أويس قصيدة بعنوان حادية الأنام يقول فيها:

إذا ماشئت تيسير المراد * فصل على رسولك خير هادى

وقل مستنجدا فى كل ناد * صلاة الله ما نادى المنادى

على المختار مولانا الحماد

وكان حريا الاشارة إلى الشعر الحماسى الذى أوضحته فى هذا البحث إذ يعد الشعر

الحماسى من أهم الأغراض الشعرية فى الصومال الأمر الذى يبرهن لنا على صحة القول بأن الشعر الصومالى له علاقة متينة بالشعر العربى من حيث الأغراض الشعرية والشكل وأقصد الوزن والقافية، والملاحظ أن الشعر الصومالى يلتزم القافية الموحدة فنقول كما عهدنا فى المصطلحات الأدبية قصيدة الميمية للبوصيرى نظرا لحرفها الموسيقى الأخير وهمزية شوقى، ومثل هذا أو بالأحرى هكذا يسمى الصوماليون كل اشعارهم بالعينية والهمزية والنونية وما شاكل ذلك .

وينبغى أن أبين أن الخطب والأمثال التى ذكرتها فى هذا البحث تؤكد القول بأن فنون الأدب العربى فى الصومال يكمل بعضها بعضا، وهذا يوصلنا إلى نتيجة مفادها أن أنماطا من الأدب العربى المنتشر فى الصومال بشكل متواضع خلقت لنا لغة مكنت بعض هواة الأدب الموجودين فى بلد تم عزله عن العالم العربى بكتابة قدر بسيط من القصص المكتوبة بالعربية التى أسلفت ذكرها .

وعلينا ألا ننسى فى أثناء حديثنا عن أثر الأدب العربى فى القصة الصومالية أن دراسة الشعر والخطب والأمثال العربية كانت ضرورية بالنسبة لمن يريد أن يكتب قصة، وهذا دليل على أن كتابة القصة العربية فى الصومال كانت آخر فن من فنون الأدب عرفه الأديب الصومالى، وحسب اعتقاد الأديب الصومالى لا يمكن لكاتب القصة أن يتقدم فى مجال كتابة القصة إذا لم يحفظ أولا مزيدا من الشعر والأمثال والخطب العربية الراقية، ومن ثم كان لزاما على الكاتب المولع بالجانب القصصى دراسة فنون الأدب الأخرى المذكورة، ونستنبط من هذا القول أن الشعر العربى كأشعار شعراء التصوف الصوماليين أمثال الشيخ عبد الرحمن الزيلعى والشيخ أويس وغيرهما، وكذلك شعر شوقى وحافظ ابراهيم والرصافى والبارودى جعل الأدباء ينظرونه بعين الاهتمام،والاعتقاد السائد عند الصوماليين هو أن من لا يجيد فهم فنون الأدب العربى ولا يستطيع أن يمتلك ناصية اللغة والبيان فانه لا يصبح قصاصا ناجحا، ولهذا أقول باختصار: إن كتابة القصة فى الصومال كانت مشروطة بمعرفة ودراسة الأدب العربى، وهذا يبرهن على صحة قولى بأن الأدب العربى

أثر تأثيرا جليا فى القصة الصومالية العربية.

ولكى أبين للمهتمين بالصومال وتراثها علاقة الأدب العربى بالقصة الصومالية كان بديهيا أن أختار هذا الموضوع كي أكشف النقاب عن موضوع جديد لم يسبق تناوله قبل الآن.

وإذا كان هناك كتاب أو باحثون صوماليون سلطوا الأضواء على الشعر العربى فى الصومال أو عن العلاقة التاريخية بين العالم العربى والصومال فان موضوع أثر الأدب العربى فى القصة الصومالية يعد فتحا جديدا واكتشافا يفيد الأجيال القادمة التى سوف تسعى لفهم الصلة التراثية الوطيدة بين الصومال التى أراد المستعمرون فصلها عن الأمة العربية والعالم العربى.

وقد عرضت فى هذا البحث مقارنات أوضح فيها أوجه التشابه بين القصص الصومالية سواءكانت مكتوبة بالعربية أو اللاتينية وبين القصص العربية، ولعلى أكون موفقا إذا قلت إن قصص السير تضاهى بشكل لا غموض فيه قصص العرب القديمة، ولنقل إن شئنا الدقة قصص العصر الجاهلى مثل قصة عنتر بن شداد.

ومن المستحسن أيضا أن أشير هنا إلى أن هذا البحث يعطى لمن يريد فهم الأدب الصومالى فكرة تدل على أن الأدب الصومالى متمسك بالتراث العربى القديم، فالشعر والخطبة والقصة والأمثال كلها ذات طابع بدوى، ويدرك الدارس للأدب الصومالى أن القاعدة الأساسية للتراث الصومالى تستند إلى بيئة بدوية تعتمد اعتمادا شبه كلى على حياة الرحل أو التنقل لذا نلاحظ أن السمة البارزة التى تغلب فنون الأدب الصومالى كما شرحت فى هذا الكتاب هي الأنفة والكبرياء والكرم والافتخار بالبطولات والوقائع الفاصلة ... الخ .

والنسبة الضئيلة من القصص الحضرية لم تثمر كما أثمرت قصص البدو ولكنها فى طريقها إلى النجاح والتطور، وزبدة القصص الممتعة التى تتحدث عن وقائع وأحداث المجتمع الذى تسوده حياة الاستقرار هي تلك القصة التى سميناها بالقصة الاصلاحية مثل قصة

" مانفاى " التى كتبها القصاص الصومالى محمد طاهر أفرح فالمشكلة الاجتماعية التى تواجه بطلة هذه القصة مانفاى لم تكن قصرا على معاناة فئة معينة بل نلحظ فى اتجاهها الاجتماعى الحديث تقوم بترسيخ الدور الاصلاحى الذى تمر به القصة الصومالية ورغم غياب الأصول الفنية للقصة الصومالية الاجتماعية ذات الطابع العربى فاننا نقر أن القصة الاجتماعية تبحث عن الحلول الناجحة التى تخرج البنت الصومالية عن الشقاء والمعاناة الناجمتين عن التقاليد البالية التى تفرض على المرأة الصومالية الرضوخ للزوج الذى يطلب يدها بدون النظر إلى ذوقها أو اختيارها لشريك حياتها.

ويتضح لقارىء هذا البحث أن بعض القصص تنتهى بنهايات مفرحة، والسبب كما ذكرت فى مقدمة الفصل الثانى يرجع إلى أن مزاج الصوماليين يميل غالبا إلى القصص التى تنتهى بنهايات متفائلة فقصة وفاء اليتيم جوليد و " ورق القات " يمثلان هذا النمط وكذلك يختتم محمد طاهر قصة (مانفاى " بخاتمة أو بنهاية بعيدة كل البعد عما يسمى المأساة فهو يذكر بالتفصيل مظاهر العقبات التى تعترض سبيل " مانفاى " لكنه لا ينسى بيت القصيد - كما يقولون - وهو الوصول إلى الحل أو العلاج لمشكلة " مانفاى "، هذا وتجدر الاشارة هنا إلى أن الميزة السائدة لأهم القصص الواردة فى هذا البحث تدور حول معاناة المرأة الصومالية التى لم تنج عن مظالم المجتمع، فالمرأة فى الصومال واجهت المزيد من المواقف السلبية التى يهان ويسلب فيها حقوقها وارادتها، وكانت ظاهرة الانتحار التى شاعت بأوساط البنات الصوماليات فى السبعينات قد خلقت جوا قصصيا يعبر عن مشاعر المرأة الصومالية إزاء الاضطهاد الذى أرخى سدوله عليها.

وإذا لخصنا بشكل اجمالى القصة الصومالية وعلاقتها بالأدب العربى يلاحظ القارىء فى أثناء تصفحة لهذا البحث أن القصة الصومالية المكتوبة باللغة العربية قليلة جدا، وقد أوضحت بطريقة مفصلة سبب هذه الندرة، وينحصر العامل الرئيسى فى ذكر المحاولات الغربية المتكررة التى حالت دون انتشار اللغة العربية فى الصومال، ومنعت الطالب

الصومالى دراسة لغة الأجداد ألا وهي لغة الضاد المقدسة عند سائر المسلمين، والقدر البسيط من القصة الصومالية الذى تبقى عندنا يتكون من قصة تقليدية قديمة تشبه كثيرا قصص السلف من العرب من حيث الشكل والموضوع .

وفى نهاية المطاف يسعدنى أن أذكر بأننى هنا أتحدث عن موضوع شيق لم يسره القارئ العربى وبالذات الصومالى من قبل، وعلى أن أوضح بأننى عكفت فى الاطلاع والتردد فى المكتبات بحثا عن مراجع تزودنى قدرا من المعلومات حول هذا الموضوع الطريف الجديد، وقد سافرت فى بعض البلدان العربية التى تملك مجامع لغوية ومكتبات غنية للحصول على المراجع الضرورية لكننى لم أعثر على كتب تغنينى عن السفر، وكل ما وجدته كان ضئيلا للغاية، ومع هذا العائق الذى اعترض سبيلى فاننى بذلت قصارى جهدى لاعطاء هذا البحث حقه، وربما أكون موفقا فى كتابتى وشرحى لما تضمنه هذا الكتاب من فصول عن عوامل تأثر القصة الصومالية فى الأدب العربى ، وأحمد الله الذى يسر قلمى لخدمة العلم ، والله ولى التوفيق .

المـــراجـــــع

١ ـ الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث	: أنيس الخوري المقدسي.
٢ ـ أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب	: عبد الكريم الجهيمان .
٣ ـ البخلاء	: الجاحظ .
٤ ـ بداية و نهاية	: نجيب محفوظ .
٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية .	: لجرجي زيدان .
٦ ـ جحا الضاحك المضحك .	: عباس محمود العقاد .
٧ ـ الجوهر النفيس في خواص الشيخ أويس .	: عبد الرحمن شيخ عمر علي .
٨ ـ دائرة المعارف	: مجموعة من المستشرقين .
٩ ـ سيرة عنترة بن شداد.	: مجموعة من القصاصين العرب .
١٠ـ الصومال قديما وحديثا .	: حمدي السيد سالم.
١١ـ عالم الحكايات الشعبية .	: فوزي العنتيل .
١٢ـ القصة العربية في الخليج العربي .	: ابراهيم عبد الله غلوم .
١٣ـ القصص الشعبي في قطر .	: د . محمد طالب سليمان .
١٤ـ كليلة ودمنة .	: ترجمة عبد الله بن المقفع .
١٥ـ مختارات من التراث الأفريقي .	: أندرو ويسكي .
١٦ـ المعتقدات الشعبية في التراث العربي	: محمد توفيق السهلي وحسن الباشي .
١٧ـ منهج الفن الاسلامي .	: محمد قطب .

الفهرس

****

المقدمة..... ١

الفصل الأول : الثقافة العربية في الصومال..... ٥

الفصل الثانى : القصة الصومالية في العصر الحديث..... ٤٦

أ - الجذور والأطوار..... ٤٦

ب - فنون القصة الصومالية..... ٦٤

الفصل الثالث : ا - القصة الصومالية وروافدها العربية..... ١٠٨

ب - نماذج من القصة العربية في الصومال..... ١٢٤

الخاتمة..... ١٥١

****